السيد حسن الأبطحي

سير إلى الله

دار المحجة البيضاء

شبكة الفكر
alfeker.net

سيرٌ إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد حسن الأبطحي

سير إلى الله

ترجمة

إبراهيم رفاعة

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب.: ١٤/٥٤٧٩ - هـاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb

في الليلة السعيدة لمولد الإمام الهُمام موسىٰ ابن جعفر الكاظم (عليه آلاف التحيَّة والسلام).. كان البَدْء بتأليف هذا الكتاب، أي في السابع من شهر صفر الخير، عام ١٤١٤هـ

أسأل الله (جلّ جلاله) أن يمنّ علينا بلطفه لأداء ما أُمرنا به وحَمَّلَناه.. إنّه وليّ الخير والتوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

منذ صدر كتاب (في محضر الأستاذ) انبرت طائفة من القرّاء ـ بعد قراءتهم الكتاب ـ لتزكية أنفسهم، وللارتقاء صوب الكمالات الروحيّة. ولقد مَضَوا، تحت نظر أستاذهم، صُعُداً في الطريق إلىٰ بناء شخصيّاتهم، حتىٰ ظفروا بمقامات عالية أقلها ترك المعاصي وأداء الواجبات ممّا نالوا به «مَلَكة العدالة». وقد فاز بعضهم بمقام أرفع إذ أصبح في عداد أولياء الله. وانفتحت بصائر ثلّة منهم علىٰ "الحقائق العليا، ووجدوا أنفسهم يمشون أسوياء علىٰ الصراط المستقيم.

ومن هؤلاء من التزم أن يكتب ما يشبه المذكرات يصوّر فيها حالاته الروحيّة وما طرأ عليها من التغيير والتبديل. وفي هذا الكتاب نستلّ بعضاً من هذه المذكرات، عسىٰ أن يكون فيها ما ينفع في فتح السبيل أمام السالكين إلىٰ الله (تبارك وتعالىٰ)، مختارين منها ما يسهل تقبّله، ومغفلين ذكر أسماء أصحاب هذه التجارب الروحية المربّية.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذه المقدّمة أنّ جُلّ هؤلاء قد عبروا مرحلة اليقظة من نوم الغفلة واختيار الاستاذ من تلقاء أنفسهم. وبعبارة أجلىٰ أنّهم قد أفلحوا

في تجاربهم هذه بهداية من الله (جلّ جلاله). وأنّهم كانوا علىٰ درجة من المتانة والاقتناع بالسبيل الذي سلكوه بحيث لم يعرض لهم أدنىٰ وهن وارتباك.. وهم ماضون في نهجهم هذا حتىٰ يصلوا إلىٰ الغاية القصوىٰ ويبلغوا مقام الكمالات الروحية العظيم.

وهذا يعني أنّ من يعمل بما ورد في تجارب هذا الكتاب، يغدو بإمكانه ـ إلىٰ جوار احرازه الكمالات الروحية ـ أن يكون مصدر عون للآخرين في هذا المجال، إذا كان متفقّهاً وذا بَصَر وفراسة.

ولكن ينبغي أن لا يُغفل أنّ السالك إلىٰ الله لا يتسنىٰ له أن يظفر بالكمال المطلوب بدون استلهام من أستاذ مرشد، وبدون استمداد من عارف خبير بالطريق، أو متخصّص في قضايا تزكية النفس قادر علىٰ تشخيص أدواء النفس ووصف العلاج. ذلك أنّ السالكين إلى الله (عزّ وجلّ) كانوا قد نبتوا في بيئات متنوّعة، ولهم مراتب روحية متفاوتة، وحالات ـ مِنْ ثمّ ـ متفاوتة. ويكون عمل الاستاذ هنا شبيهاً إلىٰ حدّ كبير بعمل الطبيب المتخصّص: يفحص مريضه في بادىء الأمر، ويحدّد مرضه الروحيّ، ويحدّد له ما يلزمه من الدعوات أو الأذكار والعبادات المناسبة.

المسألة المهمّة الأخرىٰ أنّ السالك إلى الله لا ينبغي له أن يفكّر بعبور مرحلة إلىٰ سواها من مراحل الطريق قبل أن يستكمل المرحلة التي هو فيها؛ فإنّ أسلوب «حرق المراحل» لا يكون له هنا من معنى. بل أن علىٰ الأستاذ ألاّ يتحدث لتلميذه عن المرحلة القادمة مادام لم يتحقق بالمرحلة الفعليّة، ذلك أنّ المرء ميّال إلىٰ التلبّس بما يسمع به من الفضائل حتىٰ إذا لم يعدّ لها عدّتها اللازمة. وربّ امرىء ـ علىٰ سبيل المثال ـ ما يزال غير قادر علىٰ هجران المعاصي والذنوب ولم يَطْوِ أيّ مرحلة في الطريق.. يودّ ـ حينما يسمع عن أهميّة الخلوص وقيمة مقام المخلَصين ـ أن يخطو لتحقيق هذا المقام في نفسه بدون أدنىٰ مقدّمة تمهّد له المسير. في حين أن كلّ صفة من

الصفات الذميمة تحتاج معالجتها عادة إلىٰ بضعة شهور. . حتّىٰ تتزكّىٰ النفس الإنسانية تماماً. ومن البيّن الذي لا مراء فيه أن المرء لا يكون خالصاً لله (تعالىٰ) ما لم يكن قد تزكّىٰ من الرذائل.

إنّ المؤمنين علىٰ درجات و«أسهُم» ـ كما ورد في الحديث. بعضهم له سهم واحد، وبعضهم له سهمان، وفيهم من له ثلاثة. . . وهكذا إلىٰ السهم السابع من الإيمان ومراتب الكمال. يقول الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «لا تَحمِلوا علىٰ صاحب السّهم سَهمَين، ولا علىٰ صاحب السّهمين ثلاثة. . فَتَبْهَضُوهم»[1].

ثمّة قضيّة أخرىٰ ينبغي التذكير بها، وهي أنّ التجربة العملية قد دلّت أن من يأخذون بما جاء في صفحات هذا الكتاب، ويلتزمون تماماً بما ينطوي عليه من ارشاد. . فإنّهم يظفرون بالوصول إلىٰ هدفهم في الكمالات الروحيّة ـ خاصّة إذا كان لهم أستاذ صالح يشاورونه ـ ويتأهّلون بنصرة الله لهم ومعونة الأولياء المعصومين عليهم السلام ليكونوا من أولياء الله، وليرزَقوا ـ إلىٰ جوار هذا ـ المكاشفات والمشاهدات والكرامات العالية، بل إنه قد يغدو من مصاديق الحديث القدسيّ المعروف: «ما يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل. . حتىٰ أحبّه. فإذا أحببتُه كنتُ عَينه التي يبصر بها، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها. أقول للشيء: «كن». . فيكون. ويقول للشيء: «كن». . فيكون». إنّ مثل هذا الإنسان سيكون ـ طباق بعض الأحاديث ـ مَثَلاً ومرآة لكلّ صفات فعل الله (جلّ جلاله).

---

(١) الكافي ٢: ٤٢.

موضوع الكتاب

جَرَت العادة أن نستمع إلىٰ أحاديث الأساتذة والمعلّمين. . نتعلّم منهم. وقلّما سألنا أحداً من التلاميذ والمتعلمين أو استمعنا إليهم؛ فربّما كان لديهم ما يقولونه. يقول أحد الكبراء: لقد تعلّمتُ من التلاميذ، بقدر ما تعلّموا منّي.

وفي هذا الكتاب نستمع إلىٰ تلاميذ أخذوا من أستاذهم ودَرَجوا في مراحل السير والسلوك. . وهم يقصّون علينا من تجارب طيّ الطريق الخطير، من أجْل أن يغدو الإنسان «إنساناً». وفي استماعنا إلىٰ أحاديث هؤلاء التلاميذ ما يزيدنا خبرة ويعمّق من اطلاعنا علىٰ حالة الطالب والمرحلة، ليكون بإمكاننا عبور مراحل الطريق علىٰ نحو أيسر وأبصر.

نقرأ في هذا الكتاب، إذَن، تجارب روحيّة لطلاب تدرّبوا سنوات لدىٰ أُستاذ خبير. . وتدرّجوا في السير حتىٰ بلغوا مقامات إنسانية عالية وفازوا بالكمالات الروحيّة وبمعرفة حقائق الوجود.

الفصـل الأول

اليقظـة

- الأحلام الذهبيّة العجيبة
- جوّ الأُسرة
- شمس جماله.. بعثتني من مرقدي
- الخوف من الأفعىٰ
- النحلة تتكلّم
- فرخا العصفورة التي ماتت
- أنت لا تصلح أن تكون زوجاً لي
- هزّتني معجزات الإمام الرضا عليه السلام
- ليلةَ سَطَعت القبّة بالنور
- كرامة الإمام الرّضا عليه السلام
- تأثير آيات القرآن
- كيف أصحو من غفلتي؟
- الشكّ المقدّس
- أثر كتاب «معراج الروح»
- اللقاء بإمام الزمان عليه السلام
- صحوتُ من نوم الغفلة

في هذا الفصل أقاصيص وبيانات التلاميذ فيما يتّصل بمرحلة اليقظة والإفاقة من نوم الغفلة، وما يحسّه الإنسان في هذه المرحلة من العوالم المعنوية، وكيف يحافظ السالك إلىٰ الله (تعالىٰ) علىٰ هذه الحالة إلىٰ آخر سيره وسلوكه.

الأحلام الذهبيّة العجيبة

أنا شاب. . سلختُ من عمري أكثر من عشرين سنة وأنا سادر ـ إلىٰ الآن ـ في نوم غفلة عجيب. لمّا حصلت علىٰ شهادة الثانويّة (البكالوريا) كان ظنّي أنّ هذه الشهادة هي إلهي، حبيبي. . وكلّ شيء! حينما عدت إلىٰ البيت أحمل الشهادة كان أبي وأمّي يحلمان بي أحلاماً ذهبيّة عجيبة. أحدهما يقول: سيغدو ولدنا موظفاً يؤمّن معيشتنا. يقول آخر: سيواصل تعليمه الجامعيّ إنْ شاء الله ويكون طبيباً، وعندها لا يمكن أن يقال له: فوق عينك حاجِب! ويقول ثالث: أحبّ أن يصبح مهندساً ذا دَخْل كبير. وهكذا اجتمعوا جميعاً ليغرقوني تماماً في نوم من الغفلة عجيب. إنّ أحداً منهم لم يَقُل مثلاً: عليه الاعتماد علىٰ الله في كلّ ما يهمّه. أو: ينبغي أن يستفيد أيضاً من المعاني الإيمانيّة والروحيّة. أو: أن يرتقي إلىٰ مقام من مقامات الإنسانية رفيع. أو الآخرة. . لا بدّ أن يجعلها في حسابه.

وهكذا سَدَرْتُ منذ سنّ الثامنة عشرة في نوم عميق لم يُخرجني منه

شيء. ولربما لم تكن فيما حولي ضجّة ولا ضوضاء لتوقظني. بل إنّ هدهدة النوم التي كان يناغيني بها أبي وكذا أمّي كانت تُسلمني إلىٰ خدر غفلة أعمق.. حتّىٰ أنّي كنت أتخيّل في نوم الغفلة هذا ما كان يقوله أبواي، فأرىٰ في النوم أنّي قد سلخت في عالم المعنىٰ سنتين كأنهما ليلة ظلماء.

وحَدَث في ساعة غير متوقّعة أن وقع في يدي كتاب يصوّر سيرة واحد من أولياء الله.. فرحت أقرأ فيه. وإذا بي أهبّ من رقدتي، وبدني يرتعش.

أترىٰ لهذا الكلام من حقيقة؟!

أهناك حقّاً سبيل ليكون الإنسان وليّاً لله، محبوباً عند الله، عزيزاً لدىٰ الله.. ويتحدّث مع الله؟!

أيكون أولياء الله الذين مُدِحوا في القرآن بأنْ:

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١)،

وأنّهم لا حساب عليهم ولا يخافون الموت ويموجون شوقاً إلىٰ لقاء الله.. أيكون هؤلاء قد خُلِقوا غير خِلْقتنا؟!

أيمكنني أنا أن أصل إلىٰ وصال المحبوب الحقيقيّ ـ أي الحقّ (جلّ وعلا) ـ وأن يغدو اسمه رفيقي؟!

أتراه يمكنني أن أتكلّم مع الله وأحبّه؟!

إنّ شيئاً كالعاصفة كان يعتمل في داخلي. لم أكن أعرف ما الذي عليّ أن أفعله.. ولا من أين أبدأ. وعلىٰ حين غَرَّة وجدت هذه الآية القرآنية تجري علىٰ لساني، ولعلّ ربي ومحبوبي وعزيز فؤادي هو الذي ألقىٰ هذه الآية في روعي:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

ورحت أتلو هذه الآية الكريمة متدبّراً في معناها. . فعلمت أنّ الله (تعالىٰ) لم يكن قد طردني عن بابه، بل إنّ كرمه يدعوني إليه. فامتلأت كَيْنونتي كلّها بالأمل والرجاء. وقفت بين يَدَي الله أبكي ليلاً ونهاراً. . اتضرّع إلىٰ الله الرؤوف الرحيم هادي التائهين أن يهديني إلىٰ مقام الإنسانيّة الرفيع. وبعد مدة من التضرّع والتذلّل والبكاء قيّض لي ـ وله الحمد ـ أستاذاً شفيقاً، فحلّقت بمعونته تلقاء الكمالات الروحيّة. وانّي لأوصي ـ بعد تجربتي هذه ـ كلّ البشر الطيّبين إذا كان يهمّهم أمر اليقظة من سُبات الغفلة أن يُكثروا من قراءة سِيَر أولياء الله، وأن يتخذوا منها المواعظ والعِبَر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

جو الأسرة

أنا وصديقي محمّد كنّا زميلَيْن في المدرسة الابتدائيّة . . وقد غدا كُلّ منا اليوم مهندساً ذا شأن. بيدَ أني وإيّاه كُنّا مختلِفَيْن في مسألة مهمّة، ربّما لا تبدو لها في نظركم مثل هذه الأهميّة. وهذه المسألة هي أني ـ خاصّة إذا كنت في خلوة وحدي ـ أشعر كمن يهبّ فَزِعاً من نومه، ويجد نفسه في صحراء موحشة تحيط به الأخطار، ويريد بأيّ وسيلة أن يلجأ إلىٰ مأمن ينجيه. . فكنت أسعىٰ حثيثاً صوب الكمالات الروحيّة أعرج إليها وأحلّق في آفاقها. لكنّ صديقي محمّداً لم يكن علىٰ هذه الشاكلة، ولا تعْنيه هذه المسألة بحال. وحتىٰ حينما كنّا نجلس معاً وأحكي له ما أعانيه في هذه الناحية. . كان يقول لي: أمجنون أنت؟! كلّها يومان نقضيهما في هذه الدنيا. . فَلْيكونا يومَي مُتعة وسرور. ومَنْ يدري. . فلعلّ ما يُقال عن الروح والقيامة والحياة بعد هذا العالم ممّا لا حقيقة له! وإذا كان حقّاً ما يُقال. . فلا بدّ أن نجد لنا مَخْلَصاً لنا هناك!

ألا ليت صديقي محمّداً لم يكن يفكّر هذا النحو من التفكير. . فلا يَدَعُني عندئذ وحدي في معاناتي. ليته يصحو من رقدته. وإذا أصبح كذلك فإنه يغدو لي خير رفيق، ويكون عوناً لي في بلوغ الكمالات الروحيّة.

وفكّرت في أحد الأيام. . أنّ محمّداً هذا كان قد حضر معي، فيما

مضىٰ، درساً نتعلّم فيه اللغة العربيّة، فلا بأس إذَن أن أستعين بأحد العلماء لاختيار بعض آيات القرآن، وأتلوها علىٰ صاحبي، فلربّما يوقظه هذا الصوت القرآنيّ.. فيغدو رفيقاً لي بعد يقظته، في سير السَّفَر إلىٰ الله. وصنعت ما فكّرت فيه حقّاً، إذ اصطحبته في أحد أيام الصيف الحارّة إلىٰ خارج البلدة، وجلسنا هناك في ظل شجرة فَرْعاء، علىٰ حافة نهر جارٍ. فأخرجتُ دفتر الملاحظات من جيبي، وقلت له: أترغب في أن أقرأ لك بعضاً من آيات القرآن؟ عارض في أوّل الأمر ما اقترحت عليه، بيد أني لم أعبأ بمعارضته.. وشرعت بتلاوة آيات القرآن.

يقول الله (جلّ جلاله):

﴿... أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

﴿... وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾(٢).

﴿... وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

﴿... وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾(٤).

ولمّا أتممت تلاوة هذه الآيات.. قال لي بسخرية: أرجعتَ إلىٰ سيرتك؟! دَعْني من هذا، لا رغبة لي في سماعه! قلت: الحقّ معك.. لو كنتَ تُعْنىٰ في حياتك حتىٰ بالقليل من التقوىٰ لخرجتَ في هذه الآيات من رقاد غفلتك.

---

(١) سورة نوح، الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٩.

(٤) سورة غافر، الآية: ١٨.

أجَل أيّها الأصدقاء. . كنت ومحمّداً هذا منذ الصغر في بيئة دراسية واحدة، وقد عايشت الأساتذة الذين عايشهم، ولكنّ البيئة الدراسية ليست وحدها المؤثرة في تكوين شخصيّة الإنسان، ذلك أنّ لجوّ المنزل ـ وخاصة وضع الأب والأمّ ـ أثره الكبير في هذا السياق. وأعترف هنا أني ـ منذ الرابعة من عمري وطيلة حياة والدي. . أي حين بلغت العشرين ـ كنت إذا أفقت في جوف الليل كنت أشاهد أبي (رحمة الله عليه) جالساً، مستقبلاً القبلة. . وهو يناجي الله (تعالىٰ) بضراعة وابتهال. وكانت أمّي لا تفتأ تذكّرنا بالله ولا تدعنا ننسىٰ الحقائق والمعنويات أو نسهو عنها.

لكن والِدَي محمّد لم يكونا كذلك. فإذا لم أقل إنهما لم يكونا يذكران الله والدّين والمعنويات، فإني أستطيع القول إنّهما ـ في أقلّ تقدير ـ لم يفعلا ما يؤدّي إلىٰ تذكير أبنائهما بما يبعث فيهم روح الإيمان، ممّا يجعل نوم غفلتهم ـ والحالة هذه ـ يستمرّ ليتصل بالموت. . ذلك أنّ كلّ ما كان في جوّ الأسرة كفيلاً بتخديرهم وإشغالهم عن الله. وحتىٰ لو كان محمّد قد أراد أن يصحو علىٰ ذكر الله لما سمح له هذا الجو المخدّر أن يصحو وأن يفيق. وهكذا كان يفقد حياته الفطرية والمعنوية يوماً بعد يوم، وصار من الذين عناهم الله (تعالىٰ) بقوله:

﴿. . . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(١).

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۞

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢١ ـ ٢٣.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[1].

أجَل.. إنّ لسلوك الأبوين أثره القويّ في نفسيّة الأبناء. وإذا لم يُرِد الوالدان لأبنائهما أن تصاب روحيّاتهم بالموت المبكّر، فلا يَحْيَون عندئذ إلاّ بالجنبة الحيوانيّة في الإنسان.. فعليهم أنْ يأتيا أمام أعين أبنائهما ـ وخاصّة في الصِّغَر ـ من الأعمال والأفعال ما يجعلهم في ذكر الله وفي قرب من المعنويات. أو أن يَسْعَيا في الأقلّ لأنْ يَقُصّا علىٰ أطفالهما قصص القرآن والحكايات التي تعرّفهم بكرامات الصالحين.. بَدَل ما يحكيان لهم من الأقاصيص المصطنعة وأساطير الملوك والأبطال الوهميّين؛ فإنّ في رواية هذه القصص الحقّ للأبناء ما ينجيهم من الاخلاد تماماً إلىٰ نوم الغفلة، أو ما لا يجعل غفلتهم تتصل بموتهم في الأقلّ.

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٨٠ ـ ٨١.

شمس جماله.. بعثتني مِن مرقدي

نشأت في أسرة موسرة إلىٰ أن بلغتُ الآن سنّ الشباب. . مستمتعاً بكلّ وسائل الراحة والتسلية.

في أحد الأيام كنت في (ڤيلاّ) رائعة الجمال قائمة علىٰ شاطىء البحر، كان أبي قد هيّأ فيها أنواع أزهار الفصول الأربعة، ممّا أضفىٰ علىٰ المكان نضارة وبهجة خاصّة. كنت أتأمّل في نبتة متسلّقة، كانت قد تسلّقت ملتوية في صعودها علىٰ ساق شجرة حتىٰ بلغت ذروة الشجرة، ثمّ تدلّت هابطة إلىٰ الأسفل. وكانت النُّضرة في طرف النبتة النامي في غاية الروعة والجاذبيّة طراوةً ورِيّاً وخضرة. وإذ أنا اتطلّع إلىٰ تكوين النبتة في دقتها وبراعة خلقتها. . شعرت كأنّ شيئاً في داخلي قد انجذب إلىٰ هذا المشهد الطبيعيّ الأخّاذ، كمن ينبعث هاباً من نومته فتقع عينه علىٰ مشهد يراه لأوّل مرّة. وجدتني أتحدّث بيني وبين نفسي عن هذه الخلقة الأُعجوبة: ما أروع هذه المعجزة التي ولدت في أحضان الطبيعة! إنّ طول النبتة المتسلقة الخضراء هذه ـ من جذورها إلىٰ طرفها النامي ـ ليزيد علىٰ خمسين متراً. . وساقها الدقيق لا يتعدّىٰ قطره اثنين من الملّيمترات. ترىٰ. . كيف يمرّ الماء الذي يغذي النبتة من جذرها إلىٰ نهايتها خلال هذا الساق الدقيق الممتلىء. . في

هذا الهواء الحارّ الذي تتبخّر فيه من كلّ سنتيمتر مكعب من الماء قطرتان؟! أيُّ مضخّة هذه التي تضخ الماء من أسفل الجذر وتمضي به صُعُداً عابرةً الساق الملتفّ الطويل حتىٰ تبلغ أقصاه، وهي توزّعه في الطريق كلّه ـ وبانتظام ـ علىٰ كلّ الفروع والأوراق؟!

كانت هذه الخواطر التأملية بالنسبة إليّ ـ في يومي ذاك ـ مثل صرخة عند امرىء غارق في النوم، فبعثته فجأة من مرقده. لقد صحوت من نومة الغافلين.. وأخذت أدير طرفي بين الشجر والنبات والعشب النابت في الحديقة وفي الغابة القريبة منادياً: من تكون هذه القدرة الحكيمة التي تدبّر هذه الكائنات وتمدّها بالحياة والجمال؟! مَنْ تراه القادر القويّ الجميل الذي يهيمن علىٰ هذه الخلائق ويقودها علىٰ هذا النحو الرائع الخلّاب؟! وبدأتُ أشاهد قوة حكيمة قادرة تسري في كلّ مكان وكلّ شيء في نبات (الڤيلاّ) وشجرها.. وفي أدغال الغابة وأعشاب الجبل، كما يشاهد أحدكم بعين عقله الطاقة الكهربائية وهي تسري في الأسلاك لتحرّك المروحة. وكانت تلك لحظة مدهشة عظيمة شعرت معها بوعي ساطع يدخل في كينونتي.

يا لَها من لذّة لا توصف! ألا ترىٰ إلىٰ ربّي الحبيب كيف أيقظني من غفلتي، في هذا الصباح السعيد، بشمس جماله.. وابتسم لي وحيّاني بلغة الجمال؟! ألا ترىٰ.. كيف ألقيت نفسي في أحضان حبّه ومودّته؟!

كم يسعدني لو رأيتم أنتم أيضاً مثل هذا الحسن الآسر وهذا الجمال، أو لو كنتم ـ في الأقل ـ إلىٰ جواري تعاينون ما هيمن عليّ من وَجْد ونشاط! إنّ المرء ليسرّه أن يشاركه أصدقاؤه فيما يظفر به من خير، أو أن يرىٰ الناس قيمة ما يتمتع به من الألطاف الإلهيّة والنِّعَم.

واحسرةً علىٰ الإنسان يغفل عن الله، وما هو إلاّ ذرّة تسبح في ضوء الشمس محكومة بهيمنة الله (تعالىٰ) وقيّوميّته!

إنّ البيان لا يسعفني أن أصوّر لكم هذا الوجد الذي كان يستخفني وهذا النشاط. . شيء رائع عجيب! لا أقدر إلاّ أن أقول لكم: من لم يجرّب لا يعرف.

بكيت ساعات. . بكاء شوق وحنين. لم أكن أريد من ربّي ومعبودي وإلهي الرحيم الودود إلا أن يجعلني دائماً قريباً منه، آنساً به، مشتاقاً إليه، وألاّ يجعلني أغطس ثانية في نوم الغفلة عنه. واستجاب لي ربّي (تبارك وتعالىٰ) وأخذ بيدي، فربّاني ـ بواسطة أحد عبادِ الله الصالحين ـ ومَنَّ عليّ أن أفوز بمقام القرب. . فله الحمد والثناء.

الخوف من الأفعىٰ

سلختُ من العمر ما يربو علىٰ الأربعين، وأنا لا أعرف الخوف؛ فقلّما خفت من لصّ أو عدوّ. وقد شاء الله (سبحانه وتعالىٰ) أن ينقذني من نوم السّهو والغفلة بأنْ عرّضني لحادثة أرويها الآن لكم، كانت هي السبب المباشر ليقظتي وإفاقتي. وهذه هي الحادثة:

قبل بضع سنين.. كنت قد قصدت، في يوم صيف حار، بستاناً يقع في خارج البلدة.. طلباً للراحة والاستجمام. كان ولدي قد سبقني إلىٰ ذلكم البستان. وما أن وصلت من بعده.. حتىٰ رأيته يُقبل نحوي مسرعاً وقد تملّكه الخوف. قال لي: رأيت أفعىٰ كبيرة تتسرّب إلىٰ هذا الثقب من الأرض!

عندها عمدت إلىٰ أحجار وقطع من المَدَر فألقيتها علىٰ فوهة الثقب، وسددته. ولمّا حلّ الليل وأردت النوم.. انتابني قلق. فمن جهة كنت أحاذر أن أدَع باب الغرفة مفتوحاً. ومن جهة أخرىٰ.. كان الهواء حارّاً بحيث لا يمكن المبيت في غرفة موصدة الباب.

وعلىٰ أيّ حال.. فقد قضيت تلك الليلة بعناء بالغ، فما كانت عيني تغمض حتىٰ أهبّ من النوم مذعوراً، وفي حسباني أنّ الأفعىٰ ستأتي في أيّ لحظة وتنسلّ إلىٰ فراشي لتلدغني.

وإذ طلع الصبح . . كنت ما أزال في الفراش من أرق البارحة، لمّا تساءلت بيني وبين نفسي: أكان حقّاً ما قاله ولدي عن وجود أفعىٰ؟! ثمّ اترىٰ أن الأفعىٰ قادرة علىٰ الخروج من الثقب بعد أن ملأته بالأحجار وبالمَدَر؟! وإذا حدث أن خرجت الأفعىٰ من ثقبها . . أتراها ستقصدني في الغرفة مباشرة؟! لقد كانت هذه كلها احتمالات. ولكنّ هذه الاحتمالات سَلَبتني النوم حتىٰ الصباح. وعندها سطع في داخلي تساؤل كبير: لماذا إذَن أنا لا أخشىٰ ممّا أجمع عليه أهل الحقّ في العالم والصادقون، من وجود إلٰه خالق علينا أن نتعرّف عليه، وأنّه قد أنزل إلينا تعليمات تنظم الحياة البشريّة، يهوِي من يعاكسها في أشدّ العذاب؟! لماذا لا أخاف إذَن علىٰ مصيري من هذه المعاكسة لإرادة الله الحيّ القيّوم؟! إنّها لَغفلة. . والله! حتّىٰ مَ أظلّ قابعاً فيها؟! متى تراني إذَن أنتفض من هذا العمىٰ الذي قد غلّف مني القلب؟! عندها رأيتني أهتزّ من الداخل، وأجهش بالبكاء. وهكذا سلخت ذلكم اليوم أمشي في البستان جيئةً وذهاباً أستغفر وأبكي، وأنا في حيرة من أمري. كيف يمكنني أن أتدارك ما فرّطت فيه من عمري؟ إنّ كل ما أدريه أني قد انتفضت من سكر غفلتي، ولا أدري متىٰ يخترمني الموت ويقطعني عن هذه الدنيا وأنا علىٰ حالتي البائسة هذه.

عندئذ. . لجأت إلىٰ التوسّل بالإمام صاحب العصر والزمان (روحي فداه وعجّل الله تعالىٰ له الفَرَج). وكان لساني طيلة النهار يلهج بالضراعة والدعاء. . طالباً من الله (عزّ وجلّ) العون والتوفيق. وفي خلال دعواتي وتوسّلاتي عَنَّ لِي أن أمضي إلىٰ أُستاذ بصير أحكي له معاناتي من أوّلها إلىٰ الأخير. . علىٰ أمل أن يمدّني بسبيل الخلاص. وكان صحيحاً ما عَنّ لِي؛ إذ اخترت أستاذاً صالحاً. . دفعني إلىٰ السلوك، قاطعاً مراحل الكمالات وتزكية النفس. . حتىٰ اطمأنّت نفسي ونجوت من عذاب المعاناة، وقد تداركتُ من أمري ما فات. عسىٰ أن يتفطّن الآخرون أيضاً، فيخرجوا من نوم الغفلة إلىٰ

ساحة الكمالات الروحيّة وآفاق الحياة المعنوية الرحيبة الشائقة.

واعلموا أيّها الأعزّاء أنّ الله (تبارك وتعالىٰ) لا يرضىٰ لنا أن نظل قابعين في نومة الغفلة علىٰ الدوام، فلا نعرف شيئاً عن الحقائق العليا وعن المعنويات. بل إنّه ليوقظنا كلّ يوم بمختلف الوسائل والهتافات لنصحو بآياته ودلالاته من النوم، وقد وَصَف قرآنه الكريم ورسوله العظيم بـ«الذِّكر» و«التذكرة» و«المذكّر».. كما قال (جلّ جلاله):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2].

ومن لم تلفته كلّ هذه التحذيرات والإيقاظات.. فإنّه ظالم أبشع الظلم، بل هو أظلم أفراد الجنس البشريّ. ذلك أنّه قد ظلم نفسه وأعرض عن نداء الله (عزّ وجلّ)، يقول (تعالىٰ):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[3].

(١) سورة المزّمل، الآية: ١٩.
(٢) سورة الغاشية، الآية: ٢١.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

النحلة تتكلم

أحببت منذ طفولتي التعرّف علىٰ «علم الأحياء»، وكنت أجد فيّ ميلاً كبيراً إلىٰ الاطّلاع علىٰ حياة الكائنات الحيّة وسبر أسرار معيشة الحشرات والحيوان عامّة. وكنت أقرأ كثيراً عمّا أُلّف في الموضوع وكُتِب.. عاكفاً علىٰ تتبّع عجائبها، بدون أن أربط هذه المعرفة بالمصدر القدسي الذي صدرت منه هذه الأحياء، ووهبها كلّ هذه الأسرار العجائبيّة المدهشة. حتىٰ كان يوم قرأت فيه كتاب (النّحْل) من تأليف موريس مترلينغ.. فأخذتني الحيرة لما في حياة النحل من خفايا زادتني عَجَباً إلىٰ عجب. وإذ قرأت في هذا الكتاب فصولاً عديدة، وأنا في جلستي تلك.. شعرت بالتعب، وبدأت عيني تهوّم تهويمة كأنما أريد أن أغفو. ولكني ما أن أطبقت جفنيّ حتىٰ شاهدت نحلة، أخذت تكبر وتكبر.. حتىٰ صارت بحجم إنسان. عندها نطقتْ، وقالت تخاطبني: جعل الله لي هذا الاحساس الذي أدهشك؛ لأكون قادرة علىٰ العيش، ولأكون آية للناس.. لعلّهم ـ إذا شاهدوها ـ من نوم غفلتهم يفيقون، ويَرَون عظمة هذا الإلهام الذي ألهمنيه الله (تعالى) في أصل الخلقة والتكوين.. بدون أن أتعلّمه تعلّماً من أحد.

ما أن نطقت النحلة بهذا.. حتىٰ وجدتني قد أفقت خائفاً ترتجف أعضاء

بدني. وعندها تجلّىٰ الله (جلّ جلاله) لعين قلبي بصفة «الرحمانيّة»، وملأني إحساس عذب كالذي يملأ الطفل إذا احتضنه أبوه الحاني الرؤوف، فيشعر بدفء المحبّة في أعماق روحه. لقد رأيت الله (سبحانه وتعالىٰ) فيما حولي، بل في داخلي وفي كلّ مكان. ومنذ تلك اللحظة، وإلىٰ ساعات. . كنت أتكلّم معه، وكنت أجد الإلهام ـ وما كان أعذبه وأحلاه! ـ في قلبي يدلّني به ويكشف لي عن الطريق. . ويدعوني إليه. وتبيّن لي في وقتها أنّي ـ وإنْ كنت في أحضان رحمة الله ومحبته ولطفه ـ بعيد عنه بُعْداً روحياً كبيراً، ذلك أنّي غير متخلّق بالخُلُق الإلٰهيّ، فظاهري صورة إنسان، ولكنّ باطني له سيرة حيوان. حبّي متوجّه إلىٰ الدنيا بدل أن أجعله خالصاً لله. في داخلي صفات حرص وطمع وبخل عِوَض ما ينبغي من تسامح وسخاء. وبعبارة أخرىٰ: فإن أكثر ما يتبدّىٰ فيّ هو الصفات الحيوانية، في حين كان ينبغي أن تكون صفات إنسانيّة. وأنّ هذا ليحتّم عليّ ـ إذا أردت استمرار هذا اللطف الإلهيّ، بل زيادة نوره يوماً بعد يوم وأن أصل إلىٰ مقام القرب ـ أن أنفض عنّي الصفات البهيميّة والشيطانيّة، وأن أتّجه إلى تزكية النفس. ولقد نفعني الله (تعالىٰ) بهذه الصحوة التي حدثت لي، وسعيت باسترشاد أستاذ للتحرّر والخلاص.

فرخا العصفورة.. التي ماتت

في ذلكم اليوم كنت في حافلة نقل الركّاب، في طريق قم ـ طهران. . الذي كان في وقتها ترابيّاً لم يُعَبّد. ولمّا وصلت بنا الحافلة إلىٰ مشارف مرتفعات منطقة «حَسَن آباد» أوقف السائق السيّارة، والتفت إلىٰ الركّاب يستأذن منهم أن ينزل من السيارة ويصلّي في ذلك الموضع ركعتين مخفّفتين. مثل هذا الطلب من السائق ـ ونحن في وسط بريّة الطريق ـ لا بدّ أن يواجه من قبل الركاب بالاستفسار والاستفهام، فما الوقت بوقت صلاة الفريضة. لكنهم أذعنوا إزاء إصراره علىٰ الصلاة.

نزل السائق، وصلّىٰ ركعتين خفيفتين، ثم عاد وجلس وراء المِقْوَد، وواصل المسير. . وقد ازداد بنا ـ نحن المسافرين ـ حبّ التعرّف والاستطلاع: تُرىٰ. . ما الذي دعاه إلىٰ الصلاة في هذا المكان؟! وأيّ صلاة هذه التي صلاّها قبل الظهر، مُصرّاً علىٰ أدائها كلّ هذا الإصرار؟! عندها ابتدرته بالسؤال: ما هذه الصلاة التي صلّيتَها هنا؟ ولِمَ تخيّرتَ هذا الموضع من الطريق دون سواه؟ فقال: في هذا

المكان أيقظني الله (تعالىٰ) من نوم الغفلة. . وقد التزمت أن أصلّي ركعتي شكر لله كلّما مررت به.

وسألته: كيف أيقظك الله (تعالىٰ) من نوم الغفلة في هذا المكان؟ لكنّه لم يشأ في البداية أن يحكي ما وقع له. ثم أنه ـ إزاء إلحاحي والحاح سائر الركاب ـ وافق علىٰ أن يحكي. . خاصّة بعد أن قلت له: ربما يكون ما ستقوله نافعاً في إيقاظ الآخرين من غفلاتهم. قال:

قبل بضع سنين. . كنت غير ملتزم، أعيش حياتي علىٰ هواي، ولا أتوانىٰ عن إيقاع الأذىٰ بالآخرين، ولا يؤذّيني شيء إلىٰ ذكر الله. حتىٰ كان يوم كنت مارّاً فيه ـ وحدي بسيارتي الشخصيّة ـ في ذلك الموضع الذي نزلت فيه وصلّيت. في تلك اللحظة شعرت بحصر الإدرار، فكان عليّ أن أترجّل من السيارة لقضاء الحاجة. ركنتُ السيّارة في جانب الطريق، واتّخذت لي موضعاً مجاوراً لمزرعة قمح قد حُصِد آنفاً. . وجلست. في تلك اللحظة لفت نظري زنبور كبير الحجم قد حطّ علىٰ الأرض المحصودة الزرع، ثم حمل حبّة قمح كانت هناك، فحملها وعاود الطيران باتجاه بقعة مليئة بالأحجار والحَصْباء، قريبة من سفح الجبل. عندها وجدتني أتساءل عن شأن الزنبور بالقمح؛ فالزنابير لا تأكل القمح، فلا بدّ أنّه قد حمل الحبّة لأمرٍ ما. وقد حدا بي هذا إلىٰ تتبّع الزنبور، فتعقّبته علىٰ عجل. . حتىٰ رأيته يهبط بين الصخور. وهناك رأيت عصفورة علىٰ الأرض ميّتة، وإلى جنبها فرخان كان كلّ منهما قد نقف البيضة حديثاً وخرج منها. وما إن وصل إليهما طنين أجنحة حتىٰ فَتَحا منقاريهما، وعندها دنا منهما الزنبور، ووضع حبّة القمح في فم أحدهما. . ومضىٰ. ثم لم يلبث إلاّ قليلاً حتّىٰ عاد حاملاً حبة أخرىٰ، وضعها في فم العصفور الآخر. وما زال يكرّر عمله هذا مرّات حتىٰ شبع العصفوران اللذان ماتت أمّهما.

كان هذا العمل، بالنسبة إليّ، هتافاً عالياً دوّىٰ في أعماق وجودي وأيقظني علىٰ ذكر الحقّ (تبارك وتعالىٰ): ترىٰ. . لماذا كنت غافلاً، حتىٰ الساعة، عن ربي الرحيم الذي سخّر الزنبور لخدمة العصفورين الصغيرين وحفظ حياتهما؟! بكيت في وقتها من قلبي، وأنا أُقبل علىٰ الحقّ (جلّ وعلا) بعد كل هذه السنين الطويلة من الغفلة والإعراض. عَمِيَتْ ـ يا إلهي ـ عين لا تراك، وخسرتْ صفقةُ عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً. ثمّ رحت أخاطب نفسي، وأنا أُردّد بهمس، ودموعي تجري:

* يا مركزَ دائرةِ الإمكان ... يا زُبدة عالم الكون والمكان
* أنتَ مَلِكُ الجواهر النّاسُوتيّة ... وشمسُ المظاهر اللاهُوتيّة
* إلىٰ متىٰ تظلّ ـ بالعلائق الماديّة ـ ... قابعاً في بئر الطبيعة؟!
* حتّىٰ مَ. . وأنت تُعْنىٰ بالجَسَد ... وتَرْضىٰ من الدرّ العَدَنيّ بالخَزَف؟!
* مئة مُلْك عَيْنُها علىٰ الطريق، من أجْلِك ... فاخْرُج من البئر، يا يوسف المصريّ!
* لتكون والِيَ مِصْرِ الوجود ... وتغدو سلطانَ عرش الشُّهود
* لقد قلتَ ـ في يوم «أَلَسْتُ»: «بَلىٰ» ... فما بالُك راقد الآن علىٰ فراش «لا»؟!
* إلىٰ متىٰ وأنت ناءٍ عن المعارف الحقّ ... مغروراً بزخارف عالَم الحِسّ؟!
* لم تَعُدْ تتذكر موطنك الأصليّ ... عاكفاً بمَرَح علىٰ اللّهو واللّعب
* لا دمعك يذرف، ولا وجهك مُصْفَرّ. . ... فوا عجباً. . كأنّك امرؤ خالٍ من الهمّ!
* انهضْ من نومتك اللذيذة هذه ... وتَعَرَّفْ علىٰ حقائق عالم الأوّلين

ثمّ بسطتُ يدي نحو السّماء، قائلاً: إلٰهي. . حبيبي. . ربّي الرحيم. . ارحمني واعْفُ عنّي، كنتَ قد مننتَ عليّ، ووهبتَني كلّ ما لديّ. أنت الذي أحسنتَ إليّ ونجّيتني من كلّ سوء. . فلا تُبعدني منذ الآن عنك، يا نعيمي ويا جنّتي ويا دُنياي وآخرتي. . يا ربّي الرحيم، يا الله.

ومهما يكن. . فانّي قد بكيت في ذلك اليوم كثيراً، وأنا أرىٰ قدرة الله ورحمته في مشهد العصفورين الصغيرين الضعيفين وفيما كان يصنعه الزنبور.

ثمّ إني هويت إلىٰ الأرض ساجداً لله، باكياً بين يديه. . اعتذر عمّا فرّطت فيه من أمري، حتىٰ شعرت بضياء في قلبي، وأيقنت أني قد صحوت من نوم الغفلة حقّاً، وعليّ أن أجدّ للتقرّب من ربّي، لتزول عن قلبي الحجب التي كانت تمنعني من قربه والانس بلذيذ مناجاته. . فأمضي صُعُداً تلقاء الكمالات الروحيّة. واعترافاً منّي بفضل الله عليّ، وشكراً لأياديه الكريمة. . صلّيت في ذلكم اليوم ركعتي صلاة. وألزمت نفسي بأداء ركعتي شكر كلما كان طريقي علىٰ هذا المكان.

أنت لا تصلح أن تكون زوجاً لي

حكايتي حكاية من يريد أن يحيىٰ بالماديّات وللماديّات، ولا يشغله لحظة أمر الحقائق العظيمة في الوجود ولا أمر المعنويّات. في غفلةٍ مُعْرِضٌ عن الله والدين والقيم الإنسانيّة. إنّه نوم يصيب الوعي ويغشّى في المرء البصيرة. كنت أعرف أنّ ما ينبغي أن أصرف له همّتي ووقتي هو اقتناص الفرص للفوز بالمزيد من الثروة والمال. أمّا المنزلة الاجتماعية والمقام المرموق. . فما كنت أرىٰ هدفاً خيراً منه ولا أجدر بالسعي له والاجتهاد.

حتّىٰ إذا بلغت الثلاثين من العمر أُوتيتُ ما كنت أجهد له وأحرص عليه من الثروة والمقام. . ولم يبق لي إلاّ أن أتوّج ظفري بالزواج، فتقدّمت فعلاً لخطبة فتاة من إحدىٰ الأُسَر الثريّة. وهناك أخذت أعرّف بنفسي وبما أتمتّع به من وجاهة وثراء، وذكرت أشياء أخرىٰ من هذا القبيل بمحضر من الفتاة وأهلها. ولم تكن مسألة السنّ ـ وقد بلغت الثلاثين ـ عائقاً في الموضوع؛ إذ كانت الفتاة في الخامسة والعشرين من العمر، وما ثمّ فارق في السنّ يُعتدّ به. بيد أنّ الجواب الذي تلقيته منها علىٰ طلب الزواج. . كان بالسّلب! ولمّا سألتها أستوضح سبب تمنّعها ورفضها الاقتران بي. . لاذت بالصّمت. لكنّ تمنّعها هذا جعل في قلبي مزيداً من الرغبة والإقبال. ووجدت أنّ محبتها

كانت تزداد في داخلي ضراماً والتهاباً. . ولم يُجْدني شيئاً إصراري على هذا الزواج وإرسالي الوسطاء. كان هذا يقلقني ويعذّبني، ولا مناص من البحث عن أسلوب آخر أتحدّث معها من خلاله. وهكذا خطر لي أن أكتب لها رسالة، سألتها فيها أن تخبرني ـ في الأقلّ ـ عن النقص الذي وجدته فيّ حتىٰ حال دون الزواج. وجاءني جوابها صريحاً قاطعاً. . كتبت في أسفل رسالتي التي أعادتها إليّ: لأنك لست من أهل المعنوية الباحثين عن الحقائق ولا من المقبلين علىٰ الله، وفي شغل عن المقامات الإنسانية الرفيعة. . فإني لا أراك لائقاً أن تكون زوجاً لي.

وكان جوابها صدمة لي. . حتىٰ أنّي هَمَمْتُ أن ألجأ إلىٰ أسلوب أهوج للانتقام ولمّا مضيت ليلاً إلىٰ البيت. . استلقيت علىٰ سريري في غرفة النوم أفكّر. هاأنذا قد خرجت من حبّها خائباً كالبائسين. وهاهي ذي عبارتها اللاّذعة قد جرحت كبريائي. . ووجدت نفسي بين هذا وذاك في عاصفة من المشاعر لا يقرّ لها قرار. بَيْد أني أحسست بشيء يتململ في داخلي. . صوت يريد أن ينطلق. وارتفع الصوت يتحدّث: أتراها قد قالت كذباً؟! ماذا تعلم أنت من المعنويّة والحقائق والإنسانية؟! لا تغالط ولا تكابر! أترىٰ أنّ الله قد أوجد البشريّة في هذا العالم لمحض الطعام والشراب والنوم والتوالد؟! إنّ كلّ ما سعيت لنيله حتىٰ سنّ الثلاثين هذه إنّما تشترك فيه مع اهتمام الدوابّ والأنعام، بل إنّ من الأنعام من هو خير منك. لو نزل بك الموت الآن. . فأيّ مفاخرك يبقىٰ لك: الثروة، المنزلة، الدار، الأثاث. . ؟! حتىٰ جمالك وشخصيّتك. . فإنما هما معك إلىٰ أمد محدود، وربما إلىٰ أمد جدّ قريب. إنّ كثيرين كانوا في هذه الدنيا ذوي ثروة ومنزلة وجمال وشخصيّة. . ثمّ ما أسرع ما تركوها وراءهم نادمين! أجل. . لقد كان صوتاً بليغاً جهيراً، صوت الضمير.

تلك الليلة لم أنم، قطّعتها باكياً مستيقظاً. . استمعت خلالها مراراً إلىٰ

الصوت الباطنيّ. ما كان أصدقه وما كان أبلغه. . وهو يكشف أمامي الحقائق وجهاً لوجه!

أمّا حبّي لتلك الفتاة. . فقد ازداد وتضاعف، لكنّه اتخذ صبغة أخرىٰ بعيدة عن الدافع البهيميّ والجنسيّ. وتذوّقت لأوّل مرّة كيف يكون الحبّ من أجل الروح الطليقة المتيقظة. . ومن أجل ما عليه هذه الفتاة من كمالات انسانيّة معنويّة.

وعمدت إلىٰ رسالتي المذيّلة بعبارتها تلك، فكتبت أسفل منها تجربتي الروحيّة التي عشتها في تلكم الليلة، واعترفت لها أن تعبيرها قد أحدث فيّ انقلاباً جعلني أهبّ منتفضاً من خَدَري القديم. وقلت لها: لقد قلّدتِني منّة منك لا أنساها. . لا لهذه الراحة التي فزت بها، بل لِما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ علّمني حرفاً صَيّرني عبداً». ومنذ الآن اعتبريني بمنزلة تلميذ لديك، وسأصل إنْ شاء الله إلىٰ الكمالات الروحيّة بمعونتك. وإذا لم يكن ثمّة عائق آخر في زواجنا. . فإنّي أعاهدك علىٰ تلافي ما سبق، وأن أعكف علىٰ سلوك طريق الكمال.

وبعدئذ. . تمّ الزواج. ونحن نحيى الآن حياة طيبة مؤسسة علىٰ القيم المعنويّة، ونسأل الله (تعالىٰ) أن يكتب لنا كذلك حياة أخرويّة سعيدة.

هزتني معجزات الإمام الرضا عليه السلام

وافق وجودي في مشهد اللّيلة الحادية عشرة من شهر ذي القعدة عام (١٤٠٥هـ) ذكرىٰ مولد الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا عليه السلام. في تلكم الأيّام ما كنت منفتحاً علىٰ القيم المعنوية.. وفي غفلة عن الله والدين والمعاني الروحيّة. ولم تُجْدِ معي محاولة بعض الأصدقاء في تذكيري بالله، والقيامة، والكمالات المعنويّة للإنسان، والإنسانية التي علىٰ المرء أن يتحقق بها. وظللت ـ مثل أغلب الناس ـ قابعاً في أفق متدنٍّ هابط ما فيه إلاّ ظاهر من الحياة الدنيا.

في تلكم الليلة ـ وقد أمست بالقياس إلىٰ ليلة انعطاف مشهودة ـ كنت مارّاً داخل الصحن المقدّس للإمام الرّضا عليه السلام. كان الصحن يتلألأ بمصابيح الزينة وبالأنوار.. فثمّة مهرجان كبير وبهجة في ذلك المولد السعيد. الساعة العاشرة ليلاً وفي الصحن الطاهر جمّ غفير من الناس. ولفت انتباهي أنّ الناس كانوا يتناقلون بينهم ـ وبهياج عجيب ـ نبأً ما. وعلمت لمّا تحقّقت أنّهم يتبادلون الأحاديث بهذا الهياج عن فوز (٢١) شخصاً من ذوي العاهات والأمراض المستعصية بالشفاء التام، بعد أن جاؤوا الإمام عليه السلام قاصدين، والتمسوا أن يبرأوا من تلكم الأمراض. كان كلّ من هؤلاء الحاضرين يقول إنه

شاهد عدداً من المرضىٰ وهم ينالون الشفاء. كنت واقفاً أصغي إلىٰ ما يقولون.. لمّا مرّ من أمامي رجل فأشار إليه بعض الحضور قائلاً: وهذا واحد منهم! فما كان منّي إلاّ أن تقدّمت إليه لأستطلع حقيقة الأمر. وإذ دنوت منه ونظرت إليه.. أحسست أن هذا الوجه غير غريب عليّ. بادرته بالسؤال: أين كنتُ قد رأيتك من قبل؟ فقال لي: البارحة في المطعم الفلاني.. تناولنا طعام العشاء علىٰ مائدتين متقابلتين. وقد رثيتَ في وقتها لحالي.. وكنت ترمقني بنظرة شفقة!

ولمّا سمعت هذا.. تذكّرت أنّي قد تناولت عشائي البارحة حقّاً في المطعم، وتذكرت الرجل المقعد الجالس في عربة محاذياً للمائدة المقابلة يتناول الطعام بعناء بيّن، فرقّ قلبي له.. حتىٰ أني أردت أن أدفع من جيبي ثمن عشائه فلم يقبل. وهذا هو الرجل المقعد المشلول الساقين يقف أمامي الآن معافى يدبّ علىٰ قدميه. قلت له ـ ولم أكن قد صدّقت ما قال: أيمكن أن تريني ساقيك لأرىٰ كيف برئتا.. في حين أني رأيت ساقيه ليلة أمس، وما كانتا غير عَظْمَتين نحيفتين ما عليهما لحم ولا عضلة! استجاب الرجل ورفع بنطاله قليلاً يريني ساقيه. وقد بهرني أن أراهما كأيّ ساقين ممتلئتين لحماً وعافية!

عندها لم أملك نفسي، ووجدتني أرفع صوتي صائحاً: إلٰهي.. عَمِيَت عينٌ لا تراك.. ما كان أغفلني عنك؟ أغفُ عني يا إلهي، وارحمني، فإنْ لم ترحمني فإلىٰ أين أولّي وجهي؟!

اجتمع الناس من حولي، وراحوا يسألونني عمّا جرىٰ لي. ولكنّي كنت منصرفاً عن إجابتهم، مشغولاً بنفسي. ومكثت في الصحن المبارك حتىٰ الصبح.. أبكي علىٰ ما فرّطت فيه من عمري وأتلفته في الغفلة والإعراض. ومن وقتها صمّمت علىٰ أن أبدأ ـ وبأسرع ما يمكن ـ رحلة الصعود تلقاء الكمالات.. ولن أدع زخارف الدنيا تُسْلمني كرّةً أخرىٰ إلىٰ سُبات الغافلين.

ليلة سطعت القبة بالنور

قال أحد العلماء: في ليلة من زمان إقامتي في مدينة النجف الأشرف لدراسة العلوم الدينيّة.. كنت في فِناء العَتَبة العَلَويّة المقدّسة. وكانت جموع من الزائرين هناك، بين داخل وجالس ومنصرف إلى زيارة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. كنت قاعداً هناك أنظر ـ مثل كثيرين ـ إلى القبّة الذهبيّة الطاهرة. وقد فاجأني آنذاك أن رأيت الناس قد أخذوا بالتصفيق، وانطلقت أصوات النساء بالزغاريد.. وكأنّ شيئاً عجائبيّاً قد حدث. ولاحظت الناس في لحظتها يشيرون إلىٰ القبّة قائلين: القبّة ترشّ نوراً! نور ينبعث من القبّة! ولا أخفي أنّ ما قاله هؤلاء قد أدهشني حقّاً. تُرىٰ: إذا كانت القبّة قد زخّت ما حولها بالنور.. فلماذا رآه هؤلاء وما رأيته أنا؟! في حالة الشك والتردّد هذه بدأ الشيطان يوسوس لي: ما يُدريك.. فلعلّ كل ما ينسب إلى الأنبياء والأولياء إنّما هو من هذا القبيل! واعجباً لهؤلاء الناس.. أين هو هذا النور الذي يزعمون؟! لا بدّ أن كافة الناس في النجف سيقولون غداً إنّ القبّة قد أضاءت البارحة وسطع منها نور!

تسلّطتْ عليّ هذه الأفكار ثلاثة أيّام، لازمني فيها الشيطان ولم يترك لي فرصة لمعاودة النظر في الأمر حتّىٰ إذا كانت الليلة الثالثة.. هَبَبْت من النوم

حوالى منتصف الليل، وأنا أحسّ بميل عارم إلىٰ تناول شيء حامض. . هو «الكبِيس» أو «الطُرْشيّ» علىٰ نحو الخصوص. ونهضت من الفراش أبحث في الدار، فلعلّي أصيب شيئاً منه. لكني لم أجد «كَبيساً». . ولا أيّ شيء حامض الطعم، في حين كانت رغبتي تتزايد مع اللحظات، ولم يقرّ لي قرار. . فخرجت من الدار عسىٰ أن أجد ما أرغب في مكان ما. وتذكرت ـ وأنا أضرب قدماً في جوف الليل ـ دكاناً لبيع الطرشيّ عند بوّابة النجف، كان من عادة صاحبه أن يبيت الليالي فيه. ومضيت أغذّ الخطىٰ إلىٰ الدكان (وقد كانت لمدينة النجف في ذلك الزمان بوّابة تغلق في الليل). كان حانوت بائع الطرشيّ مجاوراً للبوابة تماماً. وقبل أن أبلغ الحانوت لأوقظ صاحبه. . سمعت أصواتاً من وراء البوابّة، أدركت معها أنّ موكباً من مواكب لطم الصدور قد وصل الآن، ووجد المشتركون فيه أن البوابة موصَدة، فاجتمعوا خلفها وأخذوا ينادون بصوت واحد رفيع: «يا عليّ. . افتح الباب». كان الجوّ مظلماً، ولم تكن في ذلك الوقت مصابيح تضيء الطرقات. أمّا أنا. . فقد قلت في نفسي: الآن يأتي شخص من أهل النجف ويفتح لهم الباب، وهؤلاء سوف يقولون: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي فتح الباب!

وما أن خَطَر لي هذا الخاطر. . حتىٰ رأيت نوراً أشبه بالقمر يصدر من قبّة أمير المؤمنين عليه السلام، وبدأ يتحرّك حتىٰ أضاء كلّ شيء، ثم وصل بعد دقائق إلىٰ بوابة النجف. كنت واقفاً علىٰ جانب، لمّا رأيت النور قد أنار الجوّ عند البوابة من الداخل. عندها أخذت ألاحظ القفل وكيفيّة ايصاد الباب علىٰ نحو دقيق، وأركّز في ذاكرتي ما كان في الباب من علامات وإشارات، خشية أن يكون ما أراه. حلماً في المنام. وعلىٰ أيّ حال. . شاهدت النور وصل إلى البوابة، وانتشر عليها، وفي خلسة مذهلة انفتح الباب، فتسرّب الجمع المنتظِر وراء الباب إلىٰ داخل مدينة النجف، وهم يقولون: نور أمير المؤمنين عليه السلام فتح الباب. فما كان أمامي ـ والحالة هذه ـ إلاّ أن أشاركهم في

هذا الاعتقاد، ذلك أنّي رأيت حقاً ما قد رأوه هم، وفوق ذلك أنّي كنت تفرّدت برؤية النور المقدس ينبعث من القبّة الطاهرة. وأدركت عندها أنّ ما وجدته فيّ من ميل غالب إلى تناول الحامض إنّما كان ليوصلني إلىٰ بوابة النجف، وليريني هذا النور المقدّس. والغريب أن رغبتي العارمة إلىٰ الحامض قد ذهبت بعد رؤيتي هذه الواقعة. . وكانت هذه الحادثة ـ بالنسبة إليّ ـ موقظة لي ومنبّهة من غفلتي عن هذا الأمر:

يـا لَـهُ لـيـلٌ مـبـارك   يـا لَـه مـن سَـحَـرِ!
إنّـهـا لـيـلـةُ «قَـدْرٍ»   جَـدّدتْ لـي قَـدَري

عندها رحت ـ وأنا عند بوّابة النجف ـ أخاطب سيّدي ومولاي. . الذي هو حبيبي وأعزّ عَلَيّ من روحي، هو دنياي وآخرتي. . نعيمي هو وجنّتي. وأخذت أتوسّل إليه أن يهديني إلىٰ سبيل الحقيقة والمعنويّة، وأن يدلّني عليه ويوصلني إليه، أن أفوز بمقام القُرْب، أن يجعلني من أوليائه. ولقد تفضّل علي حقّاً وفعل ما يليق بكرمه، فكان أنْ عرّفني علىٰ أستاذ ناصح أخذ بيدي في طريق تزكية النفس، وأفلحت في السلوك إلى الله.

كرامة الإمام الرضا عليه السلام

الوهم الذي كنت سادراً فيه هو أني سأكون أسعد انسان في الدنيا لو كان لي مورد ماليّ جيّد، وزوجة حسناء، ودار فارهة، ومعيشة لائقة. فكنت أسعىٰ دائماً لبلوغ هذا الهدف الذي جعلته نصب عينيّ. ومرّ زمان.. وأنا عاكف علىٰ هذا الوهم، وقد أطبقتُ عيني عمّا سواه. حتىٰ حَدَث أنْ حكى لي صديق موثوق، في مدينة مشهد المقدّسة، واقعة جعلتني أنتفض فجأة وأخرج من خَدَر الوهم الذي كنت مسترخياً فيه.. فأدركت عندها أنّ ما كنتُ اتّخذته هدفاً أسعىٰ إليه في رحلة الحياة الدنيا هذه لم يكن غير استجابة طيّعة للبُعْد الحيوانيّ البهيمي في الإنسان.. في حين أنّ الهدف من وراء الخلقة والغاية من وراء التكوين هو شيء آخر أعلىٰ وأغلىٰ. وهذه هي الواقعة التي سمعت:

سافرت أُسرة من طهران بالسيّارة الشخصيّة إلىٰ مشهد لزيارة الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام. وكان في الأسرة امرأة حامل في فترة الوحام، ولم تكن تشتهي أن تتناول من الطعام غير «الفَسَنْجُون»[1]. وقد شقّ علىٰ هذه

(١) الفَسَنْجون: مرقة يدخل في تركيبها: الدجاج ولبّ الجوز ودبس الرمّان الحامض والسكّر.

المرأة في طريق السّفر الطويل[1] ألاّ تجد الطعام الذي ترغب فيه. فكان هذا مصدر تنغّص للأسرة وتكدير. وهكذا طوت جائعة في السيّارة حتىٰ أدركها الضعف. وإذ وصلوا إلىٰ موضع من الطريق لاح لهم ـ قُبَيْل الظهر ـ رجل واقف علىٰ جانب الجادّة.. وبيده ورقة فيها رقم السيّارة، وهو يلوّح للسيارة باصرار أن تتوقف. ركن السائق السيّارة جانباً، فدنا منهم الرجل، وقال: أنا من القرية المجاورة. البارحة رأيت الإمام الرضا عليه‌السلام في المنام، فقال لي: كُنْ غداً علىٰ الجادة في الساعة الفلانيّة، وستصل سيارة تحمل الرقم كذا، فيها أُسرة.. عليك أن تضيّفها في دارك، واعلم أنها لا تريد غير الفسنجون طعاماً، فلتعدّ هذه الأكلة لضيافتها. والآن.. قد أعددت هذا الطعام، وأرجو أن تشرّفوا معي إلىٰ الدار، فتتناولوا طعامكم.. ثمّ تمضوا إلىٰ مشهد.

هزّتني هذه الواقعة ـ وقد رواها مَنْ أثق بصدقه ـ هزّاً من الأعماق، وجعلتني أفهم حقائق ما كنت لأفهمها في غفلتي التي قبعت فيها زماناً.. ومن حينها بدأت أتوجّه من قلبي تلقاء مقام الولاية العظيم للإمام الرّضا (صلوات الله عليه).

---

(١) تبلغ المسافة بين طهران ومدينة مشهد أكثر من (٩٠٠) كيلومتر.

تأثير آيات القرآن

كأنّ علىٰ قلبي قفلاً . . كنت قابعاً وراءه، ساهياً عن المعاني الروحيّة، مُقْبلاً علىٰ الحياة اليوميّة في همومها الصغيرة التي لا تتعدىٰ حاجات الكائن العضويّة، من مأكل وملبس ومنام.

كنت منسجماً مع هذا الأفق الضيّق، سادراً فيه؛ لأني لم أكن متفطّناً إلىٰ وجود غيره أعلىٰ منه وأحبّ وأقرب إلىٰ إنسانيّة الإنسان. بَيْد أنّ لقاءً واحداً برجل متألّه قد قلب حالتي ظهراً لبطن، وغدوت أرىٰ الحياة بمنظار آخر هو وحده الجدير أن يقيم الإنسان فيه.

التقيت به في مجلسٍ ما، علىٰ غير ميعاد. كان يتحدّث وأنا أستمع مع الحاضرين. لكنّ حديثه ـ بالقياس إليّ ـ كان له فعل الإيقاظ المفاجىء من نوم عميق.

ابتدأ حديثه بهذه العبارات:

إلىٰ متىٰ يا عزيزي وأنت في غفلة مُعْرِض؟! افتح إذن قلبك تستمع إلىٰ ما يقوله الله ربّك.

ثمّ إنّه شرع يقرأ من كلام الله هذه السورة بصوت آسِر جذّاب، وباقبال وتوجّه لافت للنظر:

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(١).

لقد أحدثت فيّ تلاوته لهذه السّورة هزّة عنيفة، جعلتني أصحو في لحظات من نوم طويل. فتحت أذن قلبي وعيني، لكنّي ما زلت أتململ لم أصحُ كلّ الصّحو. إنّ خَدَراً في داخلي ما يزال. ولو تُركت في وقتها لعدتُ إلىٰ غفوتي أجدّد النوم. وفوجئت بهزّة أخرىٰ طيّرت ما كان يرنّق عين القلب من النعاس؛ إذ بدأ هذا الرجل الربّاني يتلو من كلام الله:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).

قرأها ودموعه تجري، وبمزيد من التوجّه والانفتاح، فجعلني أدرك أني كنت في سِنة النعاس، فألقت عليّ هذه الآية من اليقظة والصّحو ما جعلني أشعر بالحضور الإلهيّ فوق رأسي.. قائلاً لي:

أما آنَ لك أن تنهض من نوم غفلتك؟!

ألم يَحِنْ وقت إقبالك علىٰ الله.. يا من ترىٰ نفسك مؤمناً؟!

أمَا زلتَ لا تريد لقلبك أن يخشع أمام عظمة الله وجلاله؟!

أما تزال حتىٰ الآن لا تؤثّر فيك آيات القرآن؟!

أما آنَ لأُذُن قلبك أن تسمع كلام الحقّ؟!

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

ألا تَعْلم أنك ـ إنْ لم تستجب إلىٰ هذا التحذير الإلهيّ ـ ستكون كالذين قَسَت قلوبهم من قبل، فتغرق في الفسق والفجور كما غرقوا؟!

عند هذه النقطة. . نفضت تماماً لوثة النعاس، وأنا أهتزّ وأبكي صائحاً: لي الويل. . لماذا لم استيقظ إلاّ الآن؟!

ولمّا أدرك هذا الاستاذ الكبير أنّي قد صحوت من رقاد غفلتي. . أخذ يلاطفني مُطَمْئناً، يقول لي: ما يزال أمامك وقت كافٍ؛ فإنّ الله (تعالىٰ) يقول في كتابه المجيد:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وحين تلا هذه الآية عَلَيّ. . خِلْتُ أنّ رسول الله ﷺ قد حَضَر بأمر الله. . مُشرفاً عليّ من فوق، ناطقاً عن الله (تعالىٰ): يا عبد الله الذي أضرّ بنفسه بكثرة المعاصي والآثام. . لا تيأسْ من رحمة ربِّك. أمَا وقد صحوتَ الآن. . فإذا تبتَ من ذنوبك، مُقبلاً علىٰ الله، فإنّ الطريق مفتوح أمامك ليغفر لك الله ما أذنبت، فإنّه هو الغفور الرحيم. فَبادِرْ إذَنْ إلىٰ الإنابة والتوبة قبل أن يحلّ عليك غضب الله وعذابه فتهوي إلىٰ الأبد، ولا يكون لك من حاجز عنه علىٰ الاطلاق.

أمّا أنا. . فمن لحظتها توجّهت بكلّي إلىٰ الله، واختططت الطريق تلقاء الكمالات الروحيّة والآفاق المعنويّة الرائعة الرحيبة.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

كيف أصحو من غفلتي؟

رَبَطَتْني به صلة حميمة دامت سنوات. وقد نجحتُ إلىٰ حدّ ما ـ ومن خلال وصاياه لي ـ في طيّ مراحل الكمالات الروحيّة. إنّه واحد من العلماء الصّلحاء ذو خبرة وتجربة. سألته يوماً: كيف يمكن للمرء أن يوقظ غيره من نوم الغفلة.. وأن يدلّه علىٰ نهج الحقّ والحقيقة؟

فقال لي: إنّ أقدر هتاف علىٰ إيقاظ الناس من نوم الغفلة.. إنّما هو ـ أوّلاً وقبل كلّ شيء ـ كلام الله.. الذي كان يتلوه النبيّ ﷺ بوصفه آيات قرآنيّة.

وهذا يعني أنّك متىٰ شئت أن تنبّه أحداً من رقدة الغافلين.. فعليك أن تتلو عليه من القرآن، خاصّة إذا شفعت تلاوتك بشيء من الإيضاح للمعنىٰ أو تدبّر المعنى هو بنفسه، فإنّ تلاوتك تهزّه. ولا بدّ أن يصحو ويفيق إذا لم تكن روحه قد ماتت ولم تُصَب أُذن قلبه بالصَّمَم.. ذلك أنّ أغلب آي القرآن الكريم ـ وخاصة ما يتّصل منها بقصص الأنبياء العظام عليهم السلام ـ إنما نزل لإيقاظ البشر. إنّ بني آدم غالباً ما يكونون سادرين في كرًى عميق يحتاج إيقاظهم منه ما يحتاجه النائم نوماً عادياً من معاودة الهزّ والتحريك. وان تكرار تلاوة آيات القرآن والإشارة إلىٰ دلالاته لا بدّ أن تؤدي يوماً إلىٰ الايقاظ والتنبيه.

وقال الأستاذ يواصل حديثه: تشير عليه مثلاً أن يواظب يومياً على قراءة سورة (الشمس) متفكّراً في معانيها، أو أن تتلو عليه أنت هذه السّورة كاشفاً له عن مضامينها. أو تقرأ له سورة (الواقعة) أو (الحشر) أو (التكاثر) أو سواها من السور والآيات التي تُحدث قراءتها والاستماع إليها هزّة في باطن الإنسان، ممّا يخرج به عن غفلته وسُباته. وهذا الأثر يحدث للمرء ـ وأعيد التعبير مرّة أخرىٰ ـ إنْ لم يكن قد مات موتاً معنوياً، وما كان من أولئك الذين يقول عنهم القرآن العظيم، في خطابه للرسول الكريم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[1]. ومن كان نائماً في غفلته مجرّد نوم فإنه قابل لأن يصحو ويستيقظ.

ثم تأتي بعد القرآن نوبة أن تحكي ـ لمن تريد إيقاظه ـ حكايات الذين صَحَوا من نوم غفلتهم بوسيلة أو بأخرىٰ.. كما صنعنا في هذا الكتاب.

الأسلوب الثالث المفيد للإيقاظ هو التعريف بالشعر العرفانيّ الذي يهزّ ويوقظ، ونقل كرامات أولياء الله، وما يتصل بالقضايا الخارقة للعادة وبالمعجزات والكرامات. وهذه حادثة ذكرها أحد التلاميذ، أُوردها في هذا السّياق:

اختليت يوماً مع نفسي أفكّر في الحوادث الخارقة للعادة: أترىٰ هذه الحوادث واقعيّة صحيحة أمْ أنها مصنوعة مكذوبة؟! وقد تسلّط علي هذا التفكير وقتاً غير قصير، لكنّ النفس اللوّامة ما لبثت أن راحت تعنّفني وتؤنّبني قائلة: كيف يمكن أن تكون هذه الحوادث مكذوبة، والحال أنّها قد وردت مراراً وتكراراً في الكتب السّماويّة كالقرآن والإنجيل والتوراة؟! ومن أنكر القضايا الخارقة للعادة فقد كفر ولا يُعَدّ متديّناً بأيّ من الأديان العالميّة الحيّة، بل هو خارج من الدين كلّه. أترىٰ من سبيل إلى انكار مسألة احياء الأنبياء

(١) سورة النمل، الآية: ٨١.

للموتىٰ، وطيّ الأرض، وإبراء أولياء الله للأكمه والأشلّ. . مما نطق به القرآن وسائر الكتب السماويّة؟

وفكرت في نفسي: إنّ عليّ أن أفعل شيئاً ربّما يجعلني أقف علىٰ هذه الحقائق. فعمدت إلىٰ كتاب (قصص العلماء) وإلى كتب أخرىٰ في سِيَر أولياء الله فقرأتها. . ممّا أحدث في داخلي هزّة، لكنها ضعيفة. بَيْد أنّ أشدّ ما هزّني واقعتان رواهما لي من أثق بروايته، فقال:

يقول المرحوم حجة الإسلام الشيخ مرتضىٰ الزاهد (رحمه الله): كان في دارنا امرأة يقال لها: «أمّ ليلىٰ»، كانت قد شُلَّت رجلاها منذ زمان. وحدث أن حملتها ابنتها يوماً علىٰ محفّة ومضت بها إلىٰ مرقد السيد عبد العظيم الحسني عليه السلام، لكنها وضعتها توهّماً منها إلىٰ جوار مرقد السيد حمزة ابن الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام ـ وهو لا يبعد عن مرقد السيد عبد العظيم إلاّ أمتاراً قليلة ـ تتوسل به طالبة لأمّها الشفاء.

تقول أم ليلىٰ هذه: أغفيت هناك، فرأيت في المنام خمسة أشخاص يدخلون الحرم، فقال واحد منهم لآخر، وهو يشير إليّ: «هذه قد توسّلت كذلك». ولقد أدركت في الرؤيا أنّ هؤلاء الخمسة إنّما دخلوا الحرم لشفاء كافة المرضىٰ المتوسّلين. وعند هذه النقطة صحوت من النوم، فنهضتُ من مكاني ومشيت، بدون أن أفطن إلىٰ أنّي مُقْعَدة لا أقوىٰ علىٰ المشي. وما أن لمحتني ابنتي أدرج وأمشي حتىٰ قالت لي بدهشة: أنتِ مُقْعَدة. . فكيف تمشين؟!

عندها تنبّهت إلىٰ أني كنت شلاّء حقّاً، وقد شفيت تماماً من الشلل! ولمّا روىٰ المرحوم الشيخ مرتضىٰ الزاهد هذه الواقعة لآية الله العظمىٰ السيّد صدر الدين الصدر خرّ السيّد ساجداً سجدة شكر، وقال: شكراً لله الذي جعلني أطّلع علىٰ كرامة واقعية للسيّد حمزة عليه السلام.

هزّتني هذه الحادثة، وأيقظتني من سبات غفلتي إلىٰ حدّ. لكنّ الحادثة الثانية التي رواها لي الرجل نفسه عن الشيخ مرتضىٰ الزاهد أيضاً أيقظتني تماماً من غفلتي، وجعلتني أتوجّه نحو الكمالات الروحية. وهذه هي الحادثة:

قال المرحوم الشيخ مرتضىٰ الزاهد: كنت أعقد في الليالي جلسات للدرس. وكان دأبي ألاّ أتأخّر عن العودة إلى الدار، أو أن أفتح الباب بمفتاح معي إذا عدت متأخّراً. . لئلاّ أوقظ زوجتي، فيكون هذا سبباً لظلمها والتجاوز عليها. وحدث مرّةً أن كانت عودتي ليلاً إلى الدار وقد مضىٰ هزيع من الليل، ولم يكن معي مفتاح الباب. قرّ قراري إلاّ أوقظ امرأتي من رقادها. ومعنىٰ هذا أنّ عَلَيَّ أن أظلّ إلىٰ الصباح في الزقاق، أقطعه جيئةً وذهاباً. ومكثت فعلاً في الزقاق لم أطرق الباب. لكنّ ما باغَتَني بعد قليل أن فتحت زوجتي باب الدار، وأخرجت رأسها من الباب قائلة لي: تفضّلْ!

وسألتها: كيف فتحتِ الباب. . والحال أنّي ما طرقته، وما ثَمَّ ما يدلّ علىٰ أنك عرفتِ أني وراء الباب؟!

قالت: كنت غافية حين رأيت سيّداً في المنام قد جاءني وقال لي: الشيخ مرتضىٰ واقف وراء الباب، ولم يشأ أن يطرقه لئلاّ يوقظك من النوم فيكون قد ظلمك. فانهضي علىٰ الفور، وافتحي له الباب. فَهَبَبْتُ مسرعة من النوم وجئت إلىٰ الباب وفتحته.

يقول المرحوم الشيخ مرتضىٰ الزاهد: عندها شكرت الله (تعالىٰ) وإمام الزمان (روحي فداه).

هاتان الواقعتان جعلتاني أصحو تماماً من رقدتي. ومن حينها عزمت أن أسعىٰ أنا أيضاً لأفوز بمقام الأولياء.

الشكّ المقدّس

سلختُ خمسة وعشرين عاماً من عمري. . غافلاً، رغم أنّي قد أنفقت سنوات في الدراسة. أعيش لحظتي منغلقاً عليها، ولا يَعْنيني أمر الغد. . تماماً كما تفعل الأنعام. وكانت غفلتي إلىٰ حدّ أنْ لو تحدّث متحدّث عن وجود القيامة والحساب والجنّة والنار لَما كلّفت نفسي عناء أن أحتمل صدق ما يقول؛ إذ لم أكن أرىٰ غير ما يَمْثُل أمام عينيّ.

وقد جرت المقادير يوماً أن ألتقي ـ في مناسبةٍ ما ـ بأحد العلماء العارفين. إذ تحدّث في وقتها حديثاً مُسْهَباً عن حقيقة الإنسانيّة، وعن الكمالات الروحيّة، والدنياوالآخرة. ولقد ألقىٰ حديثه في قلبي بذرة التردّد والشكّ: أتراه ممكناً أن يكون لكلامه حقيقة واقعيّة؟! ونَمَت البذرة في داخلي وبدأت تمدّ لها جذوراً. ما كان أسعد ما فعل هذا الشك في حياتي! إنّ كلّ ما لديّ الآن من المعرفة الصائبة والحياة الإنسانية إنّما هو مَدين للحظة الشك تلك. ومن حينها أصبحت أعتقد أنّ الشكّ والتردّد ـ في مثل هذه الحالة ـ مبعث السعادة والهناءة في الحياة. إنّ هذه الحالة تشبه إلىٰ حدّ كبير حالة المريض الذي ينبّهه ما يحسّه من ألم إلىٰ وجود مرض يبادر إلىٰ علاجه قبل أن يستفحل ويقضي عليه. أو تشبه حالة الجائع الذي إذا لم يجد لذعة الجوع فانّه

لا ينبعث إلىٰ تناول الطعام، فيستولي عليه الضعف ويستبدّ به الهزال.. حتىٰ يأتي علىٰ صحته وعلىٰ حياته. وهكذا الشك والتردّد في أمر ما: إذا لم تُبْذر بذرته في باطن الإنسان فإنّه لن يندفع للبحث والدرس والتحقيق.

لقد كان أمري في هذا الشك القيّم المقدّس أمر المريض الذي تضطرّه آلامه إلىٰ التفكير بالمعالجة.. فمضيت تلقاء البحث عن الحقّ والحقيقة، حتىٰ بلغتُ ـ والفضل لله ـ ينبوع اليقين ووصلت إلىٰ نور الهداية. وقد وجدت أنّ هذا من منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ يواجهون من استولت عليه الغفلة حتىٰ أنكر وجود الله والمقدسات كافّة.. بأن يزرعوا الشك فيما يعتقد، لتبدأ من بعد غرس الشك مرحلةُ التفكّر والبحث لديه. ثمّ يأخذوا (صلوات الله عليهم) بِيدَيْه ليوصلوه من حالة الشك إلىٰ مقام اليقين والاعتقاد الحقّ بوجود الله (تعالىٰ) وسائر الحقائق والمعنويّات.

وعلىٰ أيّ حال.. فقد أحالني هذا الشك الذي نما في صدري إلىٰ أن أقضي ليالي طويلة مُسَهَّداً لا يقرّ لي قرار.. أفكّر في الحقائق والكمالات وفي الحياة الإنسانية السليمة المعافاة، حتىٰ فزت بعدئذ باليقين، وبدأت أحسّ بالهدوء النفسي والسَّكِينة الروحية.

وقد أصَبْتُ هذه السّكينة وهذا اليقين علىٰ أثر عكوفي أياماً علىٰ تلاوة القرآن، ومطالعة بعض الكتب الاعتقاديّة النافعة، إذ قرأت في هذه الكتب: ليس العالَم حُلُماً ولا خيالاً، ولم ينبع من تلقاء نفسه بعد أن كان عدماً، فالعقل يأبىٰ قبول هذين الاحتمالين.. فلا بدّ إذَنْ من وجود «أزَليّة»، أي أنّ العالَم هو هكذا منذ الأزل، أو أنّه قد أوجده موجد صفتُه الأزليّة. ولا يرتاب أحد في أنّ العالَم غير أَزَليّ؛ لأنه سيؤول إلىٰ الزوال، أو أنه يتحرّك ـ في الأقلّ ـ نحو الانحدار. وهذا يُفْضي إلىٰ الاعتقاد بأن العالَم «حادث».. كانَ بعد أنْ لم يكن. وانّ ثمّة وجوداً ـ من غير جنس هذا العالم الحادث ـ هو الذي خلق العالم وأوجده، وهذا الوجود الخالق الموجِد.. هو الله.

ثمّ رحتُ أنظر في أقدار الكائنات الحيّة في هذا العالم: النبات منها والحيوان. . فاستبان لي أنْ لو تُرِك كلّ منها ينمو ويتكاثر بطلاقة تامة وبدون هيمنة عليه أو توجيه له. . لامتلأت به الكرة الأرضيّة علىٰ سعتها، ولباتت حياة الكائنات فيها ضرباً من المستحيل. لكنّ قوة قادرة غالبة من المهيمنة عليها الآخذة بناصيتها، لئلاّ يتجاوز شيء من الحيوان والحشرات والشجر والنباتات حدّه، ويتطاول علىٰ قدره. فلو أنّ بيوض الأسماك في أنهار الأرض وبحارها ومحيطاتها يَفْقِس كلّها، ويُنتج أسماكاً بهذه الأعداد الهائلة ـ بدون أن يصاب شيء من البيوض بالتلف ـ لَما بقي في مياه الدنيا مكان تحيىٰ فيه سائر كائنات البحر. ولو كانت بيوض أحد أنواع الحشرات بأجمعها مصونة من العطب، فتولّد كلّها حشرات تامّة. . لضاقت الأرض بالإنسان ولَما أمكنه العيش.

تُرىٰ. . أيّ قدرة هذه التي تهيمن علىٰ الكائنات وتنظّم أقدارها؟ أيّ قوة هذه التي تَعلم مقدار ما يحتاج إليه العالم من هذا الكائن أو ذاك بحيث ظلّ يحتفظ بعدده المقدَّر له آلافاً من السنين، بدون أن يكثر أو يقلّ؟ ترىٰ. . ما اسمّ هذه القدرة العظيمة المهيمنة؟ وإذا لم تُسَمَّ هذه القدرة القديرة بـ«الله». . فأيّ اسم أجمل من هذا يمكن أن تُسمّىٰ به؟

ومهما يكن. . فإنّ هذه المعاني والأفكار كان لها الفضل في إخراجي من غفلتي. ومن هذا المنطلق أجدني مدفوعاً لأوصي كلّ أصحاب الغفلة أن يتفكّروا في آثار خلق الله، وأن يروا آياته (جلّ جلاله) في كل شيء ـ إذا شاؤوا أن يفيقوا من نوم الغفلة إلىٰ الصّحوة علىٰ الحقّ ووعي المعنويات.

أثر كتاب «معراج الروح»

ربّما يكون قد وافاني حتىٰ الآن أكثر من ألف رسالة، من مختلف الأشخاص، علىٰ تنوّع وظائفهم وأعمالهم. . كلّهم يحكي عمّا أصاب من اليقظة علىٰ أثر قراءته كتاب (معراج الروح). . الذي كنت كتبته في حدود سنة (١٤٠٠هـ)، ورويت فيه أطرافاً من سيرة المرحوم الشيخ «محمود عتيق» المعروف بـ «الحاج ملاّ آقا جان الزنجاني». . وقد أعيد طبعه إلى الآن عشرين مرّة.

هذه التجربة قد بصّرتني أنّ أدنىٰ ما في سرد سيرة الكبراء وأهل المعنىٰ هو أنّها توقظ الإنسان من سُبات غفلته وتعيده إلىٰ الصّحوة. بل إنّها لتهتف بالمرء أنْ: لماذا أنت قابع في هذه الدنيا الملأىٰ بالمخاطر، تشغلك زخارفها الدنيّة الهابطة. . كما هو شأن الأطفال والصّبيان؟! أوَلا تعلم أنّ الدنيا لَهو لا طائل منه، ولَعِب لا خير فيه، سريع الزوال والانقضاء؟! لماذا لا تغدو أنت مثل أولئك الرجال الأطهار، فتحظىٰ بالدنيا والآخرة، وتفوز بسعادة الجِنان وبالنّعم كلّها المادي منها والمعنويّ، الظاهر منها والباطن؟! إنّ هذا كلّه

قد خلقه الله لك وجعله طوع يَدَيك.

وأخيراً.. فإنَّ مَن قرأوا (معراج الروح) كانوا يعبّرون، في رسائلهم، عمّا اشتمل عليهم من المسرّة والرضا.. قائلين إنّ حياتهم وروحيّاتهم قد تبدّلت، وأحال الكتاب حياتهم متحرّكة نحو الله (تعالىٰ) والحقائق المعنويّة.

وقد شهدت بنفسي عدّة حالات من التيقّظ والانتباه لدىٰ أناس قرأوا هذا الكتاب وانتفعوا منه. أشير هنا إلى حالة واحدة من هذه الحالات:

في يوم صائف اتّصل بي هاتفياً رجل، وَوَدّ لو أحضَر لديه في داره، ولو نصف ساعة فقط.. قائلاً: إنّ له معي شغلاً مهمّاً! وإذ لم تكن لديَّ فرصة لإجابة دعوة من هذا النوع.. قلت له: أنا لا أعرفك، ثمّ إنه يؤسفني ألاّ أُلبّي مثل هذه الدعوة؛ فإنّ لديّ أعمالاً كثيرة، ووقتي لا يسع. غير أنّ هذا المرء ظلّ يلحّ عليّ بإصرار. وحينما عرّفني بنفسه. تذكرت أنّي كنت قد سمعت باسمه من بعيد. قلت له: تَفَضّل وأخبرني بما تريد علىٰ نحو الإجمال.. فربّما يتسنّىٰ لي أن أزورك يوماً ما. فقال: بودّي أن أحكي لك في المنزل. ثمّ أنّ الأوان قد فات، ومتىٰ ما علمتَ بتفاصيل الموضوع يتبيّن لك معنىٰ ما أقول.

استجبت ـ علىٰ أيّ حال ـ ومضيت إلىٰ داره. وهناك رأيت كتاب (معراج الروح) على منضدة المطالعة.. والدموع تتحدّر من عينيه، وهو يقول: إلٰهي.. العَفو! اغفر لي.. ما أكثر ما تخلّفت وتأخّرت! فتح ذراعيه لمّا رآني واحتضنني.. قائلاً: جزاك الله خيراً. هذا الكتاب أيقظني من غفلتي. وأذكر لك الآن ماذا كنتُ وفي أيّ نوم كنت سادراً لا أفيق. تعال الآن معي تَرى ما كنت أصنع، وكم كنت شقيّاً!

ثمّ أنه تقدّمني. . وأنا أتبعه. في البداية أراني «ألبوم» صوره. وما أن وقع نظري على صورة منها أو صورتين حتىٰ تحرّجت من مواصلة رؤية سائر الصور وتأثّمت. مشاهد كانت في غاية السوء: نساء متجرّدات، ولقطات شهوانيّة، وحفلات راقصة. . وما إليها من المشاهد المتخلّفة الهابطة. قال لي: ما لم تَرَه منها أسوأ ممّا رأيت. وأضاف: أُشهدك أنّي سأمزّقها جميعاً وأُلقيها طُعْمة للنار. وفعل حقّاً ما عزم عليه.

بعدها فتح باب ثلاجة كبيرة. . حيث تصطفّ فيها أنواع المشروبات الكحوليّة الأجنبيّة، رغم أنّ المشروبات المحرّمة ممنوعة ولا يمكن أن تُتداول في إيران بعد الثورة الإسلاميّة. عمد هذا الرجل إلىٰ المشروبات، وأراقها في البالوعة. ثم حطّم ما كان بحوزته من آلات الموسيقىٰ واللهو. كما مزّق صوراً تمثّل «الفنانين» المنحرفين من ذوي الشهرة العالميّة، وألقاها بهوان في سلّة المهمَلات. . ولم يترك حتىٰ المجلاّت الغربيّة المثيرة للجنس، فكان مصيرها إلى النار.

قعد بعدها يبكي. . كالمرأة، وينوح. كان يقول: ما بالي حتىٰ الآن قابع في ظلام الغفلة؟! إذا نظرتُ إلىٰ سيرتي السابقة أجدني كبهيمة عجماء مسلوبة العقل والإدراك. . ما همّها إلاّ الطعام والنوم والجنس. مع فارق أنّ البهيمة لا حساب عليها يوم القيامة، وأنّي ـ لِما أعطاني الله من نعمة العقل ـ سأقف بين يَدَي الله للحساب. تُرىٰ. . كيف يمكن أن أتلافىٰ هذا الخسران الذي غرقت فيه؟ كيف يتسنّىٰ لي أن أستأنف حياةً سليمة من جديد؟

قلت له: إنّ أساس شقاء الإنسان هو نوم الغفلة هذا الذي قد صحوتَ منه والحمد. وأنه بإمكانك ـ وأنت ما تزال في الشباب لم تكتهل ـ أن تلجأ إلى الله (تعالىٰ) تطلب منه العفو والمغفرة. بل إنّ ما قمت به أمامي الآن يُعَدّ توبة لك، ذلك أنّ الإمام السّجاد زين العابدين عليه السلام يقول: «كفىٰ بالندم توبة».

بكىٰ صاحبي مرّة أخرىٰ لمّا سمع هذه العبارة التي تبثّ الأمل في القلب والرجاء، وقال: أنا آثم كثير الآثام.. شقيّ أنا من الأشقياء.

قلت له: مهما كانت آثامك كبيرة فعفو الله أعلىٰ وأكبر. كن راجياً مؤمّلاً، ولا تدع الشيطان يسلبك حالة اليقظة والانتباه هذه بما يوسوس إليك من اليأس والقنوط. أَكْثِرْ من البكاء بين يَدَي الله (تعالىٰ) في هدأة الليل.. بقدر ما عملتَ من الاثم، ولا تأخذنّك كرّة أخرىٰ حالة الغفلة وقسوة القلب.

وعلىٰ أيّ حال.. فقد استجاب لِما أشرت عليه، واستطاع أن يكون في منجًى من تلك الحمأة البهيميّة التي كان يتمرّغ في وحولها. عسىٰ أن يكون يوماً من عباد الله الصالحين.

اللقاء بإمام الزمان عليه السلام

كثيراً ما صحا أناس من غفلتهم علىٰ أثر قراءتهم حكاية من وقائع اللقاء بالإمام بقيّة الله (روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء) أو علىٰ أثر سماعهم لحادثة تشرف بلقياه عليه السلام . وقد عبّر العديد عن كيفيّة تيقّظهم وانتباههم برسائل كتبوها وبغير الرسائل. ومن تعبيرهم عن هذه الحالة أورد هذه النماذج والصور:

ـ يقول أحدهم:

بعد مطالعتي كتاب (اللّقاء بإمام الزمان عليه السلام) وُفّقتُ للانتباه من الغفلة. وفي منتصف احدىٰ الليالي ـ وقد أصابني الأرق ـ طفقت أناجي إمام الزمان عليه السلام وأخاطبه علىٰ هذا النحو:

تفضّلْ عليَّ ـ يا إمامي ـ لأحظىٰ بالتطهّر وبرؤية جمالك الآسر. . كما حظي بلقياك العديدون.

لو كذّبتُ حدوث كلّ هذه الوقائع لكنت قد خادعتُ نفسي، ولَما كان قد صِيرَ هذه الأحاديث الطويلة والأخبار المفصّلة في موضوع اللقاء. وإنْ قلتُ أنّها حوادث واقعيّة صادقة فلماذا أجدني محروماً من هذا

الفيض العظيم، نائياً عن ينبوع المعارف والعلوم الحقيقيّة؟! ما عساني أفعل يا إلٰهي لأكون واحداً من هؤلاء الأنقياء فأفوز بلقيا إمام زماني؟ مُنّ اللّٰهُمّ عليّ لأعيش دوماً حالة الإفاقة والصّحوة، فلا أنفصل لحظة عن إمامي.

ـ وكتب أحد أساتذة الجامعة الإسلاميّة الحرّة:

بلغتْ ليلة الجمعة هذه منتصفها، وأنا أمسك بالقلم أخطّ هذه الرسالة. قرأت عدّة من وقائع اللقاء بإمام الزمان عليه السلام فهزّتني من الداخل.. عسىٰ أن يُسبغ الإمام عَليّ أنا أيضاً من ألطافه وفضله. ولكني أعلم أنّي لا أكون مؤهلاً للارتباط بالإمام عليه السلام بدون التخلّق بالخصال الإنسانيّة، والتنزّه عن الرذائل، وإزالة الحواجز والحجب الروحيّة.

أمّا وقد صحوتُ من غفلتي ـ أيّها الأستاذ ـ فقد استبان لي المدىٰ الذي كنت متراجعاً فيه إلى الخلف، وعَليّ ألاّ أفرّط بلحظة من أجل المسير تلقاء الكمالات.. ملتمساً منك العون في إيضاح خطوات الطريق: من أين يكون البدء؟ وكيف أواصل المسير؟

ـ وجاء في رسالة أخرىٰ تنضح باللوعة والاحتراق:

تعودّت أن أدعو في الليالي بدعوات طالباً أن أتيقّظ من سبات الغفلة. وفي إحدىٰ الليالي قرأت ـ بعد الدعوات ـ واقعة لقاء الحاج علي البغدادي بالإمام بقيّة الله في العالمين (صلوات الله عليه).. فرحت أبكي وانتحب منادياً: «يا صاحبَ الزمان».. لمَ لا تأخذني معك للزيارة؟ لماذا لا تقرأ لي نصّ الزيارة، فأزور بزيارتك؟ ماذا جنينا نحن المساكين حتىٰ حُرِمنا من جمال لقائك؟ كان البكاء غالباً.. أندب إمام زماني وأبكي من احزان الفراق والبِعاد. ومَثُلتْ أمامي عندها أبيات من الشعر كنت قد قرأتها في ديوان

«الفيض الكاشانيّ»[1]، فبِتّ أردّدها وقد استبدّ بي الشوق والحنين:

* يا لَها عيناً، ويا لَلْحاجبِ المدهش، يا سِحْرَ الشفاهْ!

يا لَهُ قَدّاً رشيقاً. . حَيَّرَ العاشقَ في سرّ هواهْ؟

* وذُؤاباتٌ، وخالٌ. . هٰهنا بَوْحُ عطورٍ وجمالْ

عَجَباً. . قد فاض منه سُؤدَدٌ، جاهٌ، وآفاقُ كمالْ!

* حارَ واللهِ فؤادي: لستُ أدري أيُّ شيء فيكَ أحلىٰ:

أشِفاهٌ؟! بَرَدُ الأسنانِ؟! أمْ ثغرك؟! أم عُنُقٌ تجلّىٰ؟!

* كلُّ شيءٍ فيك يحكي مهرجاناتٍ من الحُسْن العَجَبْ

غَمَزات العين هِيْ. . أمْ كلّها تُغرِي صَباباتِ الطَّرَب؟!

* حَرَكاتٌ!. . كلّها وزنٌ وإيقاعٌ وتقطيعُ نَغَمْ

سكناتٌ. . يا لَقَلْبي! جلّ مَنْ أبدعها بين الأُمَمْ!

* هي لُقياكَ. . تُحيل الليلَ ـ للأغيار ـ إشراقَ نهارْ

ونهاري صار ـ بالهجرانِ والأحزان ـ ليلاً وخَسارْ

---

(١) الفيض الكاشانيّ: محمّد بن مرتضىٰ المدعو بـ«المولىٰ محسن» الملقّب بـ«الفيض» (١٠٠٧ ـ ١٠٩١هـ). ولد في مدينة (كاشان) من أسرة عريقة فيها فقهاء وأصوليّون وفلاسفة متألهون وأهل أدب وفضل. و(الفيض) عالم موسوعيّ الاطلاع غزير التأليف. وصفه الشيخ عباس القميّ بأنّه عارف محدّث محقّق حكيم متألّه. كما لحظ مؤلّف (روضات الجنات) إحاطته بمراتب المعقول والمنقول مع جودة منهج التأليف وجمال التعبير. ونَصّ (الأفنديّ) في (رياض العلماء) علىٰ أنّه كان فاضلاً ماهراً حكيماً متكلّماً محدّثاً فقيهاً محققاً شاعراً أديباً حسن التصنيف. وقد أُحصيتْ مؤلفاته فكان أن قاربت المئة والخمسين كتاباً في مختلف فنون المعارف الإسلامية. وهذه الأبيات من ديوانه، وقد ترجمناها إلى العربيّة شعراً. ـ (المترجم).

* ليلُ أغيارِكَ صُبْحٌ. أيّ صبحٍ ونهارات عِذابْ!

* ونهارُ «الفيض» ليلٌ. يا لَهُ ليلاً مُعَنّى بالعَذابْ!

ـ كتب أحد سالكي الطريق الباحثين عن الحقّ والحقيقة:

عكفت في ليلة علىٰ كتاب (النجم الثاقب) أقرأ وقائع من التشرّف بلقيا إمام الزمان عليه السلام والفوز بفيوضاته.. فكان أنْ أتممت قراءة ما يقرب العشرين واقعة. وقد أسِفْتُ خلالها لأني لم أظفر ـ كما ظفر أصحاب هذه الوقائع ـ برؤية إمام الوقت (روحي فداه). في حينها تذكرت شيئاً جعلني أدرك ما يحجبني عن إمامي وما يفصلني عنه. وهو أنّ لي صديقاً يختلف عنّي في بعض أخلاقه إذ هو امرؤ بخيل شديد البخل، ولم أكن أنا في واقع الأمر كذلك.. ممّا جعلني أتجنّب مرافقته بسبب هذه المسافة النفسيّة التي تفصل بيني وبينه. وعقب قراءتي لهذه الوقائع انكشف لي السرّ الكامن وراء انحجابي عن الإمام عليه السلام وعن حرماني من نور ملاقاته. إنّ مسافة روحيّة مديدة كائنة بيني وبينه جعلتني محتجباً عنه بحجاب حال دون مشاهدتي إيّاه (صلوات الله عليه). في ذلكم الوقت كنت ـ من الوجهة العملية ـ لا أعتني في حياتي اليوميّة بأكثر من الطعام والمنام.. كأيّ بهيمة من الأنعام. وكنت أنطوي علىٰ صفات مثل حبّ الدنيا والحسد والغِلّ، ومن شأن كل واحدة منها أن تنأىٰ بي فراسخ وأميالاً عن المحضر القدسي لإمام الزمان عليه السلام.. الذي هو الطهر الطاهر المبرّأ حتىٰ من ظلال النقائص والعيوب. إنّه أصفىٰ مرآة عُلْويّة لأكمل التجلّيات الإلهيّة في عالم الخليقة على الإطلاق. وما عَليّ إذا كنتُ جادّاً في الشوق إلىٰ إمامي والحنين إليه.. إلاّ أن أجهد ـ والحالة هذه ـ لتقليل هذه الفواصل الروحيّة وللدنوّ من محضره المقدّس ساعةً بعد ساعة. عند هذه النقطة من التفكير انفجرت بالبكاء.. وأنا أقول: إلٰهي! كيف يمكنني أن أطوي هذه المسافة، وبأيّ سبيل؟ كيف يتهيّأ لي أن أنقض كلّ هذه الجدران الضخمة التي تحيط بي وكيف احطّمها بيد خالية عزلاء؟! ما كان لي من سبيل

سوىٰ البكاء أظهر به حنيني وعجزي في الوقت نفسه. بكيت حتىٰ وهنت من البكاء. وعلىٰ حين غرّة أضاءت لي بارقة أمل. كأنّ نوراً قد سطع بغتة في قلبي، وبرقاً التمع.. فأشرق منه كلّ وجودي، وأحسست بصوت يبلغ مسامعي يحمل معنًى قرآنياً يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١].

وقيل لي: منك الحركة، ومنّا البركة. امشِ خطوة واحدة إلينا نقترب منك عشر خطوات.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

صحوت من نومة الغفلة

قبل أن أعيش حالة الصّحْوة من نوم الغفلة.. كنت ذهبت يوماً إلىٰ أستاذي، فقرأ لي موضوعات من كتاب (في محضر الأستاذ)[1]. وهذه الموضوعات التي قالها أستاذ لم يُذكر اسمه في الكتاب كان لها في داخلي أثر الإيقاظ، ومن حينها بدأت التطلّع إلىٰ الكمالات والسير إلىٰ الله. وهذه هي الموضوعات:

قال:

استغرقني التفكير ليلة، بعد صلاتَي المغرب والعشاء في مسائل كانت تلحّ عليّ: صحيح أننا نختلف عن أصحاب النظرة المادية للحياة ـ من فلاسفة ماديين وسواهم ـ الذين لا يؤمنون بما وراء الطبيعة.. لكننا ربّما لا نختلف عنهم في هذا من الوجهة العملية.

نحن مثلاً لا نعرف من أين جئنا، ولا ندري علىٰ نحوٍ كامل إلىٰ أين سنصير[2].

---

(١) نقلنا هذه الموضوعات إلىٰ هذا الكتاب لأنها تناسبه، وحذفناها من كتاب (في محضر الأستاذ).

(٢) رَحِمَ الله امرءاً عرف قدره، وعلم من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

ليست لنا بالله من صلة مباشرة، فلا نحن نكلّمه، ولا نحن نتلقّىٰ منه إجابة[1].

الزيارات التي نزور بها الأئمة الأطهار عليهم السلام . . نؤدّيها في طرفة عين! ومهما سلّمنا عليهم سلاماً . . لم نظفر بجواب السلام! بل إنّنا لا نتوقع جواباً!

نحن لا معرفة لنا بإمام الزمان عليه السلام الذي جعله الله (تعالىٰ) في بدنٍ ظاهر، لنتمكن من الكلام معه، ونأنس به، فهو حجّة الله وواسطة ما بيننا وبين الله. بل إنّ عدّة منا يكذّبون حتىٰ قضيّة اللقاء به عليه السلام[2].

صارت الصلاة لنا عادة، فلا هي تقرّبنا إلىٰ الله، ولا نحن نعلم ما معنىٰ القرب من الله (تبارك وتعالىٰ)[3].

لا تعرج بنا صلاتنا، ولا نعرف معنىٰ العروج والصعود إلىٰ الأعلىٰ[4].

لا هي تنهانا عن الفحشاء والمنكر، ولا نحن ندرك معنىٰ أنّ الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر[5].

ما رأينا الملائكة، ولا عرفنا علّة خلقهم. . مع أنهم خدم لمحبّي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[6].

ما وجدنا أُنساً بالجنّ، وما لنا من إيمان كامل بوجودهم[7].

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٨. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

(٢) شرحنا هذه المسألة علىٰ نحوٍ وافٍ في كتاب «المصلح الغيبيّ» وكتاب «اللقاء بإمام الزمان» عليه السلام.

(٣) «الصلاة قربان كلّ تقيّ» بحار الأنوار ١٠: ٩٩.

(٤) «الصلاة معراج المؤمن» عين الحياة: ٢٠١.

(٥) ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٦) قال الرضا عليه السلام: «إنّ الملائكة لَخدّامنا وخدّام محبّينا» (عيون أخبار الرضا عليه السلام الباب ٢٦/ الحديث ٢٢).

(٧) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

سمعنا باسم الشيطان، ولكننا ما فكّرنا أبداً أنْ كيف يقدر أن يخدع بني آدم في لحظة؟[1].

وأهمّ من هذا كلّه. . أننا ما عرفنا أرواحنا، ولا استبانت لنا أسرار النوم والموت. وبعبارة واحدة: نحن قابعون وراء حجاب الماديّة، ولا علم لنا بشيء![2]

تلك الليلة. . أخذني فكر عميق في هذه المسائل: لم نحن كذلك؟!

كانت ليلة عسيرة بالقياس إليّ. . اشتمل عليّ فيها موج من الأفكار والتساؤلات المصيريّة عدّة دقائق. ولو كانت قد طالت لعصفت بي ولوجدتني أخرج إلى البريّة صارخاً، ولبقيت في البؤس والخسران[3].

بَيد أني عُذت في وقتها إلىٰ نفسي. وفكّرت: أنّي أؤمن بالله. وكنت أقمت لتلاميذي عشرات الأدلّة علىٰ إثبات وجوده. وقد كنت بلغت درجة من العلم عن طريق الأدلّة والبراهين. وانّي لأحبّ الله، أحبّه أكثر من أي أحد. إنه طالما عاملني بصفته «الرحمٰن» كما عاملني بصفته «الرحيم»، وأنا دائم التقلّب في ألطافه ونعمائه[4].

وإذَنْ. . فلَم لا أطلب منه أن يكشف عن قلبي الحجب المعنويّة؟

ألم يقلّ (جلّ وعلا):

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[5].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤١.

(٢) قال علي عليه السلام: «هلك امرؤ لم يعرف قدره» نهج البلاغة: ٤٩١.

(٣) سورة العصر.

(٤) تنظر الروايات في تفسير «بسم الله الرحمٰن الرحيم». تفسير البرهان ١: ٤٠.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

أوليس هو القائل:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

جلست بين يَدَيْه، والحبّ غالب في القلب. وإذ كنت جالساً مستقبلاً القبلة، مقبلاً عليه (تعالىٰ شأنه). غفلت فجأة عن كلّ ما هو مادّيّ، وتوجهت إليه وحده، فوجدتني بكلّ وجودي أمام الله، حتىٰ ذُهِلت عن نفسي.

ما حضرني عندها من الأذكار التي أحفظها إلاّ اليونسيّة ـ أي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

ورحت أردّد هذه العبارة، متدبّراً في معناها. وربما كنت قد كرّرتها وأنا ساجد أكثر من مئة مرّة. . حتىٰ حقّق الهيّ الوفيّ، الهي الحبيب، إلهي العزيز. . وعده الذي ذكره في آخر هذه الآية حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ـ يعني: كما أنجينا يونس من الغم لمّا قال هذه العبارة. . فكذلك ننجي المؤمنين من الغم.

وهكذا وفىٰ لي إلهي، فأنجاني ـ كما أنجىٰ يونس ـ من جميع الحجب الظلمانيّة، ومن جميع العذابات، وفتح لي عين قلبي وأذني ولساني. . وشرح لي صدري. الحمد لله، وشكراً لله، و«إلٰهي. . كيف أشكرك وشكري منك نعمة أخرىٰ تقتضي شكرا»[4].

عندها أحسست كأنّي مثل من أفاق من سبات عميق، وتنبّه إلىٰ ما فرّط

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء ، الآية: ٨٨.

(٤) إن الله (تبارك وتعالىٰ) أوحىٰ إلىٰ داود: اشكرني حقّ شكري. قال: يا ربّ. . كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نعمك؟! (جامع السعادات ٣: ٢٤٢).

فيه، وما لحقه من خُسْر. فقرّرت من فوري أن أتدارك ما فات، لكني لا أدري كيف.

قال:

بعد هذه الجلسة غدا في وسعي أن أرىٰ ربّي الرحمٰن الرحيم بعين قلبي، فأكلّمه وأناجيه، وأن أرتبط به، فأسمع كلامه. وما زلت كذلك في حالة وصال فلا أخلو من ألطافه غير المتناهية. ولِم لا يكون كذلك؟

أولم يكن قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[1]. وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2]؟

أوليس هو القائل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]؟

والقائل: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[4].

والقائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[5].

واذَنْ.. فلم يكون مع كلّ شيء، ثمّ لا يكون معي؟!

أيكون علىٰ كل شيء قديراً، ولا يكون قادراً علىٰ إسداء ما أسدىٰ إليّ؟!

أيمكن أن يكلّم كلّ نفس فيلهمها فجورها وتقواها.. ولا يكلّمني ولا يلهمني شيئاً؟!

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة فصّلت، الآية: ٥٤.

(٥) سورة الشمس، الآيتان: ٧ ـ ٨.

قال:

في ليلة من ليالي أول سنّ البلوغ ـ ولم أكن قد تعرّفت علىٰ شيء من الحقائق والمعنويات وأسرار الخليقة ـ صلّيت صلاة الليل، طبق ما أوصاني به أحد العلماء الأجلاء. وفي السجدة الأخيرة.. غَلَبَني النوم، فسمعت هاتفاً يتلو عليّ هذه السورة من القرآن:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1].

وعند هذه الآية هَبَبْتُ من النوم.. وظللت أتسمّع إلىٰ الآية الأخيرة وهي تتلىٰ في اليقظة عدّة مرّات:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾..

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾..

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾..

ثم أخذ الصوت يعلو ويرتفع، حتىٰ كاد من فرط علوّه وشدّته أن يمزّق طبلة أذني، فصرخت وقد تملّكني الخوف.. ووقعت علىٰ الأرض في إغماء.

في حينها انكشف لي معنىٰ هذه الرؤيا أنْ: لماذا لا تُصْغون ـ يا مَنْ أسلموا ـ إلىٰ كلام الله.. خالقكم الذي آتاكم كلّ شيء، وما حَدَث أن كذب

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١ ـ ٩.

عليكم ولا كان في قوله من المبالغة شيء؟!

ألم تَرَوا. . كيف يُقسِم بإلحاح وتوكيد أن يجعل الفلاح والسعادة من نصيب الذين يزكّون أنفسهم؟!

ألا تكفيك كلّ هذه الأقسام والتوكيدات بكلّ ما هو مقدّس لديه. . لأن تستفيق من نوم الغفلة وتستيقظ؟!

﴿وَالشَّمْسِ﴾: (قَسَم برسول الله محمّد بن عبد الله ﷺ)[1]

﴿وَضُحَاهَا﴾ ـ أي: ضُحىٰ الشمس: (قَسم بنفس محمّد ﷺ).

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾: (قَسم بنفس عليّ عليه السلام في مقام كونه، كما يقول هو عليه السلام، عبداً من عبيد محمّد ﷺ)[2].

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾: (قسم بنفس الحسن والحسين عليهما السلام في مقام إضاءتهما العالم بذريّتهما الطيّبة وكَلمهم الحقّ)[3].

ثمّ القسم بالليلِ إذا يَغشىٰ، والقسم بالسماء، وبمن بنىٰ هذه القبّة العظيمة الرائعة، والقسم بالأرض وبمن مَدّها وبَسَطها. والقسم بالنفس الإنسانيّة، وبمن خلقها سويّةً معتدلة، وألهمها الفجور والتقوىٰ ودلّها عليهما. . إنّ مَن زكّاها وطيّبها لمفلح، وانّ من دنّسها ودسّاها لخائب خاسر.

---

(١) عن أبي محمد عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله (عزّ وجلّ): ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾. قال: «الشمس رسول الله ﷺ. . به أوضح الله (عزّ وجلّ) للناس دينهم». تفسير البرهان ٤: ٤٦٧/ الحديث رقم (١).

(٢) عن أبي محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله (عزّ وجلّ): ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾. قال: «ذاك أمير المؤمنين عليه السلام». تفسير البرهان ٤: ٤٦٧/ الحديث رقم (١) أيضاً.

(٣) عن أبي بصير، في قول الله (عزّ وجلّ): ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾: الحسن والحسين عليهما السلام يُنظر تفسير البرهان ٤: ٤٦٧/ الحديث(٢).

ترىٰ: ألا تكفي هذه السورة المباركة لتجعلك تهبّ من نوم الغافلين؟!

ألا يكفي هذا التأكيد بلفظة «قَدْ» في آية سورة (الأعلىٰ) حين قال الله (عزّ وجلّ): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ . . ألا يكفي هذا التأكيد لتصحو من نومك الثقيل؟!

قال:

علّمني أستاذي طريقة «التجرّد» أو التجرّد الروحيّ». وفي ليلة شرعت في تنفيذ مقدّمات التجرّد، وأنا مُسْتلقٍ علىٰ الفراش. . أحسست ـ وما تزال عيناي مفتوحتين ـ بخفّة في قَدَمَيّ، وثُقْل فجأة رأسي وصدري ثقلاً عجيباً. ثم شاهدت روحي تخرج من أقدامي وتنفصل عن البدن، أي ما يزال جسمي علىٰ الأرض، ولكنّ روحي التي كان لها شكل جسمي نفسه بدأت تخرج إلىٰ حدّ الخاصرة، وبقي منها ما كان عند رأسي وصدري. ولمّا شاهدت هذا المشهد أصابني كثير من الخوف، فهززت بدني وقمت من مكاني واقفاً، وعادت روحي إلى البدن.

هذه الحادثة ـ أو قل: نصف التجرّد ـ أبانت لي عن أمور، إذ رأيت الروح ـ علىٰ عكس حالة البدن ـ بخاراً شفّافاً له إحساس، ويتنبّه لكلّ شيء.

ثم انّي عمدت إلىٰ تكرار هذه التجربة متسلّحاً بمزيد من الشجاعة، فأدركت قضايا أخرىٰ عن الروح. كانت روحي ـ إذ عاينتها في حالة التجرّد ـ بيضاء شديدة الشفّافيّة. . في حين ما كان جسدي غير لحم وجلد وعَظْم ودم. . وفي رفقته الروح النباتيّة علىٰ نحو مؤقت. كان بدني على الفراش أسود ثقيلاً. . تماماً كحالة النوم[1].

---

(١) تشير أحاديث وردت في كتب معتبرة إلىٰ جسمانيّة الروح، منها قول الإمام الصادق عليه السلام: «الروح لا توصف بثقل ولا خفّة، وهي جسم رقيق أُلبس قالباً كثيفاً» بحار الأنوار ٦١ : ٧.

إنّ تجرّد الروح في الواقع هو هذا النوم، لكنّه يفترق عن النوم العاديّ. . في أن المرء يدرك ـ لدىٰ التجرّد ـ متىٰ تبدأ الروح بالانفصال، وأنّ انفصالها وعودتها إلىٰ البدن يكون طوع اختياره، وأنّه لا ينسىٰ بسرعة ما يراه في هذه الحالة وما يدركه. . كما لو كانت روحه في بدنه.

إنّ للروح من الخصائص ولديها من المعلومات شيئاً متميّزاً. . ما كنت أعرف في ذلكم الوقت مصدرها. وهي تنطوي مع ذلك علىٰ صفات ورغبات هابطة. . علمت، بقليل من التأمّل، أنها قد لحقت بها من خلطتها للبدن، ومن عَيْشها السابق في عالم «الذرّ»، ثمّ في عالم الدنيا. وإذا ما شاءت أن تحلّق بسهولة ويسر تلقاء الكمالات فإن عليها التخلّي عن هذه الصفات الدانية المرذولة، بأنْ تتزكىٰ وتتطهّر وتصفو. وإلاّ فإنّ هذه الدنايا الهابطة ستجرّها إلىٰ الدنيا وتجذبها إلىٰ ظلمات عالم المادّة.

وقد كان هذا هو السبب الذي جعل روحي ـ في لحظة التجرّد هذه ـ تعود إلىٰ جسدي بعد قليل. إنّ الروح غير المزكّاة سرعان ما رجعت إلىٰ موضعها ولم تنفصل سوىٰ لحظات.

قال:

بعد حادثة التجرّد الروحي هذه. . كان دَيْدَني أن أفرّغ نصف ساعة من وقتي قبل النوم أتحدّث فيها مع الأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) بمنتهىٰ العفويّة والبساطة. أسلّم عليهم وأتكلّم معهم، متودّداً إليهم واحداً واحداً. في البداية أتوجّه إلى رسول الله ﷺ، فأقوم واقفاً أمامه كما لو كنت في عصره أتقدّم إليه بالاحترام والتعظيم. . ذلك أني أعلم أنّ روحه المقدّسة وكذا أرواح الأئمة الطاهرين عليهم السلام تحيط بي علماً. أقول في خطابه (صلوات الله عليه وعلىٰ آله): السلام عليكم. ثمّ أنحني (كمن يقبّل يد النبيّ). . ثمّ أناجيه متودّداً إليه، عارضاً حاجتي عليه.

وأصنع مثل هذا إزاء الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) وكذا الأئمة الهداة عليهم السلام واحداً بعد واحد.. حتىٰ أصل إلىٰ الوجود المقدس لروح عالم الإمكان الإمام بقيّة الله (أرواحنا لتراب مقدَمه الفداء). ثم انّي أتوجّه إليه (سلام الله عليه) بمزيد من التوقير والإجلال ـ لإيقاني أنّه يحيىٰ في هذه الدنيا بجسده الظاهريّ ـ فأراعي في مقابله الأدب الباطن والأدب الظاهر. أيْ أنّي أقوم واقفاً إذا كنت في حالة جلوس. وإذا كنت واقفاً فإنّي أتقدّم إليه بأدب جمّ، كأنْ أضع يدي علىٰ رأسي قائلاً: السلام عليكم.. فداك روحي وأبي وأمّي ومالي وكل ما لديّ. وكأن أرتمي أحياناً علىٰ الأرض، وأنا أتصوّر أنّي أقبّل أقدام الإمام عليه السلام طالباً منه حاجاتي، ملتمساً من محضره المقدّس ما يعنيني من الأمور. ثمّ إنّي لا أدع مناجاتي معه ما لم أَفُز بالجواب، ويُلْهَم قلبي أنّ الإمام عليه السلام قد ردّ تحيّتي وسلامي.

تلكم الليلة.. قمت بهذا العمل. وإذ أنّي كنت قد أدركت خلال تلكم الأيّام أنّ روحي ملوّثة بالرذائل البهيميّة.. فقد تعذّبت كثيراً، وبكيت كثيراً.. التمس من إمامي الحبيب ـ فداه روح العالم ـ أن يهديني لأزكّي نفسي، ويعينني لتخليصها من لوثة الرذائل والأسواء.

قلت له: مولاي.. إنّ الله (تعالىٰ) قد قال ـ في القرآن ـ علىٰ ألسنتنا نحن العصاة:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾(١).

مَنَ أنا؟! ما أنا.. لكي أتمكّن بنفسي.. بقدرتي أن أنقذ نفسي من الأدناس؟!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

أُقسم عليك بحقّ عصمة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) وبعظمتها أن تأخذ بيدي للفلاح.

وإذ أنا كذلك.. وجدت ـ علىٰ حين غرّة ـ أنّ كلّ شيء من حولي قد أُضيء وتنوّر. حتىٰ في أعماق وجودي أحسست نوراً يسطع. رأيت كلّ شيء كما لو أنّ زجاجة يسطع من ورائها نور الشمس. نور لا يعشي البصر. نور لا يمكن قياسه بالأنوار الماديّة. نور سابغ قد كسا كلّ شيء. نور ما فيه من حرارة تصدم المرء. إنّه ـ بكلمة ـ نور مقدّس لا يخفىٰ عليه علم ولا معرفة ولا أيّ شيء.

خاطبته قائلاً: أيّها النور القدسيّ! من أنت.. وما أنت؟ أتُرىٰ يمكن أن تصيّرني شفّافاً مثلك؟ وأن تطهّرني من الأدناس والظلمات والحُجب والصفات الحيوانية المرذولة؟

وجاءني الجواب (لا يذهبنّ بأحدٍ الظنّ أنّه أجابني بإيجاد صوت في الهواء حتىٰ بلغ أذني، ذلك أنّ الموجات الصّوتيّة المنتقلة عبر الهواء هي من مظاهر العالم الماديّ. إنّما حدّثني بلسان القلب، وسمعته أنا أيضاً بأُذن القلب).

قال:

إن الله خلقني في الدنيا لهدايتك وهداية أمثالك، أنا ملاذك. أنا عِصْمتك من البلايا وحافظك من الأدناس[1].

وعليك قبل هذا أن تكون عارفاً بي. ثم عليك أن تعرف نفسك.. لكي تقدر أن تزكّي نفسك بطريق صحيح سريع. ولن توفّق إذا لم تتخذني

---

(١) ـ ورَدَ في (دعاء النُّدبة): «أين السبب المتّصل بين الأرض والسماء؟... خَلَقْتَهُ لنا عِصْمةً ومَلاذاً».

معلّمك، ولم تقطع المراحل كما أعيّنها لك.

إلىٰ هنا ختم النور المقدّس كلامه. والحقيقة أنّي قد بدأت عندها أفقد التركيز. وأنكىٰ من هذا أنّي ـ بما أنطوي عليه من الأدناس ـ لم أكن قادراً علىٰ أن أمضي بعيداً في هذا الأفق المعنويّ.. واختُتم الموضوع.

وانكم لتعلمون أني قد صحوت بعدئذ من نوم غفلتي.. فلم يقرّ لي لحظة قرار. كنت متواصل البكاء. تحدوني رغبة للخلاص من الدَّنَس بأيّ نحوٍ من الأنحاء. ولعلكم لو كنتم في مكاني، أو لو أصغيتم إلىٰ ما قلتُ بمزيد من الاهتمام لدخلتم أيضاً في حالة من الحنين، ولذرفتم ـ كما فعلت ـ سخيّ الدموع.

ولمَ لا يكون كذلك؟! ألا تراكم تصدّقون آيات القرآن المجيد وما يدلّ عليه العقل المعافىٰ السليم؟!

أترىٰ أنّ علىٰ الإنسان أن يظلّ دائماً حبيساً في داخل بئر الطبيعة والماديّة والبهيميّة؟!

أينبغي للإنسان أن يظل نائماً في سكرته حتىٰ ينتهي نومه بالموت؟!

أليس الله (تبارك وتعالىٰ) قد كوّنَ الإنسان وخلقه له، لمناجاته، وليرتبط به ويعود باطنيّاً إليه؟!

ألم يصرّح قرآن الله (عزّ وجلّ) أنّه قد خلقه للعبادة؟![1].

فَلِمَ إذَنْ.. كلّ هذه الغفلة؟!

لماذا كلّ هذا الإعراض منّا عن تزكية الروح وتصفية النفس؟!

عسىٰ الله (جلّ ذكره) أن يمنّ علينا بلطفه، فنفيق من رقدة الغافلين.

---

(١) ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

قال: سلختُ أيّاماً. . أبكي وأتقلّىٰ: لا أدري أيّ سبيل أسلك، وأيّ شيء أصنع. حتىٰ كانت ليلة رفعتُ فيها طرفاً من فَرْش غرفتي، ووضعت وجهي علىٰ تراب الأرض، أنوح وأبكي. . ملتمساً العفو عن ذنوبي وآثامي، مكرّراً عبارات الاستغفار. بكيت حتّىٰ نقعت الأرض تحت وجهي بفيض الدموع.

أحسستُ عندها أنّي إنسان مطروح في صحراء، مغلول بالسلاسل والقيود، لا أستطيع القيام، ولم أدْرِ كيف تذكرتُ فجأةً عبارة من دعاء كميل، يقول فيها مولاي: «وقَعَدتْ بي أغلالي».

عندها اشتدّ بي الحزن والأسىٰ. . فما كان منّي إلاّ أن أطلقت صرخة «يا صاحب الزمان» ـ ردّدتُها مرّات. ومرّات لحظات معدودة. . فأحسست بَعْدها أنّ ذلكم الوجود القدسيّ إلىٰ جواري. ما بالي كنت أعمى عنه، فلم ألحظه إلاّ الآن؟!

وقلتُ: حبيبي سأبلغُ يوماً جمالَ وصالِكَ. . يا مُلْهِمُ
فقال: أنظُرَنْ جيّداً؛ فَلَعَلّـ ـكَ «واصلٌ» من حيث لا تعلمُ!

* * *

وأقربُ منّي حبيبي إليَّ والاعْجَبُ أنّيَ عنهُ بَعيدْ!

وأخيراً. .

«أنتَ نفسُك حجابُ نفسِك. . فانْتَفِضْ يا حافظ»[1].

قلت: يا سيّدي. . يا مولاي. . يا مَنْ كلّ العالمين فداء للتراب الذي يَطَؤه نَعْلاك. ما ضرَّ لو أسعفتَني؟! خَلِّصْني ـ في الأقلّ ـ من هذه السلاسل والقيود؛ فإنّي لا أستطيع، والحالة هذه، أن أخطو ولا أدنىٰ خطوة تلقاء

(١) هذا شطر من بيت للشاعر العارف حافظ الشيرازيّ (رحمة الله عليه). ـ (المترجم).

المعنويّات والكمالات.

وفي لحظة تفطّنت إلىٰ أنه قد أصدر إليّ أمراً بأن أدعو بدعاء: «يا مَنْ تُحَلّ به عُقَدُ المكاره»[1].

أمّا أنا.. فقد اعتدلت جالساً من لحظتي، وشرعت أناجي الله (تعالىٰ) بهذا الدعاء. والتزمت أن أردّد في وقت زوال الشمس (وقت الظهيرة) الإسم «القُدُّوس»[2] مئة وسبعين مرّة.. حتىٰ أفلحت في التحرّر من عذاب القيود والأغلال.

وَرَد عن الإمام الرّضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ ذَكَر (القُدّوس) مئة وسبعين مرّة كلّ يوم، عند الزوال.. صَفا قلبه، وكان في حفظ من شرّ النفس ووسوسة الشيطان». عن كتاب بحر الغرائب.

---

(١) هذا الدعاء العظيم هو الدعاء الثامن من أدعية الصحيفة السجّادية المقدّسة، وَورد أيضاً في كتاب مفاتيح الجنان. وقد أعرضنا هنا عن إيراد نصّ هذه المناجاة الشريفة؛ لكثرة النسخ المتداولة من الصحيفة ومن مفاتيح الجنان.

(٢) قال الشيخ إبراهيم الكَفْعَميّ العامليّ (كتاب المصباح ٣١٨) في شرح (القُدّوس) من الأسماء الحسنىٰ: هو الطاهر من العيوب، المُنَزّه عن الأضداد والأنداد والتقديس والتطهير. ومنه قوله (تعالىٰ) عن الملائكة: «ونُقَدِّسُ لَك» ـ أي نَنْسبك إلىٰ الطهارة. وسُمّي (بَيْت المَقْدِس) بذلك؛ لأنّه المكان الذي يُتَطهّر (فيه) من الذنوب. وقيل للجنّة: (حظيرة القدس)؛ لأنّها موضع الطهارة من الأدناس والآفات التي تكون في الدنيا. ـ (المترجم).

الفصل الثاني

الأستاذ

- أستاذ. . لتزكية النّفْس
- موسىٰ والخَضِر عليهما السلام
- علىٰ الإنسان أن يُحَدّد هدفه
- أردتُ تناول جميع الأدويّة. . مرّةً واحدة!
- ليس الشأن بكثرة العبادة
- خطوة خطوة. . حتّىٰ بلوغ الكمال
- كلمة موعظة. . من إمام المسجد
- أكُلّ ما يقوله المرشد صحيح؟

أستاذ.. لتزكية النفس

تخال طائفة من الناس أن من الممكن عبور الطريق الخطير في السَّيْر إلىٰ الله بدون هادٍ ودليل. وإنّ هذا لَخطلٌ من القول! ذلك أن تعلّم أيسر الأعمال المادّية في الدنيا لا يتأتىٰ بغير الاستناد إلىٰ معلّم.. فكيف يصحّ إذَنْ أن يتعرف المرء علىٰ أكثر الأعمال استغلاقاً ـ وهو أن يتحوّل إلىٰ «إنسان كامل» ـ بدون أستاذ يدلّه ويرشده؟!

يقول حافظ الشيرازي (عليه الرحمة) في هذا المعنىٰ (ما ترجَمَته):

لا تَـعْـبُـرَنْ وحْـدَكَ هـذه الـطّـريـ ـقَ، دونَ أن تُـرافِـقَ الـخَـضِـرْ[١]

فـإنّ فـيـهـا ظُـلُـمـاتٍ صَـعْـبـةً أخـاف مـن ضـيـاعِـكَ الـخَـطِـرْ!

ويقول أيضاً (ما ترجمته):

مـا بـلـغ «الـراعـي» مُـراداً لـه لَـمّـا دنـا مـن أيْـمَـن الـوادي[٢]

إلاّ إذا وافـىٰ شُـعَـيْـبـاً، وقـد أخْـدَمَـه الـرّوحَ لـمـيـعـادِ

---

(١) الخَضِر: العبد الصالح الذي آتاه الله من لَدُنه عِلماً.. كما في القرآن الكريم. ويقال إنه سُمّي «الخِضْر» أو «الخَضِر» لأنه ما جلس في مكان إلاّ اخضرّ واعشوشَب. ـ (المترجم).

(٢) الراعي: النبي موسىٰ عليه السلام الذي كان يرعىٰ أغنامه لمّا دنا من «الوادي الأيمن في البقعة المباركة»، حيث نودي من الشجرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ـ (المترجم).

ولهذا رأيت أن أسرد بعض تجارب السالكين إلىٰ الله، الذين وصلوا إلى مراشِدهم برفقة أستاذ يدلّهم. . في إزاء أولئك الذين اندفعوا للسير من تلقاء أنفسهم علىٰ غير هدى، أو الذين أرادوا المسير بصحبة قُطّاع الطرق من أدعياء الإرشاد ومن مُضِلّي عباد الله عن طريق الله. أسرد لك تجارب السالكين هذه. . لتزداد الحقيقة وضوحاً لديك.

موسى والخضر عليهما السلام

روىٰ هذه الحادثة أحد الأولياء، وكان قد تربّىٰ علىٰ يديه عدد كبير من التلاميذ حتىٰ صار مربّياً معروفاً. قال:[1]

أحد التلاميذ كان علىٰ درجة متميّزة من الاستعداد، وكنت أوّد أن يمضي تلقاء الكمالات الروحيّة علىٰ نحو أفضل وأسرع. لكنه كان ـ في أول أمره ـ علىٰ شيء من التأبّي والمشاكسة، ولم يكن يريد أن يذعن لكلّ ما يُلْقىٰ إليه. قال لي يوماً: أيكون من الضروري للمرء ـ في سيره إلى الله وتحصيل المقامات الروحيّة ـ أن يعتمد على أستاذ.. أمْ يكفيه استناده إلىٰ عقله وتفكيره؟

قلت له: إنّ أيّ عمل ـ حتىٰ لو كان دون هذا ـ لا بدّ فيه من أستاذ. فكيف إذَنْ بعمل صعب هو معالجة «إنسانيّة» الإنسان. وقديماً قالوا: «هيّن أن يغدو المرء مُعَمَّماً.. لكن ما أصعب أن يغدو إنساناً»!

إنّه ليس في وسع المرء أن يطوي طريقاً محفوفاً بالمخاطر بغير مرشد

---

(١) اقْتُبس هذا الموضوع من كتاب (في محضر الأستاذ) الطبعة الرابعة، ولن يعاد دَرْجه في الطبعات القادمة من الكتاب.

يرشده وكيف يمكنه أن يبلغ نضجه الروحي ـ الذي هو من أعقد الأعمال وأدقّ المسائل العلميّة ـ بدون أستاذ يدلّه على الحقيقة؟

ثمّ إنّي حكيت له واقعة موسى والخضر عليهما السلام، وقلت له:

كان نبيّ الله موسى عليه السلام من أولي العزم، بيد أنّه كان في حاجة إلى المزيد من الرّشد المعنويّ. ذلك أنّ موسى لمّا كلّمه الله تكليماً، وأنزل الله عليه الألواح.. رجع إلى بني اسرائيل، فصعد المنبر، فأخبرهم أنّ الله قد أنزل عليه التوراة وكلّمه. عندها قال في نفسه: ما خَلَق الله خَلْقاً أعلم منّي! فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرِك موسى؛ فقد هلك (بالعُجْب)، وأعْلِمْه أن لدى ملتقى البحرين ـ عند الصّخرة ـ رجلاً أعلم منك.. فَصِرْ إليه، وتعلّم من علمه.

ونزل جبرئيل على موسى عليه السلام وأخبره. فَذلّ موسى في نفسه وعلم أنّه أخطأ، ودخله الرعب. وقال لوصيّه يوشع: إنّ الله قد أمرني أن أتّبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلّم منه. فتزوّد يوشع حوتاً (أي سمكة) مملوحاً.. وخرجا.

فلمّا خرجا وبلغا ذلك المكان.. وجدا رجلاً مستلقياً على قفاه، فلم يعرفاه. فأخرج وصيُّ موسى الحوتَ وغَسَله بالماء، ووضعه على الصخرة.. ومَضَيا، وَنَسِيا الحوت. وكان ذلك الماء ماء الحَيوان (أي: ماء الحياة)، فَحَيِيَ الحوت.. ودخل في الماء.

ومضى موسى ويوشع معه.. حتى عَييا. فقال لوصيّه: «آتِنا غَداءنا؛ لقد لَقِينا من سَفَرِنا هذا نَصَباً» ـ أي عَناء. فذكر وصيُّه السمكة، فقال لموسى: إني نَسِيتُ الحوت على الصخرة. فقال موسى: ذلك الرجل الذي رأيناه عند الصخرة هو مَن نريد. فرجعا على آثارهما قَصَصا إلى الرجل ـ وهو في الصلاة. فقعد موسى.. حتى فرغ الرجل من الصلاة، فسلم عليهما.

لقد وَجَدا عبداً من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده، وعلّمه مِنْ لَدُنْه عِلْما.

وسأل هذا العبدُ موسىٰ عليه السلام: مَنْ أنت؟

قال: أنا موسىٰ بن عمران.

فقال له: أنت موسىٰ بن عمران الذي كلّمه الله تكليماً؟

قال موسىٰ: نعم.

قال له: فما حاجتك؟

قال له موسىٰ: جئتك لتعلّمني ممّا عُلّمْتَ رُشْدا.

قال: إنّي وُكِّلْتُ بأمرٍ لا تطيقه ولا تصبر عليه.. فكيف تصبر علىٰ أمرٍ لم تُحِطْ به خُبْرا؟!

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمرا.

فقال الخَضِر: فإنِ ٱتبعتَني فلا تسألني عن شيء حتىٰ أُحْدِثَ لك منه ذِكْرا.

وهكذا انطلقا ـ بهذا الشرط ـ يمشيان معاً؛ فإنّه صحب موسىٰ معه علىٰ الصبر والطاعة (ومن يصبر من التلاميذ ويطع يكن أكثر تأهلاً للتعلّم من الاستاذ، وأسرع نموّاً ورشداً).

وما يزالان يسيران.. حتىٰ انتهيا إلىٰ ساحل البحر وركبا سفينة هناك. وموسىٰ في خلال هذا كلّه ينصت لأستاذه ويستمع إليه. حتىٰ إذا جَنَحت السفينة عَمَد الخضر إلىٰ السفينة ـ بقصد أن يَعيبها ـ فخرق فيها خُروقاً. عندئذ قال له موسىٰ: أَخَرَقْتَها لتغرق أهلها؟! لقد جئتَ شيئاً إمْراً، أي مُنْكراً!

قال له الخضر: أَلَمْ أَقُل إنك لن تستطيع معي صَبْرا؟!

قال موسىٰ: لا تؤاخِذْني بما نَسِيت، ولا تُرْهِقْني من أمري عُسْرا.

ولمّا نزلا من السفينة إلى البرّ انطلقا يمشيان.. حتىٰ لَقِيا غُلاماً. عندها قام الاستاذ فأمسك بالغلام وجَلَد به الأرض حتىٰ قتله. فوثب موسىٰ إلىٰ الخضر وقال له: أقتلتَ نفساً زكيّة بغير نَفْس؟! لقد جئتَ شيئاً نُكرا!

فقال له الخضر: ألم أقُل لك إنّك لن تستطيع معي صَبْرا؟!

قال موسىٰ: لئن سألتك عن شيء بعدها فلا تُصاحِبْني؛ قد بلغتَ مِنْ لَدُنّي عُذْرا.

وانطلقا مرّة أخرىٰ.. حتىٰ وصلا إلىٰ قرية تسمّىٰ «الناصرة» لا يُضيّف أهلُها أحداً ولم يُطعموا غريباً قطّ.. فاستطعماهم فلم يطعموهما وأبَوا أن يضيّفوهما. فوقع نظرهما ـ وهما في تلك الحالة من الجوع والتعب ـ علىٰ جدار يوشك علىٰ السقوط. فوضع الخضر يده علىٰ الجدار وقال: قُمْ بإذن الله.. فقام.

فقال موسى عليه السلام: لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجْرا!

قال الخضر عليه السلام: هذا فراقُ بيني وبينك. سأنبّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صَبْرا.

بعد هذا شرع الخضر عليه السلام يشرح للنبيّ موسىٰ دوافع ما قام به من أعمال كانت قد بدت لرفيقه مستغرَبة منكَرة. ولا نجد نحن ضرورة لإيراد هذا الشرح هنا، إذ ذكره القرآن الكريم وكشف اللثام عنه. ولكنْ لا بدّ أن يُصار إلىٰ التركيز علىٰ أمور:

الأوّل: يتعيّن علىٰ المرء أن يجد له ـ بهداية من الله ـ أستاذاً صالحاً يرشده إلىٰ الحقّ. ذلك أنّ كثيراً من النصّابين وقاطعي الطرق يعترضون السبيل، فيؤدّي اتّباعهم إلىٰ الضلال والهلاك. وأمثال هؤلاء الأدلاء الكاذبين

قد يستخدمون كافة الوسائل لاغفال الناس وإضلالهم.

لقد اصطفىٰ الله (تعالىٰ) لتبليغ أحكام دينه والارشاد إلى المعارف والحقائق الدينيّة والكمالات الروحيّة طائفة من أطهر عبيده، فكانوا أنبياء وأوصياء جعلهم لدلالة خلقه.

وفي المقابل.. جعل الشيطان أسوأ أتباعه وأكثرهم رجساً ليضلّوا الناس وينحرفوا بهم عن قصد السبيل.. بأيّ عنوان ظهروا، وبأيّ لباس تلبّسوا.

وكما يوحي الله (جلّ جلاله) إلىٰ صفوة خلقه ويكلّمهم بالوحي.. فإنّ الشياطين يوحون أيضاً إلىٰ أوليائهم لِيردوهم ولِيَلْبِسوا عليهم ما يلبسون.

وإذا كان لأحد من أولياء الله أن يرتبط بالأرواح البرزخيّة الطيّبة.. فإنّ الأرواح الشيطانيّة الخبيثة تسعىٰ للتدخل ـ بما تستطيع ـ فتشغل الناس وتلهيهم بأعمال غريبة مدهشة.

وخلاصتها.. أنّ الله (تعالىٰ) ما دام يكلّم عباده بوسيلة الإلهام، فإنّ الشيطان دائم في وسوسته التي لها شَبَه ما بهذا الإلهام.

وإذا كانت ثمة رؤىٰ ومنامات رحمانيّة فإنّ بإزائها أحلاماً شيطانيّة تزيد عليها بين الناس في العَدَد.

وهذا ينطلق بنا إلىٰ القول إنّه نظير ما وجّه الله (تبارك وتعالىٰ) نبيّه موسىٰ عليه السلام ليتعلّم من محضر أستاذه، فتعهّد له بهذا الإرشاد وهذه الدلالة الخاصّة.. فعلىٰ السالك إلى الله ـ ليتسنّىٰ له في الأقلّ أن يقف يوم القيامة أمام محكمة العدل الإلهيّ ومعه حجّة مقبولة ـ أن يكون له أستاذ وجّهه الله (عزّ وجلّ) إليه، ليدلّه ويعرّفه مسلك الطريق.

وربما استبق القارىء إلىٰ القول: كيف يتأتّىٰ للمرء أن يطمئنّ إلىٰ أنّ الله (تعالىٰ) هو الذي عيّن له أستاذه؟

والجواب عن هذا أقول: من خلال تجربتي الشخصيّة وجدت أساتذة لي بطريقة أرويها الآن، وأنتم قادرون أيضاً أن تفوزوا بأساتذة عن هذا الطريق.

في أوائل سنّ الشباب كانت همّتي منصرفة إلىٰ الارتباط بالمعارف الأصيلة وبالحقائق والكمالات الروحيّة، فتوجّهت ـ تحقيقاً لهذا الغرض ـ إلىٰ التوسّل بإمام العصر (أرواح العالمين لتراب مَقْدَمه الفداء)، ثم مضيت أبحث عن أستاذ لي. وإذا حَدَث أن التقيت بأحد في هذا السّبيل فإنّ أوّل ما أفعله أن أزن ما يصدر منه من أقوال وأعمال بميزان ما وَرِثناه من تعليمات أهل البيت الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومتىٰ وجدت في أعماله وأقواله ما يتعدّىٰ حدود الله التي بيّنها أهل البيت عليهم السلام عُدْت إلىٰ التوسّل للالتقاء بأستاذ صالح أطمئنّ إلىٰ أنّه موضع رضا الله (عزّ وجلّ)، فكنت أقول في مناجاتي: إنّه لا وسيلة لي إلىٰ اختيار أستاذ لي، فإذا حَدَث أن التبس عليّ الأمر ووقعت في محذور.. فإنّي أتضرّع إليك أن تنأىٰ بي عن هذا الالتباس وتنجيني من الوقوع في المحذور. فإذا ما وجدت بعدئذ أستاذاً ـ وفق الميزان الذي ذكرت ـ اطمأننت إلىٰ أنّه هو المطلوب، وأسلمت نفسي إليه مسترشداً بتعليماته. ومن بين الأساتذة الخمسة الذين تعلّمت علىٰ أيديهم ـ بعد أن اخترتُهم علىٰ طباق الميزان ـ لم يكن ولا واحد منهم، ولله الحمد، من الأدعياء ولا من قطّاع الطريق إلىٰ الله. وحتىٰ مَنْ كان منهم يطلب منّي شيئاً يعود نفعه في ظاهر الأمر إليه.. استبان لي فيما بعد أنّ ما يطلبه إنّما كان هدفه إصلاح شأني وإعانتي لتحصيل الارتقاء الروحيّ.

ولا تبادر هنا إلىٰ القول: إنّ هؤلاء إذا كانوا صالحين فلماذا كنت تترك الواحد منهم إلىٰ الآخر حتىٰ صار عددهم خسمة؟

وأجيبك إلىٰ القول ألاّ تتسرّع. لقد كنتُ علىٰ قدر من الوفاء لهم بحيث كنت ملازماً لكلّ منهم حتىٰ آخر لحظات حياته. ولكنّ الموت هو الذي حال بيني وبينهم.. فكنت أمضي إلىٰ أستاذ منهم، بعد وفاة سابقه، وأتّخذه مرشداً

لي.. على التوالي.

الثاني: يمكن أن يُستَشف من قصّة موسى عليه السلام هذه الفائدة:

وهي أنّ على المرء ـ في عثوره على الأستاذ الصالح ـ أن يكفّ عن مراعاة نفسه وتقدير شخصيّته الذاتيّة؛ ذلك أنّ المرء حين يَعي أنّ روحه مصابة بداءٍ ما وأنّ علاج هذا الداء لدى رجل تستقلّه العين في الظاهر.. يتحتّم عليه أن يحضر لديه بكلّ تواضع، ليتهيّأ له أن ينتفع ويستفيد. لقد كان موسى عليه السلام نبيّاً من أولي العزم، ولا يلوح في الظاهر أنّ ثمّة أحداً أرقى منه علميّاً ومعنويّاً، لكنه ـ مع هذا كلّه ـ يقول للخضر عليه السلام في غاية التطامُن والتواضع: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فيقول له الخضر دونما اكتراث: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾!

الثالث: ينبغي لمن حظيّ بأستاذ إلهيّ صالح أن يسلّم له تماماً، فلا يناقشه في أقواله وأفعاله ولا يعترض. وقد رأينا كيف التزم النبيّ موسى عليه السلام بالصبر حتّى في مقابل أفعال أستاذه التي تتّسم في ظاهرها بأنّها أفعال غير صحيحة، ولم ينطق إزاءها بحرف.

الرابع: متى حَدَث أن تفوّه التلميذ بكلمة اعتراض في حيال أستاذ من هذا العِيار.. فإنّ للأستاذ الحقّ أن يتخلّى عنه وينغلق عليه إلى الأبد.. كما قال الخضر عليه السلام لمّا رآه لا يطيق الصبر على ما كان يعلمه: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

على الإنسان أن يحدد هدفه

لمّا مَنّ الله (تبارك وتعالىٰ) عَلَيّ وصحوت من نوم الغفلة (لا يعنيني الآن أن أذكر كيف حدثت هذه الصحوة، فغايتي هنا الحديث عن مسألة أخرىٰ. . ذهبتُ إلىٰ عالِم من أصحاب المعرفة العالية، فأجلسني في قبالته، وبشّرني في البداية أنّ رأس الظفر والنجاح للسالكين إلىٰ الله هي حالة اليقظة هذه والصحوة من رقاد الغفلة، وقال لي: إنّ حصول هذه الحالة في الإنسان يشبه حالة امرىء كان قد نام عن قافلته في صحراء ملأىٰ بالأخطار، ثمّ استفاق ليجد نفسه وحيداً في هذه الفلاة. إنّ كل ما حصل عليه في هذه الحالة هو أنّه استيقظ، لكنه لا يعرف في أيّ اتجاه يسير في هذه البريّة التي لا بدّ له من الخروج منها والخلاص من مخاطرها.

بعدها أوضح لي الاستاذ مراحل السّير والسلوك، وعلّمني ما ينطوي عليه عبور طريق السعادة هذا من المعاني والأسرار. لقد عرّفني في مدة وجيزة ما لو أردت أن أجرّبه من تلقاء نفسي لأفنيت فيه عمراً، ثمّ لا أعلم أتوصلني تجربتي إلى الغاية أم لا. وكانت معاملته لي معاملة الوالد لولده، يعلّمه المشي خطوة خطوة ويدلّه بعطف ورأفة علىٰ مراشده وأهدافه.

قال لي في اليوم الأوّل: أوّل ما يفعله المستيقظ من نومة الغفلة أن يحدّد

هدفه: إلىٰ أين يتّجه؟ إلىٰ أيّ ديار يعزم علىٰ الرحيل؟ وأيّ حبيب يبتغي؟ وما هي رغباته؟ أتراه يهدف إلىٰ أن يغدو من أصحاب المكاشفة والمُشاهَدة، ومن أهل الدّعاء المستجاب والنَّفس المؤثّر؟

أيريد أن يتجمّد الماء تحت قدميه إذا مشىٰ علىٰ الماء، فيخلب من الناس ألبابَ الذين جعلوا عقولهم في عيونهم، وينبهروا به علىٰ أنّه من أولياء الله.. أم يلتمس أن يبلغ مقاماً يكون من قوة النَّفس ما يجعله مطّلعاً علىٰ قلوب الناس، ويخبرهم عن خفايا الأمور.. حتىٰ يصل إلىٰ الإحاطة بالعلوم الغريبة وأسرار العالم ورموزه؟

إنّ هذه القضايا كلها ليست هدفاً حقيقياً للإنسان الذي هو خليفة الله، والمرآة العاكسة لصفات الله (تعالىٰ) وأسمائه. وما كان الله ليخلق الإنسان من أجل أشياء من هذا القبيل.

في البَدْء.. قال (تبارك وتعالىٰ) للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. وهذه الحقائق تعني أنّ المرء متىٰ ما جعل هدفه ما أراده الله له من وراء الخِلْقة والتكوين.. فعليه أن يكون ـ إذا بلغ آخر مرحلة في الطريق ـ مرآة لتجلّي المعاني الإلهيّة.. واصلاً إلىٰ الكمالات، مستأنساً بالله، فانياً في صفات الله وأسمائه، مُضبِحاً خليفة لله ووليّاً من أوليائه. وعندها لا يشينه الحصول علىٰ قضايا مثل المكاشفة والمشاهدة وطيّ الأرض والتجرّد الروحيّ، إذا لم يعكف هو علىٰ شيء من هذه القضايا فيعيق حركته الصاعدة إلى الله (جلّ جلاله)؛ لأنّ المرء إذا كان ما يزال متلبّساً بواحدة من الصفات الحيوانيّة أو الشيطانيّة.. فإنّ امتلاكه كافّة العلوم الغريبة واكتسابه القدرة علىٰ الأعمال المدهشة العجيبة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

لا يَعْصِمه من أن يكون ذا سيرة حيوانيّة أو شيطانيّة، بسبب تلك الصفة التي تسكن في باطنه.

إنّ علىٰ المرء أن يبادر من أوّل وهلة ليكون في منأى عن الرذائل، ويلتمس التحقّق بالصفات الكماليّة.. فيغدو مَظْهراً لأسماء الله ومَجْلَى لصفاته. وعندها تصبح إرادته إرادة إلهيّة، وبصره بصراً إلهيّاً، ويده وسمعه كذلك، ويصير قلبه بيتاً للحقّ (جلّ وعلا).. فيفوز آنئذٍ بمقام «الخُلُوص»، ويحيىٰ حياة طيّبة رَخِيّة لا يشوبها أدنىٰ خوف، متقلّباً في أحضان معبوده الأزليّ ومحبوبه الحقيقيّ. ولن يُكْتب لابن آدم أن يصل إلىٰ الكمال الواقعيّ إذا كان له مقصد غير هذا المقصد العظيم.

قال لي الأستاذ هذا كلّه، منذ البداية. وبعدئذٍ ـ خاصة وأني رأيت بعضاً من الذين أرادوا طيّ طريق المخاطر كما تشتهي أنفسهم، فضلّوا وضاعوا ـ شكرتُ للأستاذ وصاياه، وقلت: لو أنّ الأستاذ لم يعاجل فيوصيني بوصاياه تلك لكان شأني شأن هؤلاء: شغوفاً بالمكاشفة حتىٰ تكون في نظري هي حبيبي ومقصودي وإلٰهي، أو أن يزدهيني العُجْب فأروح أتحدّث عن طيّ الأرض والتجرّد الروحيّ، أو أن أغترّ بما أرىٰ في المنام من رؤى تنطبق بعدئذ علىٰ الواقع وتتحقّق، أو أن أعرف ـ بالفِراسة أو بالتسلّط الروحيّ ـ ما في خفايا الناس وخباياها فأُخْبِر بما أعرف عنهم، ممّا يجعل الناس يلتفّون من حولي تعظيماً وإعجاباً.. وأنا أحسَب أنّي قد أحسنتُ صُنْعاً وبلغت غاية الغايات!

وهنا أريد أن أخلُص إلىٰ القول أنْ لا بدّ للسالك إلىٰ الله (جلّ جلاله) من حكيم يرشده.. وإلاّ فإنّ المخاطر تنتظره على قارعة الطريق.

أردت تناول جميع الأدوية.. مرة واحدة!

كتب أحد الأصدقاء رسالة، جاء فيها:

في أوان شبيبتي عُدت إلىٰ الوعي بعد حالة من الغفلة، فخطر لي أنّي لو واظبت على تلاوة القرآن وأدمنت على ترديد الأدعية، معْرِضاً عن ارتكاب المعاصي ملتزماً بأداء الفرائض والواجبات.. لَغَدوتُ في عِداد أولياء الله.

وكان تنفيذ هذا الذي خطر لي هو دأبي ليلاً ونهاراً. بَيْد أنّي لمّا رجعت إلىٰ القرآن الكريم وإلىٰ الأحاديث أتبيّن فيها سمات أولياء الله ومخايلهم.. لم أجدني قد تحقّقت بشيء منها.

ووقع في حِسْباني يوماً أنّ خِلْطتي بالناس وما أتناوله من طعام ممّا يحول دون أن تؤثّر عباداتي أثرها المطلوب في تصعيد روحيّتي إلىٰ مراقي الكمال، فما كان منّي إلاّ أن اختططت خطّة جديدة في هذا السبيل. وهكذا مضيت في أيّام صيف إلىٰ منطقة جبليّة ـ حيث لا أعرف هناك من أحد ـ واعتكفت التماساً للتعبّد وترويض النفس. ولم يكن حظّي في هذه التجربة الروحيّة خيراً من سابقتها، فضقت ممّا بي ذَرْعاً.. وانخرطت أبكي بين يَدَي الله (عزّ وجلّ) في ليلة من ليالي عُزلتي الجبليّة تلك متسائلاً عمّا يحول بيني وبين الوصول إلىٰ الهدف الذي أردت. ولمّا خلدتُ تلك الليلة إلىٰ النوم.. وجدتني في

عالم الرؤيا أعاني من أمراض جسديّة كثيرة، ورأيت أمامي صيدليّة مفتوحة فدخلت. وعندها قرّرت أن أمدّ يدي وأتناول من أنواع الأدويّة، لعلّي أشفىٰ من هذه الأمراض. بَيْد أن طبيباً ماهراً كان هناك بادرني بالقول ـ وقد أدرك ما عزمت عليه ـ: لا تفعل! هذا شيء خطير، إن تُرِد الشفاء حقّاً فعليك أن تراجع طبيباً مختصّاً، ليشخّص أمراضك، ثمّ يكتب لك وصفة فيها ما يناسبك من الدّواء.

في تلك اللحظة خرجت من الحلم، وأفقت من النوم. . فأدركت الوهم الذي كنت قد وقعت فيه، وعلمت أنّ معالجة الأمراض الجسديّة إذا كان لا يصحّ أن تؤخذ هذا المأخذ. . فما بالك إذن بمعالجة الأمراض الروحيّة التي هي أكثر دقّة وأشدّ حساسيّة؟! إنّه لا بدّ إذَن من أستاذ في الطبّ الروحي حكيم مرشد شفيق. . يعينني في تشخيص أدوائي الروحيّة، وفي اختيار الدواء من بين الأدعية والنوافل والمستحبّات، وفق منهج صالح دقيق يحدّده لي ويُشرف عليه، لأظفر بالعلاج المؤمَّل وأصل إلىٰ الهدف، بأناة وبدون إتلاف للوقت.

وقد أدّاني هذا إلىٰ الالتجاء إلىٰ أحد الأولياء طالباً منه العون. واستجاب الرجل ـ جزاه الله خيراً ـ لِما طلبت، فأخذ بيدي كما يفعل الأب الرفيق، فحدّد حالتي وحاجتي، ومضىٰ بي يشقّ لي السبيل تلقاء عالم المعنويّات.

ليس الشأن بكثرة العبادة

أحد الأصدقاء تحدّث عن ماضيه في زمان شبابه، فقال: السنوات الخمس التي قضيتها بين سنّ العشرين والخامسة والعشرين كانت سنوات عصيبة من حياتي. في تلك المدّة قرأت في كتاب يحكي عن سيرة أحد الأولياء. وفكّرت في نفسي أنّي سأبلغ مثل مقام ذلكم الوليّ لو أدّيت الأعمال العباديّة التي كان يؤدّيها. وإذ طالعت في كتاب سيرته أنّه كان يصوم كلّ أيّام السّنة، وكان يحيي لياليه أجمع بالعبادة، ويتحاشىٰ الحديث مع أحد، ويقوم بأعمال تعبّديّة شاقّة.. ظننت أني قادر علىٰ الوصول إلىٰ مقامه إذا عملت عملاً ما، وفي حِسْباني أنّ هذه الأعمال هي التي أوصلته إلىٰ ما وصل إليه.

وبدأت فعلاً أترسّم خطاه، فكنت أُكرِه نفسي ليلَ نهارَ وأحملها علىٰ إتيان تلكم الأعمال بعناء بالغ. وفي بعض الليالي حين يتسلّط عليّ النعاس كنت ألجأ إلىٰ غسل وجهي بالماء، وإلىٰ شرب القهوة، وما شاكلها من الأعمال لكي أطرد النعاس وأُجانب الاستراحة. وأذكر أنّي كنت أفتح عينيّ بكلّ ما أستطيع لئلاّ يغلبني النوم، بغيَةَ أن أستزيد من العبادة. وكان هذا كلّه في نظري من الرياضات الشرعيّة التي لن أنتهي ـ إذا لم أركب مركبها ـ إلىٰ الكمال. وكان الناس من حولي يَرَون فيّ إنساناً صالحاً، ويَعدّونني أورع مَن عليها.

وما إن انسلختْ مدة على هذه الحال حتّى بدأ الوهن يدبّ إلى بدني، بعد أن كان ذا قدرة في البداية على التحمّل والمقاومة. لقد أمسيت ضعيفاً واهناً سرعان ما أمرض مع أيّ تغيّر في الطقس. وبدأت أحسّ ـ من الوجهة النفسيّة ـ بالتعب من هذه الخطة التي أخذتُ بها نفسي.. ذلك أني لم أنل شيئاً من وراء تلك العبادات ولم أجتنِ الثمرة التي كنت أؤمّلها، ووجدت في نفسي حالة من التثاقل والتكاسل جعلتني في وضع سيّئ ذميم؛ وأنقلب أمري رأساً على عقب، إذ ربّما وقعت في الارتياب بأصل وجود القضايا المعنويّة والعوالم الروحيّة.. حتى كاد يتسلّط عليّ مَسّ من الخَبَل والجنون. قلبي كاد يتفطّر.. وما ثمّة اتّجاه!

حيثما ولّيت وجهي.. لم أظفر بجواب. في بعض الأحيان كنت أستشير بعض العلماء المعروفين ـ وعرفت بعدئذ أنّهم لا خبرة لهم في هذا الميدان ـ فكانوا يشيرون عليّ بترك المحرّمات وأداء الواجبات. وكنت أضحك ممّا يقولونه لي في سرّي؛ لأنّهم يجهلون أنّي كنت التزمت حتّى بإتيان المستحبّات وهجران المكروهات.. فاستبان لي أنّي لن أعثر على دواء علّتي عند هؤلاء.

ثمّ ساقتني حالة الإرهاق النّفسيّ واليأس إلى التخلّي عن كلّ الأعمال العباديّة، وانصرفت كلّيّاً إلى مُزاولة الأعمال الدنيويّة. في حينها لم يكن بيني وبين غير الملتزمين المتحلّلين سوى أنّهم يحتملون وجود الحقائق والمعنويّات، بيد أني كنت أخال ـ من خلال تجربتي ـ أنّ هذه القضايا كلها أكاذيب مزعومة.. حتّى أنّي لو أعَرْتُ وساوس الشيطان أُذناً صاغية وأدركني شيء من التشبّث بما آلت إليه تجربتي تلك.. لأنكرت المقدّسات أجمع. بيد أن فطرتي الذاتية لم تَدَع شيئاً من ذلك يجري منّي على اللسان. ومهما يكن... فإنّي قد سلخت مدّة شاقّة كابدت فيها من العناء النّفسيّ، قابعاً تحت ضغوط شديدة كنت أتمنّى معها الموت.

وكانت تلك السنوات ـ بالقياس إليّ ـ أسوأ سنوات حياتي. ولكنّ الذي حدث بعدئذ أنّي التقيت يوماً بصديق لي كان رفيقي في أوان التعبّد، فسألني عن حالتي الرّوحيّة قائلاً: منذ أعوام لم أرَك.. أفتراك قد وصلت، خلال هذه المدّة، إلىٰ حالات من الكمال الروحيّ والمقامات العالية.. أم أنّك قد توقّفت في مكانك وتخلّفت؛ ذلك أنّ ظاهر أمرك يدلّ علىٰ أنك لست كما كنتَ عليه فيما مضىٰ من التقوىٰ والورع والعمل الصالح؟!

أمّا أنا.. فقد أجهشتُ باكياً بغير إرادتي. ومع أنّ لقاءنا هذا كان علىٰ قارعة الطريق.. فإنّه لم يكن في وسعي أن أوقف انفعال البكاء. قلت له: تعبتُ.. تعبت. ما أظنّ أن هناك حقائق معنويّة. لقد هَدَرنا وقتنا في هذه المسائل بدون جدوىٰ، وقد أضنتني الأعمال التي قمت بها ولم أصل إلىٰ شيء، لم أتعرّف علىٰ ظلّ من المعنويّات. عبثاً كانوا يقولون لنا إنّ من أخلص في عمله أربعين يوماً أو تقرّب بالنوافل فإنّه يبلغ مقاماً فيه كذا وكذا، ويكون ذا نفس قدسيّة. سنوات.. وأنا أعمل باخلاص، وسنوات.. وأنا أتطوّع بالنوافل والمستحبّات، فلمَ لم أحصل علىٰ شيء، بل إنّي قد تعبت من كلّ شيء؟! ولهذا طرحت كلّ شيء جانباً، وانصرفت إلى حياتي الماديّة كالآخرين.. محاولاً ألاّ أفكّر بالمعنويّات والآخرة والقيامة وسائر القضايا من هذا النوع.

عندها قال لي صديقي: إنّك لن تستطيع أن تغدو كالآخرين، ذلك أنّهم ـ مع أنّهم في غفلة شاملة ـ لا يحاولون الإعراض عن التفكير بالقيامة والمعنويّة والكمالات. ومن الممكن لهم أن يفيقوا في أيّة لحظة من غفلتهم، وإذا ما أفاقوا فإنّهم يسلكون الطريق الصاعد إلىٰ الكمالات. ولكنّك لست في حالة ترشّحك للإفاقة من نومتك، ولا أنت مفيق، ولا أنت ماضٍ في طريق الكمالات.

قلت له، وقد استبدّ بي البكاء وتعمّق إحساسي بالمأزق الذي أنا واقع

فيه: إذَن فأنا بائس منكود لا أدري أيَّ كارثة ستحلّ بي في القيامة وفي عالم البرزخ.

فقال لي: لا تَيْأس.. إنّي لأعرف أستاذاً أحسب أنَّ لديه علاج محنتك، فهلمّ نذهب إليه.

وطاوعته، فمضيت معه إلىٰ ذلك الرّجل العالم. وكان خبيراً بأدواء نفسي حقّاً، إذ تفطّن منذ أوّل لقاء إلىٰ موضوع كانت غفلتي عنه هي التي جرّت عليّ طوال هذه السنين عناء الخيبة والإخفاق. ولست أريد الآن أن أفصح عن هذا الموضوع، فلعلّ لكلّ إخفاق سرّه الخاص وباعثه المحدّد.. خاصّة وأنّ هذا الأستاذ قد أخذ عليّ ألا أبوح به لأحد.

ولكنّي توصّلت من خلال تجاربي أنّ الأستاذ ضروريّ للصعود إلىٰ ذُرىٰ الكمالات الروحيّة. وبدون الحكيم المرشد لا يحصل المرء علىٰ ما يبتغي وربما أدركه التعب والنّصب وأصابه ما أصابني علىٰ أثر عكوفي علىٰ أعمال عباديّه بلا ترتيب ولا خطّة ولا حساب.

خطوة خطوة.. حتّىٰ بلوغ الكمال

تحدّث أحد العلماء المعاصرين ـ وهو اليوم في عداد أولياء الله ـ عن تجربته. . فقال:

كنت أجد فيّ ميلاً توّاقاً ـ منذ أول حياتي حتىٰ بلغت الأربعين ـ إلىٰ أن أغدو، علىٰ الدّوام، إنساناً صالحاً مُبَرَّءاً من كل الصفات الذميمة، بعيداً عن المعصية، لا أفرّط بشيء من التكاليف. . حتىٰ أنّي قد عزمت في أوائل شبابي علىٰ ألاّ أقرب المكروهات وأن أفعل المستحبّات ما وسعني ذلك.

ولكنّي كلّما همّمت أن أتلبّس فعلاً بكلّ هذه الأعمال الصالحة وأن أتجنّب كلّ السيّئات كان يبدو لي ما أردته محالاً من المحال. . تماماً كما لو أردت أن أرفع ثقلاً وزنه ألف كيلوغرام من موضعه وأنقله إلىٰ موضع آخر. . دفعةً واحدة. كانت هذه الرغبة في الصلاح تشتدّ بي أحياناً فتحدوني أن أحمّل نفسي كثيراً وأضغط عليها لأصل إلىٰ تزكية النفس وكمال الروح. لكنّي ـ كما لا أقدر علىٰ نقل وزن الألف كيلوغرام بمفردي مهما كانت قوّتي ـ كنت أخيب في مسعاي هذا ويأخذني التعب والإرهاق. . فيؤول أمري إلىٰ ترك هذه الأعمال والتخلّي عنها، وأجدني قابعاً في حالتي السابقة كما كنت.

ثمّ انّي فكّرت أن أبدأ عملي في ترك السيئات وفعل الخيرات واحداً بعد

واحد. . لكنّي كنت أفتقد خطّة العمل الصحيحة، فلم أكن أعرف من أين أبدأ، وما الذي له الأولويّة في الإنجاز. وقد حيّرتني هذه المسألة كثيراً. . حتىٰ خطر لي أن أسأل أستاذاً له خبرة يدلّني ويرشدني في هذه الخطة الروحيّة. ذلك أنّي قد أدركت أنّ الله (تعالىٰ) قد أنزل قرآنه الهادي علىٰ نبيّه ﷺ وما أنزله علىٰ غيره. وأنّه هو وأوصياؤه المعصومون (سلام الله عليهم أجمعين). . هم المرتبطون في معارفهم بالله. ثمّ لا يدرك معارف الدين ومعاني الأحكام من بعدهم إلاّ من اتّصل بهم وتابَعَهم من العلماء الصادقين. يقول الله (تبارك وتعالىٰ) عن القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1]. وورد في الروايات: «حديثنا صعب مُسْتَصْعَب، لا يحتمله إلاّ مَلَك مقرَّب أو نبيّ مرسَل أو مؤمن قد امتحنَ الله قلبَه للإيمان». ثمّ انّ العلماء الربّانيّين والاساتذة الصادقين يدلّون الناس علىٰ ما ينفعهم من المعارف الإلهيّة ويبيّنونها لهم.

وكما لا يجوز لأحد أن يعمل بأحكام الدين برأيه الشخصيّ، وانّما عليه أن يأخذها من أهلها المطلعين عليها. . فكذلك قضايا تزكية النفس والمعارف المعنويّة ـ وهي أدقّ من المسائل الفقهيّة وأعمق ـ ينبغي أن يُرجع فيها إلىٰ خبير صادق.

عندئذ علمت أنّ أكثر ما كان يمنعني من التقدم في عملي الروحيّ أنّي كنت أسير فيه وفق ما أرتئي أنا، غير مسترشد بخبير في الموضوع. وفكّرت أن أمضي إلىٰ بعض أقطاب الصوفيّة الذين يدّعون التخصص في التزكية والمعنويات، لكني انصرفت عن هذه الفكرة إذ استبان لي بالدلائل أنّ هؤلاء ليسوا كذلك. كما أنّي لم أفكر في الاستمداد من العلماء الذين فيهم من عكف علىٰ الدنيا، ولا يفهم غير الظاهر. . بعيداً عن المعنويّات والحقائق

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

الروحيّة؛ إذ لم أجد فيهم ما أرجو من العون.

وأذكر أنّي في تلك الآونة كنت أقضي ليالي تستبدّ بي فيها الحيرة، ويشتمل عليّ الحزن والاكتئاب.. حتىٰ يطلع عليّ الصبح، وأنا أنادي: «يا غياث المستغيثين».. وأمَلي أن يهيّيء الله (تعالىٰ) لي ملجأ ومُعيناً يغيثني في أمري.

في احدىٰ ليالي الإستغاثة تلك.. وجدت في قلبي ميلاً إلىٰ نداء: «يا صاحبَ الزمان أدرِكْني».. ممّا فتح في قلبي نافذة أمل؛ ذلك أنّ الله هداني إلىٰ التوسّل بإمام زماني وقائدي العزيز بقيّة الله (روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء). ومن حينها أمسيت ألهج فيما بعدها من الليالي بهذا الإسم المقدّس منادياً بمحبّة وشوق: «يا صاحبَ الزّمان.. أدرِكْني».. و«يا أبا صالح المَهْديّ.. أغِثْني». وما زلت كذلك حتىٰ رأيت ليلة أنّي قد دُلِلْت علىٰ أستاذ صالح. والحقيقة أنّ إمام العصر (عجّل الله تعالىٰ فَرَجه الشريف) هو مَن دلّني ـ بلطفه ـ عليه. ولقد وجدت في هذا الاستاذ استقامة قد صانَتْه عن الميل إلىٰ الإفراط أو الانحراف إلىٰ التفريط. وأحبّني هذا الأستاذ كما يحبّ نفسه. ولو أنّي أردت من تلقاء نفسي أن أصل إلىٰ مقام الأولياء والانقطاع عن الخلق وأن أغدو صالحاً حقّاً.. لَما أفلحت ـ كما ذكرت آنفاً ـ لكنه دلّني في ليلة واحدة علىٰ ما يستغرق معي، إذا كنت بمفردي، مئة سنة. وهكذا وجدت فيه المتّكأ الذي يُطمأنّ إليه. فحدّثته بواقع نفسي وحالاتي حتىٰ أحاط بوضعي وحدّد لي ما يصلح شأني. وبدأ معي خطّة المسير، جزاه الله عنّي كلّ خير!

كلمة موعظة.. من إمام المسجد

أحد الأولياء قصّ قصّة تحوّله وبدء ارتقائه الروحيّ، فقال:

مواعظ استمعت إليها من رجل صالح هي التي استنقذتني من خَدَر الغفلة. في صبيحة ذلك اليوم كنت قد أتيتُ عدّة من أعمال البرّ، فكان لها ـ علىٰ غير قصد منّي ـ أثر في تفريج كروب بعض من عباد الله. ويبدو لي أنّها هي التي فتحت لي سبيلاً لأن أصلّي ظهيرة ذلك اليوم في مسجد الحارة، واستمعت بعد الصلاة إلىٰ موعظة ألقاها إمام جماعة المسجد، فصحوت من رقاد الغفلة.

كان من دأب إمام الجماعة اليومي أنّ يتحدّث إلىٰ الناس بعد الصلاة حديثاً قصيراً مستمدّاً من القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام. وتحدّث في ذلك اليوم كعادته.. فكان لكلماته في داخلي ـ رغم أنها لم تَدُم أكثر من خمس دقائق ـ فعل عجيب. لعلّه قالها صادقاً فجاءت قويّة مؤثّرة. عندها ألفيتُني كمن كان قد غفا في بيداء تموج بالأهوال، بعد أن خلّفته القافلة وارتحلت.. فهبّ من نومه مذعوراً علىٰ صوت صرخة أيقظته، ولم يجد أمامه إلىٰ النجاة من سبيل. أجل.. هكذا كنت وبعد تلكم الموعظة نهضت ـ وعيناي تذرفان دموعاً غِزاراً ـ أطوف في المسجد، كمن أصابه خبال.. وأنا أقول في

طوافي: ما عساني أصنع يا إلهي؟! أتاني أحد المصلّين، وقال لي: هَلُمّ الآن لصلاة العصر، ولا تُلْهِ المصلّين عن صلاتهم. وبعدها يمكنك أن تشاور إمام الجماعة فيما يهمّك.

وطاوعت الرجل فيما قال: فأقبلت معهم علىٰ صلاة العصر. ولقد كانت صلاة فيها من التوجّه الروحيّ والإقبال ما بدت معه صلاة الظهر كأنها ما كانت صلاة!

في الصلاة شعرت أنّ الله (تعالىٰ) كمحبوب وجد حبيبه بعد زمن طويل، فاحتضَنَه وراح يُمْطِره بالقُبُلات ويُشْبِعه حبّاً ومودّة.

بعد الفريضة لم يقرّ لي قرار.. والبكاء لا يكفّ، لمّا ذهبت إلىٰ إمام الجماعة. وطفق الرّجل يهدّئني ويواسيني، قال: إنّ رأس الفلاح لأيّ مسلم هو أن يثوب من رقاد غفلته ويغدو باحثاً عن الحقيقة، وقد تحقّقت لك هذه الحالة، ولله الحمد. وإذا شئت الآن فإنّي أعرّفك علىٰ أستاذي الذي هو بلا شك خير منّي ليأخذ بيدك. وأنا علىٰ يقين أنّه سيبلغ بك الحقيقة إذا لم تنزلق مرّة أخرىٰ إلىٰ النوم. عندها شكرت لهذا الرجل صنيعه، ومضيت معه إلىٰ الأستاذ الذي عرّفني عليه.

قال الأستاذ: متىٰ ما استفاق الإنسان من غفلته ووجد نفسه كالغريق بين أمواج المهالك والعطب.. فعليه ـ أوّل ما عليه ـ أن يحدّد الهدف الذي يُيَمِّم إليه وجهه والغاية التي يريد ليمضي إليها، وأن يتبيّن المعنىٰ الذي أوجد الله الإنسانَ من أجله. إنّ الله (عزّ وجلّ) ما خلق الإنسان إلاّ للعبوديّة والكمالات الروحيّة والخلافة الإلهيّة، أي أن يصبح المرء متخلّقاً بأخلاق الله.

ثمّ عليه ـ ثانياً ـ أن يفكّر بوسيلة آمنة سريعة توصله إلىٰ مقصده بأسرع ما يكون. وخير وسيلة أمناً وسرعة ـ في الاعتقاد الإسلاميّ ـ هي القرآن الكريم وتعليمات النبيّ وأهل بيته الهُداة (صلوات الله عليهم أجمعين).

وينبغي للإنسان ـ ثالثاً ـ أن يسترشد بحكيم يعلّمه سبيل الانتفاع بهذه الوسيلة؛ إذ كيف يمكن تصوّر عبور مراحل طريق صعبة دونما استعانة بدليل؟! إنّ حال من لا مُعين له في هذا السياق كحال من كان في بيداء خطيرة: يعرف وجهته ولَدَيْه وسيلة آمنة.. لكنّه لا يعرف كيف يستخدم هذه الوسيلة ليمضي بها تلقاء وجهته المقصودة.

ومن كان مرشده رجلاً أخا ثقةٍ.. إنّما مَثَلُه مَثَل مسافر إستقلّ سيارة، لا يفكر من أمر قيادتها في شيء، ولا يعنيه إلاّ مسيرها وهي تتقدّم به إلىٰ مقصده؛ فلا فرق عنده ـ والحالة هذه ـ أن تعبر السيّارة من وسط العمران أو تقطع به السبيل في عرض الصّحارىٰ والفَلَوات القاحلة. إنّ كلّ ما يشغله ويَعْنيه أن ينتهي سريعاً إلىٰ غايته فيفلح ـ بمعونة الأستاذ ـ في نوال الكمالات الروحيّة. فلا رؤية المنامات الطيّبة ولا المكاشفات هي ما يَشُوقه ويُغريه، كما لا يُغري المسافر ـ القاصد هدفَه حثيثاً ـ ما يلقاه في طريق سفره من مناظر.. بالتريّث والمكوث. بل إنّه ليسرّه أن يمضي به السائق في طرق تختصر له المسافات ليوافي مقصده في وقت قصير. إنّ السالك إلىٰ الله (جلّ جلاله) لا يشغله إلاّ شأن الكمالات الروحيّة، ولا تؤخّره الرؤىٰ الصالحة والمكاشفات وحالات القبض والبسط التي تمرّ به في الطريق. وينبغي للأستاذ أن يرتقي بالسالك إلىٰ الله ـ بموجب خطّة دقيقة ـ ليوصله سريعاً إلىٰ الهدف.

ومَن حظيَ بهذه الموضوعات الثلاثة، فلم يقع في شيء منها بالوهم، وانطلق بها انطلاقاً عملياً سليماً فقد اطمأنّ منه البال، وَلْيَعلم أنّه سيصير يوماً إلىٰ هدفه، عاجلاً أم في الآجل.

أكل ما يقوله المرشد صحيح؟

لي صديق كان حائراً مختلطاً عليه الأمر، فأمضىٰ زماناً في ممارسة الرياضة الروحيّة، لكنه لم يصل إلىٰ شيء. وعاد بعدها إلىٰ سلوك النهج الذي أسعفه واستنقذه. وحكىٰ بعدئذ تجربته هذه، فقال:

منذ البداية كان واضحاً لي أن تزكية النفس وبلوغ الكمالات الروحيّة ممّا يتطلّب معونة أستاذ. وقد حدا بي هذا أن قصدت أحد كبار الصوفيّة لهذا الغرض. وكنت مسروراً أنّي قد وصلت إلى نقطة الإنسانيّة الحسّاسة، ووضعت يدي في يده يعينني في أمري، وقَبِلني هو بكل مودّة.. فكان يعرّفني شيئاً فشيئاً علىٰ أسرار الطريقة، ويَحْملني علىٰ رياضة النفس.

سألته يوماً عن الفرق بين الرياضات الشرعيّة وغير الشرعية؛ لإنّي كنت قد سمعت فيما سلف أنّ الرياضات الشيطانية تنأىٰ بالمرء عن الله. فقال لي: ما يقوله المرشد صحيح، وما يصدر عن غيره باطل.

قلت: ألا يمكن أن يُحتمل اشتباه في قول المرشد؟ فقال: كلاّ، ذلك أنّه قد بلغ مقام الوصل، ومن بلغ هذا المقام يكون مظهراً لله، فلا يجوز عليه في هذه الحالة الاشتباه.

قلت له: أنا نفسي رأيت منك إلىٰ الآن عدّة نقاط من التوهّم، وأقررتَ

بها بنفسك. . فما تقول في هذا؟

قال: متىٰ تبلغ درجة الكمال تنحلّ أمامك هذه التناقضات.

وعلىٰ أيّ حال. . فقد سلخت مدّة مديدة في هذا الجوّ، علىٰ أمل أن أصل يوماً إلىٰ مقام الوصل. عكفت علىٰ الرياضات، وفعلت ما كان يقوله المرشد من الأعمال. . حتىٰ إذا كان يوم قال لي المرشد: أبشّرك أنّك قد جِزْتَ مقام الوصل وعرفت كلّ رموز الطريقة، وقد اخترتك لتكون شيخاً مرشداً لثلّة من السالكين إلىٰ الله.

إنّ كلامه هذا كشف لي فجأةً أني ماشٍ في طريق غلط؛ لأني لم أصل فعلاً إلىٰ شيء. . فكيف يزعم هذا أني قد نِلْتُ مقام الوصل؟! وتفطّنت أنّه كان يقودني ـ طيلة هذه المدّة ـ إلىٰ نفسه. . لا إلى الله. فاشتمل عليّ الهمّ والغمّ، وقضيت يومين في البكاء، ولم أذق فيهما من فرط الأسىٰ طعماً للنوم. وفي ثالثة الليالي. . لجأت إلىٰ «مناجاة الشّاكِين»[1]، أتضرّع بها شاكياً إلىٰ الله، وأبتهل إليه بعباراتها الضّارعة:

بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم

«إلٰهي. . إلَيْكَ أشْكُو نَفساً بِالسُّوءِ أمَّارَةً، وإلَى الْخَطِيئَةِ مُبٰادِرَةً، وبِمَعٰاصِيكَ مُولَعَةً، ولِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً. تَسْلُكُ بي مَسٰالِكَ الْمَهٰالِكِ، وَتَجْعَلُني عِنْدَكَ أهْوَنَ هٰالِكٍ. كَثيرَةَ الْعِلَلِ، طَويلَةَ الأمَلِ. إنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ، وإنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ. مَيّالَةً إلَى اللَّعِبِ واللَّهْوِ، مَمْلُوءةً بِالغَفْلَةِ

(١) «مناجاة الشاكين» هي المناجاة الثانية للإمام زين العابدين وسيّد الساجدين عليّ بن الحسين عليه السلام.

والسَّهوِ. تُسرعُ بِي إلَى الْحَوبَةِ وَتُسَوِّفُني بِالتَّوبَةِ.

إلٰهي.. أشكُو إلَيكَ عَدُوّاً يُضِلُّني، وَشَيطاناً يُغويني. قَدْ مَلأَ بِالْوَسْواسِ صَدْرِي، وأحاطَتْ هَواجِسُهُ بِقَلْبِي. يُعاضِدُ لِيَ الْهَوىٰ، ويُزَيِّنُ لي حُبَّ الدُّنيا، ويَحُولُ بَيني وبَينَ الطَّاعَةِ وَالزُّلفىٰ.

إلٰهي. إلَيكَ أشكُو قَلباً قَاسِياً، مَعَ الْوَسْواسِ مُتَقَلِّباً، وَبِالرَّيْنِ والطَّبْعِ مُتَلَبِّساً. وعَيناً عَنِ الْبُكاءِ مِنْ خَوفِكَ جامِدَةً، وَإلىٰ ما يَسُرُّها طامِحَةً.

إلٰهي.. لا حَولَ لي ولا قُوَّةَ إلاَّ بِقُدْرَتِكَ. ولا نَجاةَ لي مِنْ مَكارِهِ الدُّنيا إلاَّ بِعِصْمَتِكَ فَأسألُكَ بِبَلاغَةِ حِكْمَتِكَ، ونَفاذِ مَشِيَّتِكَ.. ألاَّ تَجعَلَني لِغَيرِ جُودِكَ مُتَعَرِّضاً، ولا تُصَيِّرَني لِلْفِتَنِ غَرَضاً. وكُنْ لي عَلَى الأعْداءِ ناصِراً، وَعَلَى الْمَخازي والْعُيُوبِ ساتِراً، ومِنَ الْبَلاءِ واقِياً، وعَنِ الْمَعاصِي عَاصِماً.. بِرَأفَتِكَ وَرَحمَتِكَ، يا أرْحَمَ الرَّاحِمينَ».

ولا أذكر عندها.. أأخذتني سِنَة من نوم، أم قد أُغمي عَلَيّ، أم دخلت إلىٰ عالم المكاشفة والخَلْسة ـ كما يقول العارفون ـ لقد انكشف لي طريقٌ لاحِبٌ مستقيم يمتدّ باتّجاه المشرق، يقال له: طريق الإسلام. ولاحت لي علىٰ جَنَبات الطريق أزقّة فرعيّة، بعضها مغلق لا ينفذ، كثير الانعطاف والالتواء. وعلىٰ مَدْخل كلّ زقاق نُصِبَت لوحة كُتب عليها اسم واحد من المناهج والطرائق. ورأيتني أدخل زقاقاً منها.. انتهىٰ بي إلى بيت صاحبي

المرشد. وفي عالم المكاشفة هذا استكشفت كلّ الأزقّة.. فكانت كلّها توصل إلىٰ بيت المرشد، وما أدّاني واحد منها إلىٰ بيت الله! فما كان منّي إلاّ أن عُذتُ ألتمس الدرب اللاّحب المستقيم، فسلكته ماضياً فيه.. حتّىٰ وافيتُ بيت الله. وفي تلك اللحظة.. تجلّت لي الآية الكريمة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١).

ومهما يكن.. فقد انطوت حالة الخلسة أو النوم هذه. وقصدتُ من فوري أحد العلماء الرّبانيّين، واتّخذتُه مُربّياً لي. قال لي: يا بُنيّ.. إنّ صراط الله المستقيم لا يحتاج المرء إلىٰ عنوان للوصول إليه. كلّ ما في الأمر أن يحاذر الإنسان فيه من المزالق والمزلات. وما عَمَلُ الأستاذ إلاّ اعانة التلاميذ علىٰ مجانبة الانحراف؛ فإنّ أصل الطريق هو أحكام الشريعة المقدّسة التي جاء بها النبيّ ﷺ، فلا حاجة إذن في المسير إلىٰ سواها من المختَرعات والمبتَدعات. ما عليه سوىٰ أن يتخيّر لهم ممّا صدر من أهل البيت عليهم السلام ما يوائم حالة المريض الروحيّة، وأن يُنجِده في حلّ ما يعرض له من مشكلات.

أجَل، أيّها الأصدقاء.. في مدّة وجيزة وصلت ـ من خلال توجيهه وارشاده ـ إلىٰ آفاق عالية من الحقائق والمعنويات الإلهيّة. فإنّه ما تحدّث لي، منذ أوّل خطوة، إلاّ عن الله.. حيث كُلُّ مقام وكلّ شيء لله. أترىٰ يكون في سبيل الله غير الله؟! يقول القرآن الكريم:

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٣) سورة يس، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ويقول: ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

ولا مِرْية أبداً في أنّ ما يقوله الله (تبارك وتعالىٰ) ويأتي به رسول الله وأهل بيته الهُداة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) هو الصراط المستقيم الصاعد إلىٰ الله (عزّ وجلّ).

وعلىٰ المرء أن يستمسك بهذا الصراط ولا يتنكّب عنه. وما يقوله الأستاذ فإنّما ينبغي أن يؤخذ من هذا الصراط الذي هو خطّ أهل البيت عليهم السلام لا يتجاوزه ولا يَعْدِل عنه.

(١) سورة الحجر، الآية: ٤١. وهذه هي القراءة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الثالث

التوبة

- التوبة والأوبة
- شروط التوبة
- البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام
- زيارة الإمام الرضا عليه السلام
- توبة آدم عليه السلام
- جارنا شفع لي
- قراءة القرآن
- ما وفّقني الله!
- الأستاذ دلّني على التوبة

التوبة والأوبة

التوبة . . تعني العودة إلىٰ الله (تعالىٰ) والأوبة ـ مرّة أخرىٰ ـ إليه . وهي أوّل خطوة علىٰ السالك إلى الله أن يخطوها ، بعد مرحلة اليقظة والإفاقة .

إنّ كلّ هدف الإنسان السالك في هذه المرحلة التطّهر من الذنوب السالفة ، وغسل القلب من الأوساخ والأدناس الروحيّة .

ولأنّ التوبة إنّما تقع مرّة واحدة في العمر . . لَزَم أن تتحقّق علىٰ نحوٍ كامل صحيح .

ومن هنا . . فنحن نقرأ في هذا القسم من الكتاب شيئاً من تجارب التلاميذ ، في شرائط التوبة ، وكيفيّة تحقّقها ، وعلامات قبول هذه التوبة .

شروط التوبة

قال أحد التلاميذ:

في بداية تردّدي علىٰ الأستاذ.. أدرك ما بي من ظمأ إلىٰ طيّ مراحل السلوك. فقال لي: عليك أن تتوب عائداً إلىٰ الله، ولا يكن همّك إلاّ العودة إلىٰ الله وتنقية باطنك.. وهذا يستغرق منك وقتاً. فاعمل بالوصايا.. عسىٰ الله أن يتوب عليك. قلت له: أعمل ـ إن شاء الله ـ بما توصي.

في البداية شخّص دائي ـ كما يفعل الطبيب ـ ثمّ حدّد لي الدواء. ووفّقتُ بعدئذ للتوبة ولله الحمد.. ورأيت آثار القبول.

ولعلّك تسألني الآن عن هذه الوصايا، ومدّة أدائها، وكيف علمت بقبول توبتي، وعن آثار هذا القبول.

وأقول لك: إنّ الوصفة الطبيّة التي حدّدها لي الأستاذ كانت خاصّة بحالتي ولا يصحّ أن يعمل بمقتضاها الآخرون.. أرأيت مريضاً يمكن أن يتناول دواء قد كتبه الطبيب لمريض غيره؟! ثمّ إني لا أخبرك بتفصيل هذه الوصايا لئلاّ تتكاسل فلا تقصد أستاذاً وتعمل وفق ما يوصيك به. لكنّ الموضوع الأهمّ الذي أوصىٰ به وكان له الأثر البالغ في هذا الشأن أنّه قال لي: ينبغي أن تكون حالتك الآن كمن يريد «تعزيل» داره وتنظيفها.. لا همّ

لك إلاّ التوجّه إلىٰ التوبة وكنس بيت قلبك وغسله، فلا يشغلك في هذه المدة كلّها شاغل عن طلب التوبة والعفو من الله (تعالىٰ). . علىٰ ألاّ تقلّ مدة التوبة عن أربعين يوماً؛ فإنّ من فوائد طول أمد التوبة أن تتعوّد فيها علىٰ ترك الذنوب. . ثمّ إنك لن يهون عليك أن تنقض توبتك بسرعة بعد عنائك وترويضك نفسك كلّ هذه المدّة. فإذا ما جاءك الشيطان يزيّن لك نقض التوبة كان بامكانك أن تواجه نفسك بالقول: أبَعْدَ هذا العَناء الصعب، وبعد هذا النقاء من قذر المعاصي. . أفرّط بتوبتي إلىٰ الله وأعود مرة أخرىٰ إلى أرجاس الشيطان؟!

وفي هذه المدة لابدّ من التركيز الذهني علىٰ التوبة والإنابة. . في الصلوات وفيما بعد الصلوات، وفي مواضع استجابة الدعاء. . ثمّ في جوف الليل وفي أوقات السَّحَر. . ليكن همّك دائماً أن يقبل الله متابك.

لو كنت تقوم بعمل من الأعمال، تريد أداءه علىٰ أكمل وجه. فإنّ عليك أن تركّز فكرك في أدائه ولا تسمح لذهنك بالشرود إلىٰ غيره. . وكذلك عليك في مرحلة التوبة أن تنصرف عن أيّ شيء، وعن أيّ حاجة سواها. فإذا غدت التوبة همّك الأساس أفلحت في هذا السبيل.

علىٰ أيّ حال. . عملت بوصيّة الأستاذ. وما كان همّي ـ في الأربعين يوماً ـ إلاّ الاستغفار والتوبة إلى الله. حتىٰ إذا بقي من الأربعين أيام قليلة شعرت بخفّة في داخلي وشفّافيّة. عندها أوصاني الأستاذ أن أسأل الله (تعالىٰ) تبديل سيئاتي حسنات. وفي آخر هذه الأيّام ـ وقد هيمن عليّ حُسْن الظنّ بالله ـ تخفّفت تماماً من ثقل الذنوب وقَبِل الله (عزّ وجلّ) توبتي.

البكاء علىٰ سيّد الشهداء أكبر بلسم للروح

أحسنَ الله بنا أيّما أحسان، إذ ألقىٰ في قلوبنا محبّة أهل البيت عليهم السلام ومودّتهم.

بعد أنّ مَنَّ الله (تعالىٰ) عليّ ـ أيّها الأصدقاء ـ باليقظة والانتباه، قصدت أستاذي طالباً ارشادي إلىٰ الكمالات الروحيّة والإنسانيّة، فقال لي: في وسعك ـ لغفران ذنوبك والتخفّف من الأدناس والآلام الروحيّة ـ أن تلتزم مدّة بقراءة زيارة الإمام سيّد الشهداء عليه السلام والبكاء عليه.. ملتمساً أن يقبل الله توبتك، ومُبْدياً محبّتك للإمام عليه السلام ومودّتك.. وعندها تَطْهر من ثقلة المعاصي والآثام.

قال لي هذا في أوّل يوم من المحرّم. وفي تلك الأيّام التزمت أن اشترك صباحاً وليلاً في مجالس العزاء، وأبكي علىٰ الإمام الحسين عليه السلام كثيراً.. داعياً خلال هذه المجالس بغفران الذنوب. وقد وجدتُ في هذا العمل أثراً عجيباً.

شعرت بخفّة مدهشة وانطلاقة في داخلي.. كمن يُلْقي عن كاهله حملاً ثقيلاً كان يرهقه، وبعد كل مجلس حضرتُه.. كنت أرىٰ كلّ ما حولي ـ وكلّه من آثار قدرة الله (تعالىٰ) ـ كأنّما يبتسم لي ويُكنّ لي محبّة؛ لأنّي قد بكيت

علىٰ مصاب محبوب الله وعزيزه: الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وكنت أقرأ زيارة الإمام عليه السلام كلّ يوم.. متوسّلاً به؛ فالحسين بن عليّ عليه السلام رحمة الله الواسعة، وباب نجاة المذنبين.

في أحد الأيّام تناولت كتاب (مفاتيح الجنان) لأقرأ احدىٰ زيارات الإمام سيّد الشهداء عليه السلام، وفتحت الكتاب، فألفيت أمامي رواية في فضل زيارة الإمام عليه السلام مرويّة بسند معتبر، فزادتني هذه الرواية إيماناً بالنهج الذي سلكته للمغفرة. وهذه هي الرواية:

يقول الثقة الجليل معاوية بن وهب البَجَليّ الكوفيّ: دخلت علىٰ (الإمام) الصادق عليه السلام وهو في مُصَلّاه، فجلست حتىٰ قضىٰ صلاته. فسمعته وهو يناجي ربّه ويقول: «يا مَن خَصّنا بالكرامة، ووعَدَنا بالشفاعة، وحمّلنا الرسالة، وجعلنا ورثة الأنبياء، وخَتَم بنا الأمم السالفة، وخَصّنا بالوصيّة، وأعطانا علمَ ما مضىٰ وعلمَ ما بقي، وجعلَ أفئدة من الناس تَهْوي إلينا.. إغفر لي ولإخواني وزوّار قبر أبي الحسين بن عليّ (صلوات الله عليهما)...

إلىٰ أن يقول عليه السلام: وارحمْ تلك الأعين التي جَرَتْ دموعها؛ رحمةً لنا. وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا. وارحم تلك الصّرخة التي كانت لنا».

إنّ هذه الرواية ـ وعشرات غيرها ـ تؤكّد لنا أنّ محبّة الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام والبكاء عليه ممّا يُدخل المرء في محبّة الله ورحمته. ومتىٰ ما شملت رحمة الله ومحبته عاصياً فلا بدّ أن توبته من المؤكّد المحتوم.. خاصّة ونحن نقرأ في الزيارة الأولىٰ لسيّد الشهداء عليه السلام: «مَن أرادَ اللهَ بَدَأ بكم. بكم يُبيّن الله الكَذِب. وبكم يُباعد الله الزّمانَ الكَلِب. وبكم فَتَح الله. وبكم يختم الله. وبكم يمحو ما يشاء. وبكم يُثْبِت. وبكم يَفُكّ الذّلّ من رقابنا. وبكم يُدْرِكُ الله تِرَةَ كلّ مؤمن يطلب بها. وبكم تُنْبِت الأرضُ أشجارها. وبكم

تُخرِج الأرضُ ثمارها. وبكم تُنزل السّماءُ قَطرَها ورزقَها. وبكم يكشفُ الله الكَرْب. وبكم يُنزّل الله الغيث. وبكم تسبّح الأرض ـ التي تحمل أبدانكم ـ وتستقرّ جبالها عن مراسيها. إرادة الربّ في مقادير أموره تَهبط إليكم، وتَصْدُر من بيوتكم. . والصّادرُ عمّا فُصِّل من أحكام العباد. لُعِنَتْ أمّة قتلتكُمْ، وأمّة خالفتكم، وأمّة جَحَدتْ ولايتكم، وأمّة ظاهرتْ عليكم. وأمّة شَهِدَتْ ولم تُسْتَشْهَد. الحمدُ لله الذي جعل النارَ مثواهم، وبئسَ الوِرْد المورود».

أجل. . بكيت كثيراً علىٰ فجائع سيّد الشهداء وفاطمة الزهراء وسائر أئمة الهدىٰ عليهم السلام، ودمتُ أمداً علىٰ حضور المجالس وقراءة الزيارة وذرف دموع الحزن والرثاء. . حتىٰ حَدَث أن شاهدت في إحدىٰ الليالي مَلكاً من الملائكة كان مُكلَّفاً بجمع دموعي خلال هذه المدّة كلّها، فعمد إليّ وغسلني بها. . فأحسست بطهارة باطنيّة وخفّة في داخلي. . كمن خرج آنفاً من الاستحمام ولم يبق علىٰ بدنه ذرّة من الأوساخ.

وذهبت في اليوم التالي إلى الأستاذ أبشّره بما ظفرت به من هذه الحالة الروحيّة المطهّرة. . فأخذ الأستاذ يقرأ لي هذه الأحاديث تشجيعاً لي وتثبيتاً:

قال الإمام السجّاد عليه السلام: «أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن عليّ دمعة، حتىٰ نسيل علىٰ خدّه. . بوّأه الله بها في الجنّة غُرَفاً يسكنها أحقاباً»[1].

وقال الإمام الرّضا عليه السلام: «. . فعلىٰ مثل الحسين فَلْيَبْكِ الباكون؛ فإنّ البكاء عليه يَحُطّ الذنوبَ العِظام»[2].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ ذُكِرْنا عنده، ففاضت عيناه. . حرّم الله وَجْهَهُ علىٰ النار»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨١.

(٢) المصدر السابق ٤٤: ٢٨٤.

وقال الإمام الرّضا عليه السلام في كلامه للريّان بن شبيب: «يابن شبيب، إنْ بكيتَ علىٰ الحسين، حتى تصير دموعك علىٰ خدّيك.. غَفَر الله لك كلّ ذنب أذنبتَه ـ صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً»[1].

وفي خبر عبد الله بن بُكَيْر.. أنّه قال: حَجَجتُ مع أبي عبد الله الصادق عليه السلام.. فقلت: يابن رسول الله، لو نُبِش قبر الحسين بن عليّ عليه السلام.. هل يُصاب في قبره شيء؟

فقال: يابن بكير.. ما أعظمَ مسائلك! إنّ الحسين بن عليّ عليه السلام مع أبيه وأمّه وأخيه، في منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه.. يُرزقون ويُحْبَرون. وإنّه لَعَن يمين العرش متعلّق به، يقول: «يا ربِّ.. أنْجِزْ لي ما وعدتني». وإنّه لَينظر إلىٰ زوّاره، فهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما في رحالهم مِنْ أحَدِهم بولده. وأنّه لينظر إلىٰ مَن يبكيه، فيستغفر له، ويسأل أباه الاستغفار له، ويقول: أيّها الباكي.. لو علمتَ ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر ممّا حزنت. وإنّه لَيستغفر له من كلّ ذنب وخطيئة»[2].

بعدها حكىٰ لي الأستاذ حادثة وردت في كتاب (بحار الأنوار)، تركتْ فيّ أثراً بليغاً. جاء في (البحار)، عن السيّد علي الحسينيّ أنّه قال:

كنت مجاوراً في مشهد مولاي عليّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام مع جماعة من المؤمنين. فلمّا كان اليوم العاشر من شهر المحرّم.. ابتدأ رجل من أصحابنا يقرأ مقتل الحسين عليه السلام. فوردتْ رواية عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَن ذَرَفَت عيناه علىٰ مصاب الحسين ـ ولو مثل جناح البعوضة ـ غفر الله له ذنوبه.. ولو كانت مثل زَبَد البحر».

---

(١) المصدر السابق ٤٤: ٢٨٥.

(٢) المصدر السابق ٤٤: ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق ٤٤: ٢٩٢.

وكان في المجلس معنا جاهل مركّب يدّعي العلم ولا يعرفه. فقال: ليس هذا بصحيح، والعقل لا يعتقده. وكثر البحث بيننا، وافترقنا عن ذلك المجلس وهو مصرّ علىٰ العناد في تكذيب الحديث.

فنامَ ذلك الرجل تلك الليلة.. فرأىٰ في منامه كأنّ القيامة قد قامت، وحُشِر الناس في صعيدٍ صَفْصَف لا ترىٰ فيه عِوَجاً ولا أمْتاً.. وقد نُصِبَت الموازين، وامتدّ الصّراط، ووضع الحساب، ونُشِرت الكتب، وأُسْعرت النيران، وزُخْرُفَت الجِنان. واشتدّ الحرّ عليه، وإذا هو قد عطش عطشاً شديداً، وبقي يطلب الماء، فلا يجده.

فالتفت يميناً وشمالاً.. وإذا هو بحوض عظيم الطول والعرض. قال: قلت في نفسي: هذا هو الكوثر! فإذا فيه ماء أبرد من الثلج وأحلىٰ من العذب. وإذا عند الحوض رجلان وآمرأة.. أنوارهم تشرق علىٰ الخلائق، ومع ذلك: لبسهم السّواد، وهم باكون محزونون.

فقلت: مَن هؤلاء؟

فقيل لي: هذا محمّد المصطفىٰ، وهذا علىٰ المرتضىٰ، وهذه الطاهرة فاطمة الزهراء.

فقلت: ما لي أراهم لابسين السّواد، وباكين محزونين؟

فقيل لي: أليس هذا يوم عاشوراء.. يوم مقتل الحسين؟! فهم محزونون لأجل ذلك.

قال: فدنوتُ إلىٰ سيّدة النساء فاطمة، وقلت لها: يا بنت رسول الله.. إنّي عطشان. فنظرتْ إليّ شزراً، وقالت لي: أنت الذي تنكر فضل البكاء علىٰ مُصاب ولدي الحسين، ومهجة قلبي، وقرّة عيني.. الشهيد المقتول ظلماً وعدواناً؟! لعن الله قاتليه وظالميه ومانعيه من شرب الماء!

قال الرجل: فانتبهت من نومي فَزِعاً مرعوباً، واستغفرت الله كثيراً، وندمتُ علىٰ ما كان منّي. وأتيت إلىٰ أصحابي الذين كنت معهم، وخبّرت برؤياي، وتبتُ إلىٰ الله (عزّ وجلّ)(١).

ثمّ أنّ الأستاذ قال لي: إذا أردتَ أن يرضىٰ الله عنك ـ يا بُنَيّ ـ كلّ الرّضا.. فابْكِ علىٰ سيّد الشهداء عليه السلام وبَكِّ غيرك عليه، يغفرِ الله لك ويَتُب عليك.

ومن حينها ازداد بكائي علىٰ أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ فكنت أذكر فاجعته بمفردي وأبكي مردّداً ما أحفظ من أبيات شعر في الرثاء، أو أجمع أهل بيتي، وأقرأ لهم شعر المراثي أبكي وأُبْكيهم.. وقد روىٰ لي أستاذي يوماً أنّ أبا هارون المكفوف قال:

قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: يا أبا هارون.. أنْشِدْني في الحسين عليه السلام. قال: فأنشدتُه. فقال لي: أنْشِدْني كما تُنْشدون ـ يعني: بالرقّة. قال: فأنشدته (القصيدة):

أُمْرُرْ علىٰ جَدَثِ الحُسَيْـ ـنِ، وقُل لأعْظُمِهِ الزكيّه

قال: فبكىٰ الإمام عليه السلام. ثم قال: زِدْني. فأنشدته القصيدة الأخرىٰ. قال: فبكىٰ.. وسمعت البكاء من خلف السِّتْر(٢).

قال: فلمّا فرغت.. قال: يا أبا هارون، مَن أنشد في الحسين شعراً فبكىٰ وأبكىٰ عشرة.. كتبت لهم الجنّة. ومن أنشد في الحسين شعراً فبكىٰ وأبكىٰ خمسة.. كتبت لهم الجنّة. ومن أنشد في الحسين شعراً فبكىٰ وأبكىٰ واحداً.. كتبت لهما الجنّة. ومَن ذُكر الحسين عنده، فخرج من عينيه من

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٣ ـ ٢٩٦.

(٢) أي بكاء النساء من داخل الدار، وراء الستر المضروب.

الدمع مقدار جناح ذبابة. . كان ثوابه على الله (عزّ وجلّ)، ولم يَرْضَ له بدون الجنّة[1].

وقد ورد ما يناظر هذه الرواية ويماثلها في فضل البكاء على عزيز الله الحسين عليه السلام عن صالح بن عقبة، وعليّ بن مهزيار، ومحمّد بن اسماعيل[2]. وهكذا حالفتني العناية ـ من خلال برنامج البكاء الحسينيّ المقدّس ـ أن أعبر مرحلة التوبة، فأكون بهذا قد طويت خطوة فائقة الأهميّة في هذا السّبيل.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٨.

(٢) يُنظر مثلاً: ثواب الأعمال ٤٨: كامل الزيارات ١٠٥ ـ ١٠٦؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٩.

زيارة الإمام الرضا عليه السلام

روىٰ أحد الأصدقاء، فقال:

كان في البلدة التي أحيى فيها ـ وتقع في غرب إيران ـ فساد غير قليل، ممّا جعلني أنفعل بهذه البيئة الفاسدة فأتلوّث بالمعاصي والآثام.

وتوفي يوماً أحد معارفي.. فمضيت مع من مضىٰ إلىٰ دفنه في مقبرة البلدة. وهناك شَدّ انتباهي العالَمُ الآخر الذي يَعْبر إليه المرء بعد موته ورحيله عن هذه الحياة الدنيا. وفكّرت في نفسي ومصيري قائلاً: لو أنّ الموت ينزل بي الآن.. فكيف تراني أواجه ربّي وقد احتطبتُ علىٰ ظهري كلّ هذه الخطايا والذنوب؟! وما زلت أفكر في الموت، وفي غربتي فيه، ولقائي الله وحدي أنوء بأثقال المعاصي.. حتىٰ انقلبت حالتي من الداخل، وجلست في المقبرة أبكي وانتحب علىٰ نفسي.. وقد طار لبّي من الحيرة والخوف. ترىٰ: أيمكن أن أتدارك نفسي قبل حلول أجلي؟ وهذه الجنايات والمآثم.. كيف السبيل إلىٰ الخلاص منها والتطهّر من أدناسها؟! ولمّا قضيت وطراً من البكاء وعتاب النفس.. نهضت، وذهبت إلىٰ الدار.. وأنا لا أدري إلىٰ من أشكو ما أعاني، وأين أيمّم وجهي لألقىٰ ما يعيدني إلىٰ جادّة الصّواب.

وإذ أنا كذلك.. تذكرت صديقاً طيّباً، فقلت: ما ضرّني لو حكيت له، فلعلّي أجد لديه ما ينفعني في هذه الأزمة الروحيّة. ثم إنّي مضيت فعلاً إليه.

فقال لي ـ بعد أن سردتُ عليه معاناتي ـ: إنّ لي أستاذاً في مدينة أخرىٰ، ينبغي أن أعرض مشكلتك عليه.

وبعد جهد وعناء استطاع هذا الصديق أن يتّصل بأستاذه تلفونياً.. فكان الجواب أنّ عليّ أن أذهب إلىٰ مشهد لزيارة الإمام الرضا عليه السلام؛ فإنّ زيارته تطهّر من كلّ الذنوب.

عندها قرّ قراري أن أتوجّه إلىٰ مشهد.. وهكذا فعلت. وقبل السفر إلى مشهد مررت بذلك الأستاذ أسأله عن آداب الزيارة، فمن الخير لي ـ هكذا فكّرت ـ أن أزور وأنا ملتزم بآداب الزيارة الخاصّة.

حدّثني ـ حين ذهبت إليه ـ عن أهميّة الزيارة، وعن أثرها في غفران الذنوب.. فقال:

وَرَد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«سَيُقْتَل رجل من ولدي بأرض خراسان بالسمّ ظلماً. اسمه اسمي، واسم أبيه اسم ابن عمران موسىٰ عليه السلام. ألاَ فمن زاره في غربته.. غفر الله ذنوبه ما تقدّم منها وما تأخّر، ولو كانت مثل عدد النجوم وقَطْر الأمطار وورق الأشجار»(١).

وقال الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام:

«مَنْ زار قبر أبي عليه السلام بطوس.. غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. فإذا كان يوم القيامة نُصِب له منبر بحذاء منبر رسول الله صلى الله عليه وآله.. حتىٰ يفرغ الله من حساب عباده»(٢).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

---

(١) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٤.

«يُقتَل (أحد) حَفَدَتي بأرض خراسان، في مدينة يقال لها «طوس». من زاره عارفاً بحقّه أخذته بيدي يوم القيامة وأدخلته الجنة ـ وإنْ كان من أهل الكبائر»[1].

وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«.. ألاّ وإنّي مقتول بالسمّ ظلماً ومدفون في موضع غربة. فمن شَدّ رحله إلىٰ زيارتي استجيب دعاؤه، وغُفِر له ذنبه»[2].

وقال أبو الصَّلْت الهَرَويّ (من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام): دخل الرّضا عليه السلام القبّة التي فيها قبر هارون الرشيد، ثمّ خَطّ بيده إلىٰ جانبه، ثمّ قال:

«هذه تُربتي، وفيها أُدفَن. وسيجعل الله هذا المكان مختلَف شيعتي وأهل محبّتي. والله ما يزورني منهم زائر ولا يُسَلّم عليّ منهم مُسَلّم.. إلاّ وَجَب له غفران الله ورحمته، بشفاعتنا أهل البيت»[3].

وقال الإمام عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام:

«أهل قم وأهل آبة[4]**.. المغفور لهم؛ لزيارتهم لجدّي عليّ بن موسىٰ الرّضا عليه السلام بطوس. ألاَ ومَن زاره فأصابه**

---

(١) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٥.

(٢) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٦.

(٣) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٦.

(٤) آبَة: من المدن القديمة الواقعة بالقرب من قم.

في طريقه قطرة من السماء.. حرّم الله جسده على النار»[1].

ذكر الأستاذ هذه الأحاديث.. ثمّ قال لي: إيّاك أن تظنّ أنّ هذه مبالغات.. ذلك أنّ الله (تعالى) قد خلق الإنسان للجنّة. فإذا ما نَدِم حقّاً على ذنبه فإنّه الله يرحمه.. خاصّة إذا تَودّد إلى أحبّاء الله وزار مراقدهم. ولهذا فإنّي أوصيك ـ للتطهّر من الذنوب والآثام ـ أن تزور الإمام عليه السلام وفق الآداب التي وردت في زيارته.

ثمّ قال: أوّل ما ينبغي لك أن تعتقد بصدق أنّ الإمام حيٌّ يراك ويعلم حاجاتك.

وثاني ما ينبغي لك.. أن تعلم أنّه إمام مفترض الطاعة.

وعليك أن تُغنىٰ كلّ العناية بالتعليمات التي صدرت عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام في صدد الزيارة. ومتىٰ ما أدّيت هذه التعليمات بكامل التوجّه والإقبال.. فانّك تغدو كمن استحمّ، فاغتسل من كلّ ما عليه من الأوساخ، ثمّ ارتدىٰ ثياباً نظيفة. ألاَ ترىٰ كيف يكون احساسه عندئذ بالتخفّف والطراوة والبهجة؟!

أمّا خلاصة آداب زيارة الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام ـ كما جاءت بها الروايات ـ فهي:

الأول ـ الغسل. وقد أكّدت عليه روايات الأئمّة عليهم السلام التي تحدّثت عن آداب زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

الثاني ـ أن تلبس أنظف ثيابك وأطهرها، وتتطيّب بشيء من الطِّيب.

الثالث ـ أن يلهج لسانك وأنت تمضي إلىٰ الحرم الطاهر بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، قائلاً: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ

---

(١) بحار الأنوار ١٠٢: ٣٨.

الله، والله أكبر». مع التدبّر بمعاني هذه العبارات.

وعليك أن تستحضر في ذهنك وشعورك ـ وأنت تمشي إلىٰ الروضة المقدّسة ـ أنّك ماضٍ للقاء أعظم خلق الله، وأقدرهم وأطهرهم وأحبّهم إليه ثمّ تعمل بما تتضمّنه كتب الزيارة من الآداب.. مدركاً أنّ الهدف من وراء كلّ الآداب والعبارات التي تقرؤها في هذه الكتب هو أن تتوجه تلقاء المقام المقدّس للإمام عليّ بن موسىٰ الرضا عليه السلام.

فإذا دخلت الروضة الطاهرة وأنت حاضر القلب، متوجّه إلىٰ الإمام عليه السلام.. فينبغي أن تكون همّتك منصبّة علىٰ غفران ذنوبك أكثر من أيّ شيء آخر، فإنّ الله (جلّ جلاله) يقول في قرآنه المجيد:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

وإن خلفاء النبيّ الأكرم ـ أي الأئمة الأطهار عليهم السلام ـ هم في الرؤية الإسلاميّة عُدَلاء النبيّ صلى الله عليه وآله في كلّ شيء ما خلا النبوّة.. وإنهم لكذلك في حياتهم وبعد مماتهم. ومَن يأتِ الإمام الرضا عليه السلام أو سواه من الأئمة الهداة عليهم السلام مستغفراً تائباً من ذنوبه يَتُب الله عليه. وذلك بأن يأتي المرء الضريح المقدّس، فيعترف بذنوبه، ويطلب العفو عنها واحداً واحداً.. ويؤدّي حقّ الناس إذا كان عليه شيء من هذا الحقّ، ويعزم على أدائه في أقرب فرصة. كما يعزم على قضاء ما فاته من الفرائض والواجبات.. تائباً إلىٰ الله (تعالىٰ) توبة نصوحاً لا يحدّث نفسه بعدها بالعودة إلىٰ الذنب.. وعندئذ تتنزل عليه الرحمة وتقبل منه التوبة. ذلك أنّ الذنوب تغفر بزيارة الإمام الرضا عليه السلام، ثمّ ان التوبة والإقرار بالذنوب وبالعزم علىٰ تركها في المستقبل تعني قبول هذه التوبة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

وإذا لم تكن قد ذهبت إلىٰ الإمام عليه السلام فإنه يتحتم عليك ـ لقبول التوبة ـ أن تكابد مشقّات مُضْنية . . كأن تنخرط في صيام حتىٰ يلتصق جلدك بعظمك، وتتعهد القيام في الليل للتهجد والصلاة، وتعاني من قلة النوم، وتؤدي رياضات شرعية مُكْلِفة . . حتىٰ يقبل الله (تعالىٰ) توبتك.

بهذا التوجه هَلُمّ الآن للزيارة، واجْهَد ألاّ يُلْقي الشيطان في قلبك سوء الظنّ بالله. وبعد أدائك الزيارة امضِ إلىٰ جهة الرأس المقدّس، فصلِّ ركعتي الزيارة، ثم تسجد سجدة تبكي فيها علىٰ ذنوبك . . حتىٰ تشعر بخفّة وشفافيّة هي من علامات المغفرة. فإنْ فعلتَ هذا صَفَت صفحة قلبك . . وعليك عندئذ أن تستعدّ للسير علىٰ نهج الكمالات الروحيّة، للوصول إلىٰ الغاية الكبرىٰ.

ولا تظننَّ أنّك بالتخفف والتطهّر من الآثام قد بلغت الغاية المبتغاة. إنّ كلّ ما تكون قد حصلت عليه الآن هو التهيّؤ لقبول الحقائق والسير إلى الله، ولم تبدأ فعلاً ولا خطوة واحدة في طريق الكمالات. وعلىٰ طبق ما ورد في الروايات . . فإنّ أكثر ما تكون قد نِلْتَه بعد الزيارة والغفران هو أنّك أصبحت كما كنت يوم ولدتك أمّك طفلاً غير مكلّف ولم ترتكب ذنباً بعد. ولا شكّ أن المرء لا ينبغي له أن يقنع بهذا المستوىٰ من الصلة بالله، بل عليه أن ينطلق من هذه الحالة انطلاقة جديدة نحو الكمالات الروحيّة؛ لأنّ الاكتفاء بمحض التوبة والتطهّر من الأوزار القديمة لا يجعل المرء من أولياء الله.

قال لي الأستاذ هذا كلّه، ثمّ ودّعته شاكراً . . ومضيت ـ وفق هذه الإرشادات ـ لزيارة الإمام الهمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام . وبعد هذه الزيارة . . أحسست بشكل واضح بعلائم قبول التوبة والتطهّر من الآثام، فشكرت الله (تباركت آلاؤه) علىٰ هذه الهداية. ومن يومها سلكت الدرب لأطوي مراحل السير والسلوك.

توبة آدم عليه السلام

روىٰ لي هذه الواقعة مراراً . . شخص غدا بعدئذ من الأولياء الصالحين. قال:

ذهبت مرة إلىٰ مجلس عزاء أقيم بمناسبة يوم استشهاد الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام في الخامس والعشرين من شهر رجب. وفي المجلس ارتقىٰ المنبر أحد الواعظين ـ وكان من الأتقياء ـ فذكر فيما ذكر قصّة توبة آدم عليه السلام . النقطة التي لفتتني في الموضوع أنه قال: إنّ آدم ظلّ يبكي نادماً تائباً مدّة مئتي سنة حتىٰ قَبِل الله توبته. هالني ما سمعت وأحدث فيَّ فزعاً شديداً. إنّ المسألة مسألة جِدّ لا هزل فيه! مئتا سنة كاملة. . وآدم يبكي مستغفراً متضرّعاً إلى الله ليغفر له عملاً مكروهاً (كما قال الواعظ) كان قد عمله، حتىٰ قَبِل الله بعدها توبته! فكيف بي أنا إذنْ وقد اقترفتُ مع الله كلّ هذه الذنوب الكثيرة، كبيرةً وصغيرة؟!

كانت حالة من الوحشة والرّهبة الجليلة هي التي تسلّطتْ عليّ، فعافت نفسي الطعام والنوم أيّاماً، قابعاً في زاوية أبكي علىٰ نفسي وأنوح. . وقد تملّكني اليأس.

وأُنهي خبري إلىٰ عالم من أهل المعنىٰ. . فقصدني في مكاني وقال لي

يَعِظُني: إنّ الله (سبحانه وتعالىٰ) ليتوقّع من الإنسان أن يخطىء. ولو لم يُشدّد علىٰ آدم أبي البشر ـ وهو نبيّ ـ إلىٰ هذا الحدّ.. لاجترأ الناس علىٰ مخالفة أمر الله جرأة أكثر ممّا هم عليه. وقد أنزل الله ـ لأمّة رسول الله محمّدﷺ ـ هذه الآية في القرآن؛ إكراماً له.. إذ قال (تعالىٰ):

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾(١).

عليك إذَنْ ـ قال ـ ألاّ تيأس من رحمة الله، وليكن همّك في الانفلات من قبضة المآثم والذنوب.

عندها عزمت عزمي علىٰ التوبة والتنصّل إلى الله مما كنت اقترفت.. وقد ملأني الأمل برحمة الله ورجاء عفوه ومغفرته. فأخذت اغتسل غسل التوبة كلّ يوم، وأصلّي صلاة التوبة، وأتضرّع بين يَدَي الله بـ«مناجاة التائبين»، وواظبت بعد صلاة التوبة علىٰ الاستغفار المرويّ عن الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام، وهو: «أستغفرُ الله الذي لا إلٰهَ إلاّ هو الحيُّ القيّوم، بديعُ السّماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، وأسأله أنْ يتوبَ عَلَيّ».

كما التزمتُ ـ في ليالي الجمعات ـ أن أدعو بدعاء (كُمَيْل) ودعاء (أبي حمزة الثُّماليّ).. بمزيد من التوجّه والاقبال. وكنت أقول كلّ يوم: «أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحيُّ القيّوم، الرحمٰنُ الرحيم، بديعُ السّماوات والأرض.. من جميع ظُلْمي وجُرْمي وإسرافي علىٰ نفسي، وأتوب إليه».

وإذ وَرد في حديث الإمام الصادقعليه السلام أنّ رسول اللهﷺ كان يقول كلّ يوم: «أسْتَغْفِرُ الله» ـ سبعين مرّة، ويقول سبعين مرّة أيضاً: «أتوبُ إلى الله».. فإنّي التزمت بهذا الاستغفار أيضاً؛ تأسّياً بالنبيّﷺ.. ممّا منحني

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

حالة روحيّة طيّبة. وكنت أناجي بهذه المناجاة أيضاً كلّ يوم:

«اللهمّ.. إنّي قَصَدتُ إليك باخلاصِ توبةِ نَصُوح، وتثبيتِ عَقْدِ صحيح، ودعاء قلبِ قريح، وإعلانِ قولِ صريح.

اللهمّ.. فتقبّلْ منّي مخلص التوبة، وإقبال سريعِ الأوبة ومَصارعَ تَخَشّع الحَوْبة.

وقابِلْ ـ رَبِّ ـ توبتي بجزيلِ الثواب، وكريم المَثاب، وحَطِّ العقاب، وصَرْف العذاب، وغُنْم الإياب، وسَتْر الحِجاب.

وامْحُ ـ اللهمّ ـ ما ثَبَت من ذنوبي، واغسلْ بقبولها جميع عيوبي. واجْعَلْها جاليةً لقلبي، شاخصةً لبصيرة لُبّي، غاسلةً لِدَرَني، مطهِّرةً لنجاسةِ بَدَني، مُصَحِّحةً فيها ضميري، عاجلة إلىٰ الوفاء بها بصيرتي (أو: مصيري).

واقْبَلْ ـ يا ربِّ ـ توبتي؛ فإنّها تَصْدُر من إخلاص نيّتي، ومَحْضِ من تصحيح بصيرتي، واحتفالاً في طَوِيّتي، واجتهاداً في نقاء سريرتي، وتثبيتاً لإنابتي، ومُسارعةً إلىٰ أمرك بطاعتي.

واجْلُ ـ اللّهُمَّ ـ بالتوبة عنّي ظُلْمةَ الإصرار، وامْحُ بها ما قدّمتُه من الأوزار. واكْسُني لباسَ التقوىٰ، وجلابيبَ الهُدىٰ؛ فقد خلعتُ رِبَقَ المعاصي عن جلدي، ونزعتُ سربال الذنوب عن جسدي.. مستمسكاً ـ ربِّ ـ بقدرتك، مستعيناً علىٰ نفسي بعزّتك، مستودعاً توبتي من النَّكْثِ بِخَفَرَتك، معتصماً من الخِذلان بعصمتك، مقارناً به لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بك».

ومن الدعوات التي كنت أُعنىٰ بها (دعاء طلب التوبة) من أدعية الصحيفة السجّاديّة للإمام زين العابدين عليه السلام . . وسواه ممّا كنت أجده في كتب العبادة والدعاء.

وبعد هذه الملازمة الجادّة لحالة الإنابة والتوبة والاستغفار، وخلال حُسْن ظنّي بالله وأملي العظيم فيه . . بدأت أحسّ أنّ الله (تبارك وتعالىٰ) قد عفا عني وقبل توبتي: أحسست بخفّة في باطني لا توصف، تصحبها لذّة معنويّة ونشوة روحيّة هي من أثر هذا العفو الإلهيّ الحبيب وهذا الغفران الذي غمر وجودي كلّه بالأُنس والأريحيّة. وقد ظفرت بعدها بحالة من التوجّه والإقبال بحيث أيقنت أنّ الله (تعالى) قد فرح بعودتي إليه، وكأنّه يتكلّم معي . . وكأنّي أراه.

ولقد كانت هذه لي علامات لقبول توبتي. وبقي عليّ أن أسعىٰ جادّاً للسفر في سائر مراحل السّيْر والسلوك. وقد أكّد لي الأستاذ ـ حين بيّنت له ما لقيت ـ قبول التوبة، وعلّمني ما يلزمني لما بعد مرحلة التوبة والإنابة . . وبعون الله (تعالىٰ) أمكنني أن أطوي مراحل من الطريق.

جارنا.. شفع لي

ما زلت أذكر، في أيام طفولتي، أنّ أبي قد أوصاني عدّة مرّات ألا آتي عملاً معيّناً ولا أفعله. وما زلت أذكر كيف أنّي اجترأت يوماً وفعلت ما نهاني أبي عنه.. فغضب عليّ واشتدّ به الانفعال، وأراد أن يعاقبني بالضرب. لكنّ رأفته الأبويّة حالت دون ضربي.. فَعَمد إلىٰ شيء آخر (وقد ادركت القضيّة فيما بعد)، إذ ذهب إلىٰ جارنا، وطلب منه أنْ إذا حملت العصا في الساعة الفلانية لأضرب ولدي.. فعليك أن تأتي وتتدخل في الحال، ولا تدعني أضربه. فقال له الجار: إذَنْ لماذا لا تقرّر من الآن ألا تضربه؟! قال أبي: إنّ لهذا الذي اقترحته عليك عدّة فوائد:

الفائدة الأولىٰ: أن يدرك كم كانت مخالفته قبيحة، وأنّها تستحق الضرب.

الثانية: أن يعلم أنّي أُكِنّ للجار ـ أي أنتم ـ احتراماً كبيراً، وأنّي قد غضضت الطرف عن معاقبته إكراماً لكم.

الثالثة: لأنّي أحبّه، ولا أريد إيذاءه.. فانّي لا أضربه. غير أنّي لا أريد أن أفرّط في تربيته فلا أصدّه عن إتيان الأعمال السيّئة. ولهذا أطلب منك إذا رأيتني أرفع العصا لأضربه أن تمسك بيدي ولا تدعني أُنزل به العقاب.

واستجاب الجار لطلب أبي، فنجوت من ضربات العصا. . لكنّي قد أدركت فعلاً سوء عملي. وفكّرت في طفولتي تلك بهذه الحادثة ـ بعد أن فهمت أبعاد ما صنع أبي. قلت في نفسي: إنّ أبي لرجل عاقل لبيب حكيم! إذ الذي حدث بعد تلك الحادثة أني ارتكبت يوماً خطأً آخر، فوجدتني أبادر إلىٰ جارنا أتوسّل إليه أن يشفع لي عند أبي! فَشَفع لي فعلاً هذا الجار. وقد قرأت علىٰ وجه أبي هذه المرّة علائم الارتياح عندما قال لي: لقد ادركتَ الآنَ قبل أن تُضْرَب أنك قد فعلت فعلة سيئة، وأدركتَ في الوقت نفسه قيمة الجار لديّ.

وقد ظلّت هذه المسألة عالقة في ذهني إلى أن كبرت. ولمّا اطّلعت علىٰ موضوع «الشفاعة» في الإسلام استبان لي أن الحكمة من وراء الشفاعة هي نفسها الحكمة التي كان يستبطنها أبي مما قام به في طفولتي.

ومعنىٰ هذا أنّ الله (جلّ جلاله) يريد أن يلقي محبّة أوليائه في قلوب الناس، ويريد أن يخلّص عباده من العذاب، ويريد كذلك أن يُفْهِمهم سوء ما اجترحوه وما يستوجبونه علىٰ ما عملوا من الجزاء. . ولهذا كلّه كان موضوع «الشفاعة».

وبعد أن سلخت سنوات من شبابي. . كنت قد اقترفت كثيراً من المعاصي والذنوب التي أوقرت أثقالها ظهري، وحِرْت في أمري. . فالزمان يمرّ سريعاً، ولا أدري كيف الخلاص من محنتي هذه! حتىٰ التقيت يوماً بأحد علماء الأخلاق. . فقال لي: عليك أن تستشفع إلىٰ الله (تعالىٰ) بأهل البيت عليهم السلام، وخاصّة بأبناء الأئمّة وأولياء الله والمظلومين في عصر نشوء الإسلام وظهوره، الذي بذلوا مُهَجَهم في سبيل الدين المقدّس. . وأن تتوسّل إلىٰ الله بهم، طالباً منه (سبحانه) الصفح والعفو؛ لأنّ الله (جلّ شأنه) قد جعلهم شفعاء لخلقه. ومتىٰ ما شفعوا لك. . عُفِيَ عن ذنوبك وغُفِرت لك الآثام.

سمعت منه هذه الكلمات.. فتمكّنت في قلبي. ذلك أنّي كنت قد جرّبت في طفولتي الشفاعة وعرفت قيمتها، فوقَر في نفسي عندئذ أن أسلك هذه الخطّة، فهي وحدها لي سبيل النجاة. ولهذا وجدتُني أسأل هذا العالم مرّة أخرىٰ عن المدّة والكيفيّة اللازمة لأداء هذا العمل كي أبلغ سريعاً هذا الهدف.

قال: إعلمْ أولاً أنّ أرواح أولياء الله أرواح حرّة طليقة، وأنّهم أُوتوا من القدرة الإلهيّة والطاقة المعنويّة ما يفوق التصوّر. إنّهم في أنس بالله (تعالىٰ) يكلّمونه.. يحبّهم ويحبّونه، يسمع دعاءهم ويجيبهم إلىٰ ما يريدون. فإذا ما جعلتهم وسطاء يشفعون لك فإنّ الله يغفر لك كلّ ذنوبك ومعاصيك.

ثمّ قال الأستاذ: توسّل إنْ استطعت بالأربعة عشر المعصومين عليهم السلام.. فهو حَسَن جدّاً. واعلم أنّ الله (سبحانه) قد أراد إكرام أوليائه بالشفاعة.. وقد جُرّب مراراً الاستشفاع بهم.. فانّي أرىٰ أن تلتزم بالتوسّل أربعين يوماً بهؤلاء الأولياء الذين قَلّ أن يتوسّل الناس بهم، مع ما لهم عند الله من الكرامة والشأن العظيم.. طالباً منهم أن يشفعوا لك عند الله، فإنّهم يطلبون لك العفو، فيقبل توبتك. وهؤلاء الأولياء هم:

١ ـ إبراهيم إبن رسول الله صلى الله عليه وآله.. المدفون في مقبرة البقيع.

٢ ـ أبو الفضل العبّاس عليه السلام. مرقده الطاهر في كربلاء المقدّسة.

٣ ـ عليّ الأكبر عليه السلام. قبره المقدّس في كربلاء.. عند رِجْلَي سيّد الشهداء عليه السلام.

٤ ـ عبد الله الرضيع عليه السلام ابن سيّد الشهداء عليه السلام الذي يقال إنّ الإمام السجّاد عليه السلام قد دفنه إلىٰ جانب الخيام.

٥ ـ القاسم بن الحسن عليه السلام.. المدفون في حومة الشهداء بكربلاء.

٦ ـ زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام . . الذي أحرق جثمانه في الكوفة، وذُرّي رماده في الهواء.

٧ ـ يحيىٰ بن زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام . . الذي دفن ـ في الظاهر ـ في منطقة (ميامي) علىٰ مسافة (٦٠) كيلومتراً من مشهد، أو في (گُنْبَد كاووس).

٨ ـ فاطمة (المعصومة) ابنة الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليهما السلام. ومرقدها الطاهر في وسط مدينة قم.

٩ ـ أحمد بن موسىٰ بن جعفر الكاظم عليهما السلام . . المدفون في شيراز، حيث يعرف هناك باسم (شاه چِراغ)

١٠ ـ إبراهيم بن موسىٰ بن جعفر عليهما السلام . . المدفون في زَنْجان.

١١ ـ حمزة بن موسىٰ بن جعفر عليهما السلام . . الذي دفن في (باغ مزار) بمدينة (كاشْمَر) أو دفن إلىٰ جوار السيّد عبد العظيم الحسني في مدينة (الريّ) بطهران.

١٢ ـ سيّد محمّد ابن الإمام عليّ الهادي عليه السلام المدفون في مدينة (الدُّجَيل) بين بغداد وسامرّاء.

١٣ ـ عليّ بن جعفر عليه السلام المدفون في مدينة قم.

١٤ ـ موسىٰ المُبَرْقَع عليه السلام المدفون في قم.

١٥ ـ زينب الكبرىٰ عليها السلام المدفونة في الشام علىٰ مسافة ١٠ كيلومتر من دمشق.

١٦ ـ أمّ كلثوم زينب الصّغرىٰ عليها السلام الدّفينة في القاهرة بمصر.

١٧ ـ سكينة بنت الحسين عليه السلام المدفونة في (باب الصغير) بدمشق.

١٨ ـ رقيّة بنت الحسين عليه السلام الكائن مزارها في (محلّة الخراب) بدمشق.

١٩ ـ خديجة الكبرىٰ عليها السلام. وقبرها في (مقبرة أبي طالب) في مكة.

٢٠ ـ آمنة بنت وهب أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله المدفونة في مكة.

٢١ ـ أمّ البنين والدة شهيد كربلاء أبي الفضل العباس عليه السلام المدفونة في المدينة المنوّرة.

٢٢ ـ نرجس عليها السلام والدة الإمام وليّ العصر (روحي فداه).. المدفونة في سامرّاء.

٢٣ ـ حكيمة بنت الإمام محمّد الجواد عليه السلام. وقد دفنت في سامرّاء.

٢٤ ـ سلمان.. المدفون في (المدائن) خارج بغداد.

٢٥ ـ أبو ذرّ الغِفاريّ.. المدفون في (الرَّبَذة) بين مكة والمدينة.

٢٦ ـ الشريف الرضيّ.. المدفون في الكاظميّة ببغداد.

٢٧ ـ الشريف المرتضىٰ.. وقبره أيضاً في الكاظميّة.

٢٨ ـ السيّد مهدي بحر العلوم.. المدفون في النجف الأشرف.

٢٩ ـ السيّد عليّ بن طاووس.. المدفون كذلك في النجف الأشرف.

٣٠ ـ العلاّمة المجلسيّ (رضوان الله تعالىٰ عليه).. الكائن مزاره في وسط مدينة اصفهان.

٣١ ـ العلاّمة الحلّي.. المدفون في النجف الأشرف.

٣٢ ـ المقدّس الأرْدَبِيليّ.. المدفون في النجف الأشرف.

٣٣ ـ السيّد أبو الحسن. وقبره في النجف الأشرف.

٣٤ ـ آية الله البروجرديّ. المدفون في مدينة قم.

٣٥ ـ الشيخ مرتضىٰ الأنصاريّ. المدفون في النجف الأشرف.

٣٦ ـ مسلم بن عقيل عليه السلام. الكائن قبره في الكوفة.

٣٧ ـ عثمان بن سعيد العَمْري. النائب الخاصّ للإمام وليّ العصر (عجلّ الله تعالىٰ فرجه).

٣٨ ـ محمّد بن عثمان بن سعيد العَمْريّ. النائب الثاني للإمام وليّ العصر (روحي فداه).

٣٩ ـ حسين بن رُوح. النائب الثالث للإمام بقيّة الله (روحي له. الفداء).

٤٠ ـ عليّ بن محمّد السَّمَريّ. النائب الرابع الخاصّ. وهؤلاء النّواب الأربعة قد دفنوا في بغداد.

إذا توجّهت إلىٰ هؤلاء الأولياء أربعين يوماً تتوسّل بهم، ولا تريد إلاّ غفران ذنوبك.. فاعلم أنّ ذنوبك تُغْفَر لك. ولسوف يمنّ الله عليك ـ اكراماً لهم ـ بلطفه وإحسانه.

وبدأتُ بتنفيذ العمل.. فسلخت أربعين يوماً في التوسّل والاستشفاع. أي كنت كلّ يوم أسلّم علىٰ هذه الأرواح الطاهرة فرداً فرداً، ثمّ اطلب من كلّ منهم أن يشفع لي عند الله في غفران الذنوب.

وفي تلكم الأيّام.. كنت أشعر ـ من خلال الرؤىٰ في المنام، والمكاشفات في اليقظة ـ أنّهم قد استجابوا لي.. فكانت عاقبة أمري أن رحمني الله (تعالىٰ) بهم وعفا عنّي. وكان الأستاذ قد قال لي في أواخر تلك الأربعين يوماً: أمَا وقد تفضّل عليك هؤلاء الأعزّاء.. فاطلب منهم الآن أن يبدّلوا سيّئاتك حَسَنات. وفعلت بما أوصىٰ الأستاذ، فأحسست ـ والحمد لله ـ أن الله قد غمرني أيضاً بهذا الفضل. وكيف لا يكون كذلك وهو القائل في

قرآنه الكريم: ﴿. . . فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[1]. . فما الذي تراه يَحُول بيني وبين هذا الفيض العظيم؟!

وعلىٰ أيّ حال. . فقد فزتُ عن هذا الطريق ببلوغ حقيقة التوبة. وغدا بيت قلبي من حينها كغرفة قد جَهِد صاحبها جهداً عظيماً في غسلها وتنظيفها وتعطيرها، فلا يرضىٰ أبداً أن يُلْقىٰ فيها شيء من الأوساخ والنفايات. وهكذا كان شأني أيضاً بعد الأربعين يوماً من التوسّل والاستشفاع، فلم أكن أريد أن أدنّس بيت قلبي بأقلّ ذنب وأدنىٰ معصية. وقد قال لي الأستاذ بعدئذ: حين يحدث يوماً أن يصدر منك ذنب ـ لا سمح الله ـ فعليك ألاّ تدع ذنبك يُثْقل كاهلك، بل عليك أن تبادر إلىٰ التوبة وتطهير بيت قلبك، لتحفظه دائماً علىٰ نظافته وطهارته. . تماماً كما يبادر من بذل جهوداً لتنظيف الغرفة ثمّ أُلقي فيها شيء من الوسخ، فإنّه لا يهدأ له بال حتىٰ يعيد تنظيفها ويصونها من التلوّث.

وكانت هذه تعليمات قيّمة التزمت بتنفيذها، وبعدها وجّهني الأستاذ تلقاء مرحلة أخرىٰ من السّير إلىٰ الله.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

قراءة القرآن

كان أبي قد أوصاني، في أيّام شبابي، أن أواظب كلّ يوم على قراءة ما لا يقلّ عن نصف جزء من القرآن.. بتدبّر وتوجّه إلى معانيه. وهكذا كنت ابتدأت بقراءة القرآن يوميّاً، أغسل به ما على مرآة قلبي من الأدران. ورغم هذا.. فإنّي ما كنت أظن أنّ للمداومة على قراءة القرآن كلّ هذه الفوائد. ذلك أنّي كان لي صديق يماثلني في المشاعر والأفكار، وكان همّنا أن نقطع معاً طريق الكمالات الروحيّة. فاستعنّا بأستاذ ليرشدنا فيما نريد أن نمضي إليه.

قال الأستاذ لصديقي: أنت بحاجة أن تجهد زماناً في مرحلة التوبة لتتأهل للسير في مراحل الكمالات الروحيّة.

لكنّ صديقي وَدّ لو أنّ الأستاذ ينظّم لنا ـ أنا وهو ـ خطّة واحدة.. نتآزر فيها على المسير. فقال له الأستاذ: أرى في روحك ظلمات تحتاج إلى مدّة لإزالتها، وليس في صديقك مثل هذه الظلمات.

قال صديقي للأستاذ: إننا ـ أنا وهو ـ متماثلان تماماً في العمل وفي التوجّه والأخلاق.. ولهذا فإنّي أؤدّي من الأعمال ما يؤدّيه هو.

قال الأستاذ: لا أظنّ المسألة كما تقول. ثم إنّ الأستاذ سألني: أكنتَ

تقوم بعبادة خاصّة جعلتك متخفّفاً من الظلمات، وأورثتْ قلبك الصّفاء؟

ومع أنّي كنت أتكتّم علىٰ مواظبتي اليوميّة علىٰ قراءة القرآن إلاّ أنّي قلت ـ استجابة للأستاذ ـ: أجل، أقرأ كل يوم نصف جزء من القرآن. فقال له الأستاذ: هذا هو الذي يجعلك في حاجة إلىٰ تجشّم ما لا يحتاج صديقك أن يتجشّمه من عناء.

وعندئذ أوصىٰ الأستاذ صديقي هذا بوصايا شاقّة لتوبته. فقال له الصديق: أيكون بامكاني حين أبدأ منذ الآن بتلاوة نصف جزء من القرآن أن أتطهّر من الأدناس؟ فقال الأستاذ: عليك أن تعمل بما أوصيتك لتقدر علىٰ السير في طريق الكمالات.. بأن تلتزم مثل صديقك بقراءة ما لا يقلّ عن نصف جزء من القرآن، ثمّ تعمل بما ورد في الروايات عن النبيّ ﷺ:

الأول: أن تُرضي خصماءك عنك.

الثاني: أن تضيف عبادات أخرىٰ إلىٰ ما تؤدّيه من المستحبّات.

الثالث: أن تتخلىٰ عن الثياب التي كنت قد ارتديتها لمعصية، ولا ترتديها بعد الآن.

الرابع: أن تترك من كانوا أصدقاءك في زمان عصيانك، فمن الممكن أن تنجرّ لو بقيت علىٰ معاشرتهم إلىٰ المعصية من جديد.

الخامس: أن تبدل مجالسك السابقة إلىٰ مجالس لذكر الله.

السادس: أن تستبدل بأثاث الدار ووسائل الرفاه والزينة التي تميل بك إلى الذنب أثاثاً ووسائل أخرىٰ.

السابع: أن تبدّل خُلقك وأفكارك.. حتىٰ لا يبقىٰ فيك غير النيّة الخيّرة والخصال الحسنة.

الثامن: أن تكون واسع الأفق، مبسوط الصدر واليد.

التاسع: أن تقلل من آمالك في الدنيا، وتحفظ لسانك.

العاشر: أن تنفق ما فَضُل عن حاجتك من الطعام في سبيل الله، ولا تُعْنَ كما مضىٰ بتنويع المائدة وتجويد الطعام.

فإذا تمكّنت فيك هذه الخصال وتعوّدتَ عليها.. فإنّ توبتك مقبولة[1].

ثمّ انّ الأستاذ أوصىٰ لإيجاد كلّ واحدة من هذه الخصال بتعليمات خاصّة، ممّا لَفَتَني أكثر من غيري أنّ علىٰ الإنسان أن يوجّه كل وجوده وكينونته إلىٰ الله وإلىٰ سبيل الله، فلو تاب قلبه وظلّ في عمله مذنباً، أو كان سليم العمل لكنّ قلبه ما يزال يحنّ إلىٰ المعصية.. فانّه والحالة هذه ما تاب توبة صادقة، وما عاد إلىٰ الله العودة المطلوبة.

وأوصىٰ الأستاذ بالإكثار من ذكر: «يا تَوّاب»، قائلاً: ينبغي أن تلْهَج بهذا الإسم المقدّس ألف مرّة في اليوم علىٰ أقلّ تقدير، واعلمْ أنّ الله يتوب علىٰ العصاة والمذنبين.. وإذا مشيت إليه خطوة واحدة مشىٰ إليك عشر خطوات. ثمّ أكد الأستاذ علىٰ الاستغفار، واستدلّ بحديث الإمام الصادق عليه السلام: «مَن أُعطيَ الاستغفار لم يُحرَم التوبة». وحديث الإمام الباقر عليه السلام: «كفىٰ بالندم توبة»[2].

وقال الأستاذ: مَن تابَ إلىٰ الله أحبّه الله.. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «تُوبوا إلىٰ الله (عزّ وجلّ) وادْخُلوا في محبّته؛ فإنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين، والمؤمن توّاب»[3].

وتابع يقول: ولمعرفة مدىٰ حبّ الله لمن تاب من عباده.. نقرأ قول

(١) بحار الأنوار ٦: ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) المصدر السابق ٦: ٢٠.
(٣) المصدر السابق ٦: ٢١.

الإمام الرّضا عليه السلام: «مَثَل المؤمن عند الله (عزّ وجلّ) كَمَثل مَلَك مقرَّب. وإنّ المؤمن عند الله (عزّ وجلّ) أعظم من ذلك. وليس شيء أحبّ إلىٰ الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة»[1].

واعلمْ أيضاً أنّ التائب الحقيقيّ لا يبقىٰ عليه ذنب.. كما روىٰ الإمام الرّضا عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2].

بعدئذ أوصىٰ الأستاذ بصيام أيّام الأربعاء والخميس والجمعة[3]. وأن أغتسل ليلة السبت غسل التوبة، وأصلي بعده ركعتين وأسأل الله العفو. فإذا فعلتَ ذلك ـ قال ـ واستغفرت عطّرك الاستغفار، فلم تفضحك روائح الذنوب[4]. بشرط أن تكون توبتك نصوحاً لا تعود بعدها إلىٰ ذنب[5]، وأن يكون باطنك كظاهرك[6].

هنا قال صديقي للأستاذ: أخشىٰ ألاّ يغفر الله لي، فذنوبي كثيرة، ولا أظنّ أن يُعفىٰ عنّي بهذه السهولة، أو أن أعود إلىٰ الله بكلّ هذه المعاصي!

قال الأستاذ: إذنْ.. تعال أقصّ عليك ما رواه الشيخ الصّدوق (رحمه الله) في كتابه (الأمالي)، لتنبذ عنك سوء الظنّ بالله. ذلك أنّ الله يتوب علىٰ من تاب إلىٰ الله مهما كان قدر ذنوبه وآثامه:

دخل معاذ بن جبل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله باكياً، فسلّم فردّ عليه السلام.

---

(١) المصدر السابق ٦: ٢١.
(٢) المصدر السابق ٦: ٢١.
(٣) المصدر السابق ٦: ٢٢.
(٤) المصدر السابق ٦: ٢٢.
(٥) المصدر السابق ٦: ٢٢.
(٦) المصدر السابق ٦: ٢٢.

ثم قال: ما يبكيك يا معاذ؟ فقال: يا رسول الله، إنّ بالباب شاباً نقيّ اللون، حسن الصورة، يبكي بكاء الثكلى على ولدها.. يريد الدخول عليك.

قال النبيّ ﷺ:

أدخِل عَلَيّ الشاب يا معاذ. فأدخله عليه.. فسلّم، فردّ عليه السلام، ثم قال: ما يبكيك يا شابّ؟ قال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً إنْ أخذني الله (عزّ وجلّ) ببعضها.. أدخلني نار جهنّم، ولا أراني إلاّ سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً

فقال رسول الله ﷺ: هل أشركتَ بالله شيئاً؟ قال: أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً. قال: أقتلتَ النفس التي حرّم الله؟ قال: لا. فقال النبيّ ﷺ: يغفر الله لك ذنوبك وانْ كانت مثل الجبال الرواسي. فقال الشابّ: فانّها أعظم من الجبال الرواسي! فقال النبيّ ﷺ: يغفر الله لك ذنوبك وإنّ كانت مثل الأرضين السّبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق. قال: فإنّها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق! فقال النبيّ ﷺ: يغفر الله ذنوبك وإنّ كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسيّ. فقال: فإنها أعظم من ذلك!

فنظر النبيّ ﷺ إليه كهيئة الغضبان، ثمّ قال: ويحك يا شابّ.. ذنوبك أعظم أمّ ربّك؟! فخرّ الشابّ لوجهه وهو يقول: سبحان ربّي، ما شيء أعظم من ربّي.. ربّي أعظم يا نبيّ الله من كلّ عظيم. فقال النبيّ ﷺ: فهل يغفر الذنب العظيم إلاّ الربّ العظيم؟ قال الشابّ: لا والله يا رسول الله. ثم سكت الشابّ، فقال له النبيّ ﷺ: ويحك يا شابّ.. ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟

قال: بلىٰ، أخبرك. اني كنت أنبش القبور سبع سنين، أُخرج الأموات، وأنزع الأكفان. فماتت جارية من بعض بنات الأنصار، فلمّا حُملت إلىٰ قبرها ودفنت، وانصرف عنها أهلها، وجنّ عليهم الليل. . أتيت قبرها فنبشته، ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها، وتركتها متجرّدة علىٰ شفير قبرها. . ومضيت منصرفاً. فأتاني الشيطان. . فأقبل يزيّنها لي، ويقول: أما ترىٰ بطنها وبياضها؟ أما ترىٰ وركيها؟ فلم يزل يقول لي هذا. . حتىٰ رجعت إليها، ولم أملك نفسي حتىٰ جامعتها وتركتها مكانها. فإذا أنا بصوت من ورائي يقول: يا شابّ، ويل لك من ديّان يوم الدين، يوم يَقِفُني وإيّاك. . كما تركتني عريانة في عساكر الموتىٰ، ونزعتني من حفرتي، وسلبتني أكفاني، وتركتني أقوم جَنِبة إلىٰ حسابي. . فويل لشبابك من النار! فما أظنّ أنّي أشمّ ريح الجنّة أبداً. فما ترىٰ لي يا رسول الله؟

فقال النبيّ ﷺ: تَنَحّ عنّي يا فاسق! إنّي أخاف أن أحترق بنارك. . فما أقربك من النار! ثم لم يزل يقول ويشير إليه حتىٰ مضىٰ من بين يديه.

فذهب فأتىٰ المدينة، فتزوّد منها. ثمّ أتىٰ بعض جبالها، فتعبّد فيها، ولبس مسحا، وغلّ يديه جميعاً إلىٰ عنقه، ونادىٰ: يا ربّ. . هذا عبدك بين يديك مغلول! يا ربّ أنت الذي تعرفني، وزلّ منّي ما تعلم يا سيّدي. يا ربّ إنّي أصبحت من النادمين، وأتيت نبيّك تائباً فطردني وزادني خوفاً. فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك. . أن لا تخيّب رجائي سيّدي. ولا تبطل دعائي، ولا تقنّطني من رحمتك. فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة، تبكي له السباع والوحوش.

فلمّا تمّ له أربعون يوماً وليلة. . رفع يديه إلىٰ السماء، وقال: اللهمّ ما فعلت في حاجتي؟ إنْ كنت استجبتَ دعائي، وغفرت خطيئتي. . فأوح إلىٰ نبيّك. وانْ لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتي. . فعجّل بنار تحرقني، أو عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلّصني من فضيحة يوم القيامة.

فأنزل الله (تبارك وتعالىٰ) علىٰ نبيّه ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[1] يعني: الزنى، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: بارتكاب ذنب أعظم من الزنى، ونبش القبور، وأخذ الأكفان ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: خافوا الله فعجّلوا التوبة. ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يقول (عزّ وجلّ): أتاك عبدي يا محمّد تائباً. . فطردته. فأين يذهب؟! وإلىٰ مَن يقصد؟! ومَن يسأل أن يغفر له ذنباً غيري؟ ثمّ قال (عزّ وجلّ): ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. يقول: لم يقيموا علىٰ الزنى ونبش القبور وأخذ الأكفان. . ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[2].

فلمّا نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ خرج، وهو يتلوها ويتبسّم، فقال لأصحابه:

من يدلّني علىٰ ذلك الشابّ التائب؟ فقال معاذ: يا رسول الله. . بلَغَنا أنّه في موضع كذا وكذا. فمضىٰ رسول الله ﷺ بأصحابه. . حتىٰ انتهوا إلىٰ ذلك الجبل، فصعدوا إليه يطلبون الشابّ. فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين، مغلولة يداه إلىٰ عنقه، قد اسودّ وجهه، وتساقطت أشفار عينيه من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٦.

البكاء، وهو يقول: سيّدي. . قد أحسنت خلقي، وأحسنت صورتي. . فليت شعري ماذا تريد بي؟! أفي النار تحرقني. . أو في جوارك تسكنني؟! اللهمّ إنك قد أكثرتَ الإحسان إليّ وأنعمت عليّ. . فليت شعري ماذا يكون آخر أمري؟ إلى الجنّة تزفّني أم إلىٰ النار تسوقني؟! اللهمّ إنّ خطيئتي أعظم من السماوات والأرض، ومن كرسيّك الواسع وعرشك العظيم. . فليت شعري. . تغفر خطيئتي أمْ تفضحني بها يوم القيامة؟! فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي. . . فدنا رسول الله ﷺ، فأطلق يديه من عنقه، ونفض التراب عن رأسه، وقال: أبْشِر، فإنّك عتيق الله من النار. ثم قال لأصحابه: هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها هذا الشابّ. ثمّ تلا عليه ما أنزل الله (عزّ وجلّ) فيه، وبشّره بالجنّة»[1].

وبعد أن أورد الأستاذ هذه الرواية قال: لا ينبغي لأحد أن يسيء ظنّه بالله (تبارك وتعالىٰ)؛ فإنّه سريع الرِّضا، غفّار الذنوب، إنّه الغفّار. يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «ما أُعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنّه بالله (عزّ وجلّ)»[2].

---

(١) أمالي الصدوق ٢٦، بحار الأنوار ٦: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٦: ٢٨.

ما وَفّقني الله!

انقطعتُ عن أستاذي عدّة أشهر لم أذهب إليه. وفي أحد الأيّام أردت أن أسافر إلىٰ مكان ما.. فعَنّ لي أن أزور هذا الأستاذ قبل سفرتي. وفي الطريق إليه كنت أفكر: كيف سأعتذر إليه عن غيبتي الطويلة هذه؟ وماذا أقول له ليكون عذري مقبولاً. فخطر لي أن أقول له: أنّ الله (تعالىٰ) قد سلبني توفيق زيارته في هذه المدّة، ذلك أني طالما سمعته يقول: كلّ شيء بيد الله.

ولهذا فإني ـ حين وصلت إليه وعاتبني علىٰ هذا الانقطاع الطويل ـ قلت له: ما وفّقني الله لزيارتك قبل هذا! عندها رأيته يطلق آهة، وقد ترقرقت دمعة في عينيه، وقال: كم أنت مظلوم يا إلهي!إننا لننسب كلّ ما نفعل إليه (لأنّه فعلاً؟ لا يدافع عن نفسه)، ونلقي عليه كلّ تقصير. لم أتبيّن في البداية معنىٰ هذه العبارات، لكنه قال لي ـ بعد أن أجلسني إلىٰ جانبه وضيّفني بما تيسّر: من الصفات التي اكتسبها بعض الناس من الشيطان ـ يا ولدي ـ أنهم لا يريدون أبداً الاعتراف بتقصيرهم وذنوبهم، وأنّهم يُلْقُون تبعة أخطائهم علىٰ الآخرين. ومهما يكن لبعض الناس من التقصير ـ وهو يعرفون حقاً أنهم مقصّرون ـ فإنّهم يجهدون ما وسعهم الجهد ألاّ يظهروا بمظهر المقصّرين. ولو كان لهذه الحالة أن تزول من بين الناس ـ أي أن يتحمّل كل امرىء نتائج

خطئه وتقصيره بنفسه ـ لاندثر جُلّ الخصومات والمنازعات، ولم تعد ثمّة من حاجة إلىٰ كلّ هذه المحاكم القضائيّة.

واعلمْ أنّه كلّما عَظُمت الشخصيّة التي يحمّلها الإنسان ذنبه كان عمله أشنع وأفظع. لو أنّ أحداً ـ علىٰ سبيل المثال ـ قد أبطأ كسلاً أو غيره عن زيارة أحد الأئمّة عليهم السلام قائلاً: إنّ الإمام لم يطلبني، أو إنّ سيّد الشهداء عليه السلام ما دعاني، أو إنّ الإمام الرّضا عليه السلام لا يعدّني مؤهّلاً لزيارته.. فإنّ هذا المرء يكون قد ارتكب عملاً في غاية السوء، وأتىٰ أمراً جدّ قبيح. ولا ريب أنّهم عليهم السلام يتذمّرون منه ومن قوله. وأسوأ منه من ينسب تقصيره وأعماله القبيحة إلىٰ الله (جلّ جلاله).. كأن يقول: ما وفّقني الله للعمل الفلانيّ (مع أنّه هو نفسه قد تكاسل في أدائه وقصّر)، فإنّه يكون قد صدر منه ـ بهذا ـ أشنع عمل لمّا نَسَب إلىٰ الله العظيم ما لا يليق بساحته المقدّسة.

وقد رأينا كثيراً ممّن يَنْكِلون عن أعمال الخير والبرّ ـ لأسباب مختلفة ـ وربّما يتركون بعض الفرائض والواجبات.. وهم يقولون: ما وفّقنا الله لهذا!

وأمثال هؤلاء لا يعلمون مدىٰ غضب الله (تعالىٰ) من هذه النسبة الشائنة. وما لم يخرج الإنسان من هذه الخطيئة فلن يغفر الله له، ولن يقبل توبته.

من أجل هذا كان الاعتراف بالذنب والإقرار بالخطأ من شرائط التوبة. أي أن يتحمل المرء خطأ نفسه وينسبه إلىٰ ذاته هو، ولا يلقيه علىٰ عدم توفيق الله له وقلّة إحسانه إليه. فلا يقولَنّ امرؤ: لو لم أعاشر فلاناً، لو لم أتحدّث مع فلان، أو لو لم أتناول الطعام الفلاني.. لَما صرتُ مظلماً: أصلّي صلاة الليل قضاءً، وأغفل عن ذكر الله!

إنّ علىٰ المرء ـ ازاء كلّ ما يحلّ به ـ أن ينظر ما قدّمت يداه وما عمل.. وينظر ما يعود عليه من هذا العمل، ويلقي تبعة عمله علىٰ نفسه. ذلك أنّ ما لا يقلّ عن (٩٠٪) من هذه الظلمات وقلة التوفيق، والغفلة عن ذكر الله وما

إليها. . إنما ترتبط بما عمله المرء نفسه. ومتىٰ ما شاء أن يتوب إلىٰ الله فعليه أن يجلس باستقبال القبلة، ويجعل ضميره حاكماً، ثمّ يستعرض ذنوبه واحداً واحداً، ويعترف بها جميعاً لكي يقبل الله توبته. . فيتوب عندئذ توبة واقعيّة.

وفي هذا السياق أجد من المناسب أن أذكر لك قصّة النبيّ يونس. . لتعلم كيف أنّ الله (سبحانه وتعالىٰ) لا يشمل بعفوه ومغفرته من لم يقرّ بخطاياه ويعترف.

يقول الله (عزّ وجلّ) في سورة الصافّات وسورة الأنبياء ما مفاده: إنّ يونس لمن المرسلين. وإذ كان واعد قومه بنزول عذاب الله ثمّ كُشِف عنهم العذاب فاستحيىٰ أن يَلبث فيهم. . ذهب مغاضباً وركب في الفُلْك المشحون ليبتعد عن قومه. وأحاط الخطر بالسفينة التي ركبها فاقْتُرِح أن يلقىٰ في البحر من تخرج القرعة باسمه، فكان نصيبه أن وقعت عليه القرعة وألقي في البحر، فالتقمه الحوت وهو مُليم (يلومه قومه). . فظنّ أنّا لن نَقْدِر عليه ولن نضيّق. وإذ كان في الظلمات ـ أي بطن الحوت ـ تفطّن إلىٰ خطئه، فنادىٰ في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: لا مؤثّر مستقلاً بنفسه في العالم غيرك يا إلهي، ولستَ أنت الذي أوردتَ عليّ هذا البلاء والعذاب؛ فأنت سُبّوح مقدّس (لم أرَ منك إلاّ جميلاً). . ولكنّي أنا كنت من الظالمين. عندئذ انجيناه. ولو لم يكن من المُسَبِّحِين لنا والمقدّسين، لو كان يرىٰ نفسه غير مقصّر. . لَلَبِثَ في بطن الحوت إلىٰ يوم يُبْعَثون. فنبذناه بعد أيام في العراء مطروحاً مريضاً قرب السّاحل. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين تظلّله من حرّ الشمس. ثمّ أرسلناه إلىٰ مئة ألف أو يزيدون ليهديهم من ضلالتهم، ونجّيناه من الغمّ إذ أدان نفسه علىٰ ما كان بَدَر منه. . وكذلك نُنجي المؤمنين إذا كانوا مثله ينزّهون الله (تعالىٰ) عن ظلم العبيد، ويرون أنفسهم هم الظالمين.

ونفهم من هذه القصّة أنّ يونس عليه السلام لو لم ينزّه الساحة الإلهيّة

المقدّسة، ولو لم يسبّح الله ويقدّسه، ولا يرىٰ نفسه هو من الظالمين المذنبين فلا يعترف بتقصيره.. لظلّ معذّباً في بطن الحوت إلىٰ يوم القيامة.

يقول الله (تبارك وتعالىٰ) ـ علىٰ نحو كلّي ـ في سورة الشورىٰ (الآية ٣٠):

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

بعدها.. قال لي الأستاذ: إذَنْ عليك أن تسعىٰ ـ يا بُنَيّ ـ أن تتحمّل ذنبك بنفسك، ولا تلقيه علىٰ عاتق الآخرين. وَلْتَجْهَدَنّ في النّجاء من الصفات الشيطانيّة القبيحة الشائنة.

ومن النافع أن تعرف أنّ من الصفات الرذيلة ما هو حَيَوانيّ، ومنها ما هو نفسانيّ، ومنها ما هو شيطانيّ يُلقيه الشيطان. ومثل هذه الرذائل الشيطانيّة لا وجود لها في البهائم والحَيَوان. أي أنّ هذه الصفة ـ التي ذكرناها آنفاً ـ لا تلقاها في البهائم، فلا تجد منها من يلقي تبعة نفسه علىٰ سواه ولا يحمّله مسؤولية ما ارتكب هو. إنّ مؤسّس هذه الرذيلة ـ منذ أوّل يوم ـ كان إبليس، إذ نسب استكباره وانحرافه إلىٰ الله (جلّ وعلا) إذ قال: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[1] لأفعلنّ كذا وكذا.

وعندئذ فما أقبح الإنسان ـ الذي يراد له أن يكون خليفة الله، وقد خُلِقَ ليكون مَظْهَر الجلال والجمال الإلهيّ ومرآة تَجَلّيه ـ أن ينعكس في مرآة قلبه وجه الشيطان الكريه، وأن يغدو مظهراً للصفات الشيطانيّة البشعة!

إنّ من الشروط العظمىٰ للتوبة أن يعترف المرء ـ بين يَدَي الله (تعالى) ـ بخطاياه، وأن يتحمل مسؤولية ما قَصُرَ عنه وقصّر فيه.. منزّهاً الذات الإلهيّة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥.

المقدّسة ومسبِّحاً، بقوله: سبحانك سبحانك يا عزيز.. إنّي أنا الخاطىء المقصّر.

في ذلكم اليوم.. قلت للأستاذ: لقد أفادتني كثيراً تَجْليتك هذه للموضوع.

ومن حينها التزمت ـ ومن أجل كسر غلواء نفسي أيضاً ـ ألاّ أنطق بحرف عن قلّة التوفيق. وإذا ما أصابتني يوماً مصيبة فإني أعمد أوّلاً إلىٰ البحث عمّا فعلته واجترحته من الذنوب حتىٰ أوْرَد الله عليّ هذه المصيبة ليؤدّبني بها. ثمّ أستغفر الله وأتوب إليه متنصّلاً مما جنيت، مصححاً خطئي، ومتداركاً ما ينبغي تداركه.

أستاذي دلني على التوبة

تفطّنت يوماً لنفسي . . فوجدتني غارقاً في المعاصي والآثام. قد سَوّدتْ المعاصي وجهي وأوقرت الخطايا ظهري، وأَلتَفِتُ حولي فلا أجد من يعينني في أمري. وفكّرت أن أقصد أحد العلماء، فلعلّه ينجدني من ورطتي. وذهبت إليه فعلاً، وجلست عنده. وقبل أن أشكو له، أحضر كتاب (في محضر الأستاذ)، وراح يقرأ لي صفحات منه.

وما إن قرأ لي ومضىٰ في قراءته حتىٰ اختنقتُ بعبربي، وأجهشتُ باكياً. وحين أتمّ ما أراد قراءته ألفيتُني وقد تنصّلت أمام الله من ذنوبي وعزمت علىٰ التوبة التي أحسست علائمها في داخلي. وكان هذا ما قرأه لي:[1]

قال:[2]

أحبّ الليل كثيراً. وما يكاد الناس يخلدون إلى مضاجعهم . . حتىٰ

---

(١) من كتاب (في محضر الأستاذ) أوردنا موضوع التوبة هنا، لمناسبته سياق هذا الكتاب. وحذفناه من هناك.

(٢) لم يرد في مقدمة كتاب (في محضر الأستاذ) اسم لهذا الأستاذ، واكتُفي في الكتاب كله بتعبير: «قال». ولعلّ المؤلف يعبّر بهذا عمّن عايشهم من أساتذة علم الأخلاق وأخذ عنهم.

أجدها فرصة سانحة أمضي فيها إلىٰ الغرفة التي خصّصتها للتعبّد، حيث أتوجّه إلىٰ مناجاة الله (عزّ وجلّ) وإلىٰ الضراعة بين يَدَيْه.

كان يَشُوقني كثيراً أن أتحدّث مع الله.

فيما مضىٰ ـ وقد احتطبتُ علىٰ ظهري أوزاراً ثقيلة ـ كانت حُجُب المعاصي قد صيّرتني، كما كان يونس عليه السلام في بطن الحوت، متلفّعاً بظلمات قاحلة.

لم أكن أجد لذة في مخاطبة الله ومناجاته، بل إنّ الصلاة اليوميّة والفرائض ما كنت أؤدّيها إلاّ بكثير من العناء. لكني قرّرت يوماً أن أمزّق هذه الحجب الحائلة، وأنتشل نفسي من تحت وطأة الذنوب. فكان أن تصفحت آيات من القرآن.. فوجدتها تبثّ في النفس الأمل، وتُمَنّي المرء برحمة الله، وتَعِده بالعفو والصّفح والمغفرة.

بل إنّ من آيات القرآن ما يدعو الله (تعالىٰ) فيها العاصين، ليغفر لهم ويعفو عنهم:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وفي أوّل كلّ سورة من سور القرآن الكريم.. وصف الله (عزّ وجلّ) نفسه بأنه «الرحمٰن الرحيم». ورحمته (سبحانه) قد سبقت غضبَه، كما وصف نفسه بـ«الغفور» و«الرؤوف» و«العفوّ».

إنّ هذا كلّه قد بعث في نفسي مسرّة، فمددتُ يدي ضارعاً إلىٰ الله راجياً العفو والمغفرة. وعلىٰ حين غرّة سمعت بأذن قلبي هاتفاً يقول لي: إنْ تُبْتَ

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

توبةً نصوحاً لا تعود معها إلىٰ الذنب ولو قُطِّعْت إرباً إرباً[1]. . فنحن نعفو عن سيّئاتك، ونتدارك لك ـ فوق هذا ـ ما فات، ونبدّل سيّئاتك حسنات[2]، فنمحو ما في صحيفة أعمالك من آثام ونكتب بدلها ثواباً. . ونبلغ بك مقامات من الكمالات الروحيّة.

يا لها من بشارة ـ كانت! ترىٰ. . أيّ جواد كريم غير الله (تبارك وتعالىٰ) يعفو عمّن سلخ عمره كلّه بالمعصيّة، لا بل يُحيل سيّئاته إلىٰ حسنات ومَبَرّات؟!

أترىٰ يمكنني ـ إذَنْ ـ ألاّ أتوب إلى الله توبة نصوحاً، وألاّ أستغفره وأعتذر بين يَدَيْه؟!

أليس حَرِيّاً بي أن أعلن ندمي أمام ربٍّ له كلّ هذه الرحمة وكلّ هذا الجُود والكرم. . وأن أضحّي بنفسي في سبيله؟! إنّ الإعراض عن التوبة إذَن مما لا يكون، وممّا لا يصحّ أبداً. . فما عَلَيّ ـ إذَنْ ـ إلا أن أُسارع إلىٰ التوبة وأعتذر إليه. . فعساه يقبل منّي الاعتذار.

ما للتوبة زمان خاصّ ولا مكان محدّد؛ فإنّ الموت قد يداهم المرء في أية لحظة فيقطعه عن الحياة وعن فرصة المتاب. أليس قد ورد في الأثر: «عجّلوا بالتوبة قبل الموت»[3]؟

وإذ كنتُ في تلك اللحظة أذرف دموع البكاء، عازماً علىٰ أن أجد اللغة المناسبة لأعتذر بها بين يدي الله. . تذكّرت أنّ خير كلام فيه أدب الخطاب مع

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾. سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٣) بحار الأنوار، باب (وقت الصلاة).

الله هو «مناجاة التائبين» للإمام زين العابدين عليه السلام.

وهرعت إلىٰ هذا الدعاء أقرؤه بتريّث، متدبّراً في مغزاه القيّم: كنت أقرأ وأقول:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ

إلٰهي.. أَلْبَسَتْنِي الْخَطٰايٰا ثَوْبَ مَذَلَّتي. وجَلَّلَنِي التَّبٰاعُدُ مِنْكَ لِبٰاسَ مَسْكَنَتي. وأَمٰاتَ قَلْبِي عَظيمُ جِنٰايَتي. فَأَحْيِهِ بِتَوْبَةٍ مِنْكَ.. يٰا أَمَلي وبُغْيَتي، ويٰا سُؤْلي ومُنْيَتي.

فَوَعِزَّتِكَ مٰا أَجِدُ لِذُنُوبي سِوٰاكَ غٰافِراً. ولا أرىٰ لِكَسْري غَيْرَكَ جٰابِراً. وقَدْ خَضَعْتُ بِالإِنٰابَةِ إِلَيْكَ، وعَنَوْتُ بِالاسْتِكانَةِ لَدَيْكَ. فَإِنْ طَرَدْتَني مِنْ بٰابِكَ.. فَبِمَنْ أَلُوذُ؟! وإِنْ رَدَدْتَني عَنْ جَنٰابِكَ.. فَبِمَنْ أَعُوذُ؟! فَوٰا أَسَفٰاهُ مِنْ خَجْلَتي وٱفْتِضٰاحي! وَوٰالَهفٰاهُ مِنْ سُوءِ عَمَلي وٱجْتِرٰاحي!

أَسْأَلُكَ يٰا غٰافِرَ الذَّنْبِ الْكَبيرِ، ويٰا جٰابِرَ الْعَظْمِ الْكَسيرِ.. أَنْ تَهَبَ لي مُوبِقٰاتِ الْجَرٰائِرِ، وَتَسْتُرَ عَلَيَّ فٰاضِحٰاتِ السَّرٰائِرِ. وَلا تُخْلِني في مَشْهَدِ الْقِيٰامَةِ مِنْ بَرْدِ عَفْوِكَ وَغَفْرِكَ. ولا تُعْرِني مِنْ جَميلِ صَفْحِكَ وسَتْرِكَ.

إلٰهي.. ظَلِّلْ عَلىٰ ذُنُوبي غَمٰامَ رَحْمَتِكَ. وأَرْسِلْ عَلىٰ عُيُوبي سَحٰابَ رَأْفَتِكَ.

إلٰهي.. هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الآبِقُ إلاّ إلىٰ مَوْلاهُ؟! أَمْ هَلْ يُجيرُهُ مِنْ سَخَطِهِ أَحَدٌ سِوٰاهُ؟!

إلٰهي . . إنْ كانَ النَدَمُ عَلى الذَّنْبِ تَوْبَةً؛ فَإنّي ـ وعِزَّتِكَ ـ مِنَ النَّادِمينَ. وإنْ كانَ الاسْتِغْفارُ مِنَ الْخَطيئَةِ حِطَّةً؛ فَإنّي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرينَ. لَكَ الْعُتْبىٰ حَتَّى تَرْضىٰ.

إلٰهي . . بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ . . تُبْ عَلَيَّ. وبِحِلْمِكَ عَنّي . . اعْفُ عَنّي. وبِعِلْمِكَ بي . . ارْفُقْ بي.

إلٰهي . . أنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ باباً إلىٰ عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ «التَّوْبَةَ». فَقُلْتَ: «تُوبُوا إلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً». فَما عُذْرُ مَنْ أغْفَلَ دُخُولَ الْبابِ بَعْدَ فَتْحِهِ؟!

إلٰهي . . إنْ كانَ قَبُحَ الذَّنْبُ مِنْ عَبْدِكَ، فَلْيَحْسُنِ الْعَفْوُ مِنْ عِنْدَكَ.

إلٰهي . . ما أنَا بِأوَّلِ مَنْ عَصاكَ فَتُبْتَ عَلَيْهِ، وتَعَرَّضَ لِمَعْرُوفِكَ فَجُدْتَ عَلَيْهِ. يا مُجيبَ الْمُضْطَرِّ، يا كاشِفَ الضُّرِّ، يا عَظيمَ الْبِرِّ، يا عَليماً بِما فِي السِّرِّ، يا جَميلَ السِّتْرِ . . اسْتَشْفَعْتُ بِجُودِكَ وكَرَمِكَ إلَيْكَ. وتَوَسَّلْتُ بِجَنابِكَ وَتَرَحُّمِكَ لَدَيْكَ. فَاسْتَجِبْ دُعائي، ولا تُخَيِّبْ فيكَ رَجائي. وتَقَبَّلْ تَوْبَتي، وكَفِّرْ خَطيئَتي بِمَنِّكَ ورَحْمَتِكَ . . يا أرْحَمَ الراحِمينَ.

(مفاتيح الجنان ـ المناجاة الأولىٰ من المناجاة الخمس عشرة).

بعد الانخراط في هذه المناجاة، وبعد هذا العزم الوثيق علىٰ التوبة . .

بدأ قلبي يشرق شيئاً بعد شيء؛ فقد شعرت من العمق بلذة المناجاة، وانبعث تذوّقي الروحيّ من جديد وعاد إلىٰ الإفاقة والصّحو.

لكنّ المؤسف أن الشيطان والنفس الأمّارة بالسّوء لم يتركاني، فإذا هما يتصيّدان الفرص لإيقاعي مجدّداً في وحول الإثم. في وقت كنت أعاني فيه مشقّة كثيرة من جرّاء هجراني المعاصي وتباعدي عن الآثام. كانا يزيّنان لي ارتكاب المَعصية ويدفعانني نحو الفحشاء ويمهّدان لها السبيل. ولقد صوّرا لي أن العبوديّة لله أمر صعب لا يُنال.. حتىٰ حدث يوماً ـ رغم عزمي السابق علىٰ هجران الذنوب ـ أن اضطرّاني إلىٰ الوقوع وصرت ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾.. ووجدت نفسي قاعداً علىٰ أرض خراب.

وفي آخر ساعة من ساعات نهار ذلك اليوم ـ وهي المختصّة بالإمام بقيّة الله الأعظم صاحب الزمان عليه السلام ـ مضيت إلىٰ برّيّة قريبة. وفي تلك الخلوة صلّيت، أوّلاً، صلاة الاستغاثة بإمام الزمان عليه السلام.. بتوجّه وخشوع. ثمّ زُرت الإمام بزيارة «سلامُ الله الكامل التّامّ»[1]، وطلبت الخلاص من حبائل

---

(١) وردت الزيارة في مصادر عديدة، أقربها كتاب (مفاتيح الجنان). وهذا نصّها:

سَلامُ اللهِ الْكامِلُ التامُّ الشّامِلُ الْعامُّ، وصَلَواتُهُ الدّائمَةُ وَبَرَكاتُهُ الْقائِمَةُ.. عَلىٰ حُجَّةِ اللهِ ووَليِّهِ في أرْضِهِ وَبِلادِهِ، وخَليفَتِهِ عَلىٰ خَلْقِهِ وعِبادِهِ، وسُلالَةِ النُّبُوَّةِ وبَقِيَّةِ الْعِتْرَةِ والصَّفْوَةِ: صاحِبِ الزَّمانِ، ومُظْهِرِ الإيمانِ، وَمُلَقِّنِ أحْكامِ الْقُرْآنِ، ومُطَهِّرِ الأرْضِ، وناشِرِ الْعَدْلِ فِي الطُّولِ والْعَرْضِ، والْحُجَّةِ الْقائِمِ الْمَهْدِيِّ الإمامِ الْمُنْتَظَرِ الْمَرْضِيِّ، وَابْنِ الأئِمَّةِ الطّاهِرينَ.. الْوَصِيِّ ابْنِ الأوْصِياءِ الْمَرْضِيّينَ، الْهادي الْمَعْصُومِ ابْنِ الأئِمَّةِ الْهُداةِ الْمَعْصُومينَ.

اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا مُعِزَّ الْمُؤْمِنينَ الْمُسْتَضْعَفينَ. اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا مُذِلَّ الْكافِرينَ الْمُتَكَبِّرينَ الظّالِمينَ. اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا مَوْلايَ يا صاحِبَ الزَّمانِ. اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ رَسُولِ اللهِ. اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ أميرِ الْمُؤْمِنينَ. اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ فاطِمَةَ الزَّهْراءِ سَيِّدَةِ نِساءِ الْعالَمينَ. =

النفس الأمّارة والشيطان. بعدها شرعت أناجي الله (تعالىٰ) بـ «دعاء الحزين» الذي ورد في (مصباح المتهجّد):

«أُناجيكَ يا مَوْجُوداً في كُلِّ مَكانٍ.. لَعَلَّكَ تَسْمَعُ نِدائي؛ فَقَدْ عَظُمَ جُرْمي وقَلَّ حَيائي.

مَوْلايَ يا مَوْلايَ.. أيَّ الأَهْوالِ أَتَذَكَّرُ وأيَّها أنسىٰ؟! ولَوْ لَمْ يَكُنْ إلاّ الْمَوْتُ لَكَفىٰ. كَيْفَ.. وما بَعْدَ الْمَوْتِ أعْظَمُ وأدْهىٰ؟!

مَوْلايَ يا مَوْلايَ.. حَتَّى مَتىٰ وإلىٰ مَتىٰ أقُولُ: «لَكَ الْعُتْبىٰ» مَرَّةً بَعْدَ أُخرىٰ، ثُمَّ لا تَجِدُ عِنْدي صِدْقاً ولا وَفاءً؟!

فَيا غَوْثاهُ! ثُمَّ واغَوْثاهُ بِكَ ـ يا اَللّٰهُ ـ مِنْ هَوَى قَدْ

= السَّلامُ عَلَيْكَ يَابْنَ الأئِمَّةِ الْحُجَجِ الْمَعْصُومينَ، والإمامُ عَلَى الْخَلْقِ أجْمَعينَ. السَّلامُ عَلَيْكَ يا مَوْلاَيَ سَلامَ مُخْلِصٍ لَكَ فِي الْوِلايَةِ. أشْهَدُ أنَّكَ الإمامُ الْمَهْدِيُّ قَوْلاً وفِعْلاً. وأنْتَ الَّذي تَمْلأُ الأرْضَ قِسْطاً وعَدْلاً بَعْدَ ما مُلِئَتْ ظُلْماً وجَوْراً. فَعَجَّلَ اللهُ فَرَجَكَ، وَسَهَّلَ مَخْرَجَكَ، وقَرَّبَ زَمانَكَ، وَكَثَّرَ أنْصارَكَ وأعْوانَكَ. وأنْجَزَ لَكَ ما وَعَدَكَ، فَهُوَ أصْدَقُ الْقائِلينَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

يا مَوْلاَيَ يا صاحِبَ الزَّمانِ، يَابْنَ رَسُولِ اللهِ.. حاجَتي كَذا وكَذا (وتذكر حاجتك)، فاشْفَعْ لي في نَجاحِها؛ فَقَدْ تَوَجَّهتُ إلَيْكَ بِحاجَتي؛ لِعِلْمي أنَّ لَكَ عِنْدَ اللهِ شَفاعَةً مَقْبُولَةً ومَقاماً مَحْمُوداً. فَبِحَقِّ مَنِ اخْتَصَّكُمْ بِأمْرِهِ وارْتَضاكُمْ لِسِرِّهِ، وبِالشَّأنِ الَّذي لَكُمْ عِنْدَ اللهِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ.. سَلِ اللهَ (تَعالىٰ) في نُجْحِ طَلِبَتي وإجابَةِ دَعْوَتي وكَشْفِ كُرْبَتي.

غَلَبَني، وَمِنْ عَدُوٍّ قَدِ اسْتَكْلَبَ عَلَيَّ، ومِنْ دُنْيا قَدْ تَزَيَّنَتْ لي، ومِنْ نَفسٍ أمّارَةٍ بِالسُّوءِ ـ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي!

مَوْلايَ يا مَوْلايَ.. إنْ كُنْتَ رَحِمتَ مِثْلي، فَارْحَمْني. وإنْ كُنتَ قَبِلتَ مِثْلي، فاقْبَلْني. يا قابِلَ السَّحَرَةِ.. اقْبَلْني. يا مَنْ لَمْ أزَلْ أتَعَرَّفُ مِنْهُ الْحُسْنىٰ. يا مَنْ يُغَذّيني بِالنِّعَمِ صَباحاً ومَساءً.. إرْحَمْني يَوْمَ آتيكَ فَرْداً، شاخِصاً إلَيْكَ بَصَري، مُقَلَّداً عَمَلي. قَدْ تَبرَّأ جَميعُ الْخَلْقِ مِنّي. نَعَمْ.. وأبي وأُمّي، وَمَنْ كانَ لَهُ كَدّي وَسَعْيي.

فَإنْ لَمْ تَرْحَمْني.. فَمَنْ يَرْحَمُني؟! وَمَنْ يُؤْنِسُ فِي الْقَبْرِ وَحْشَتي؟! وَمَنْ يُنْطِقُ لِساني إذا خَلَوْتُ بِعَمَلي، وسَاءَلْتَني عَمّا أنْتَ أعْلَمُ بِهِ مِنّي؟!

فَإنْ قُلْتُ: «نَعَمْ».. فَأيْنَ الْمَهْرَبُ مِنْ عَدْلِكِ؟! وإنْ قُلْتُ: «لَمْ أفْعَلْ!» قُلْتَ: ألَمْ أكُنِ الشّاهِدَ عَلَيْكَ؟!

فَعَفْوَكَ عَفْوَكَ يا مَوْلايَ، قَبْلَ سَرابيلِ الْقَطِرانِ. عَفْوَكَ عَفْوَكَ يا مَوْلايَ قَبْلَ أنْ تُغَلَّ الأيْدي إلَى الأعْناقِ.. يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ، وخَيْرَ الْغافِرينَ.»

تضرّعت إلىٰ الله (عزّ وجلّ) بهذا الدعاء، وأنا أبكي في تلكم البرّيّة. حتىٰ إذا أتيتُ علىٰ آخره.. ظننتُ أنّ الله (تعالىٰ) قد عفا تماماً عن جرائري وخطاياي، وأنّي قد طَهُرت وتخفّفت، غافلاً أنّ آثامي كانت من الكثرة بحيث لا سبيل إلىٰ اليقين بحضور العفو.

وتذكّرتُ عندها رواية وردت عن رسول الله ﷺ جاء فيها: «مَنْ صَلّىٰ عَلَيّ مرّة لم يَبْقَ من ذنوبه ذَرّة»[1]. فتناولت المسبحة، ورحت أصلّي على النبيّ وآله ـ وهي الصلوات التامّة ـ مئة مرّة. لكن علامات العفو وقبول التوبة لم تتجلَّ لي بوضوح، لا شكّاً في هذا الحديث بل لعلّ شرائط خاصّة في الأمر لم تتوفّر فيّ، أو أنّ ما اجترحته من المعاصي والآثام هي أكبر من أن تُغْتَفر بهذا القدر من العمل.

ماذا عَلَيّ إذَن أن أفعل؟! عندها تذكرت حديثاً رواه يوماً أحد العلماء:

عن أبي بصير، قال: كنت عند أبي عبد الله «الصادق» عليه السلام، فقال له رجل: . . . إنّي أستغفرُ الله. فقال له عليه السلام: قُمْ فاغتسِلْ، وصَلِّ ما بَدا لك؛ فإنّك كنتَ مُقيماً علىٰ أمر عظيم. ما كان أسوأ حالَك لو مِتّ علىٰ ذلك![2].

وبدأت فعلاً في تطبيق هذا العمل. وإذ كنتُ قد اغتسلت قبل هذه الخلوة. . نهضت من فوري، وصلّيت ركعتي التوبة، ثمّ كررت عبارة الاستغفار ثلاث مرّات. وهذه المرّة أيضاً لم أتعرّف علىٰ الصفح والعفو في داخل نفسي، إذ لم تَسْتَبِنْ لي علامات قبول التوبة!

بكيت. كثيراً بكيت، ولم أخرج من حيرتي. ترىٰ. . أيّ سبيل أسلك؟! وإلىٰ أين أُوَلّي وجهي؟! وقعدت اتفكّر، ورحت أستعرض في ذهني حكايات السابقين الذين فازوا بعفو الله ومغفرته. فاستبان لي أنّ كافّة الأنبياء وجميع الأولياء يعدّونَ البكاء علىٰ سيّد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام خير

---

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٦٣/ الحديث ٥٢.

(٢) بحار الأنوار ٦: ٣٤.

سبيل لغفران الذنوب[١].

لقد بكىٰ آدم عليه السلام مئتي عام علىٰ الذي فعله وكان أولىٰ به ألاّ يفعله.. لكنّه لم يُتَب عليه. ولقد تنزّل عليه عفو الله وأدركته مغفرته لمّا بكىٰ علىٰ عزيز الله الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام وجَلَس للعزاء، ثمّ توسّل إلىٰ الله (تعالىٰ) قائلاً:

«يا حميد.. بحقّ محمّد

ويا علي.. بحقّ عليّ

ويا فاطر.. بحقّ فاطمة

ويا محسن.. بحقّ الحسن

ويا قديمَ الإحسان.. بحقّ الحسين»[٢].

كان عَلَيّ إذَنْ أن أنحو هذا المنحىٰ. لكنْ أنّىٰ يتأتىٰ لي في هذه البرّيّة أن أقيم مجلس عزاء؟! وحضرتني في وقتها عبارات من مراثي سيّد الشهداء عليه السلام كانت في حافظتي. قلت في نفسي: فلأقرأ هذه العبارات لنفسي، وأبكي وحدي حزناً علىٰ أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فلعلّ الله (جلّ جلاله) يرأف بي ويتحنّن عليّ إذا رآني أبكي علىٰ عزيزه المظلوم. ونهضت قائماً باتّجاه القبلة. ابتدأت.. فسلّمت علىٰ سيّد الشهداء عليه السلام، ثمّ شرعت بالندبة والبكاء: عزيزي يا حسين.. «قَتَلوك وما عَرَفوك». لست أنسىٰ يا حبيبي لحظةَ جاء فَرَسُك «ذو الجَناح» مخضَّباً شعرُ رقبته بالدم، والسّرج فوقه مقلوب.. وهو

---

(١) تحدّث المرحوم الشيخ جعفر التستريّ في كتابه (الخصائص الحسينيّة) عن هذا الموضوع حديثاً وافياً. وورد في كتاب (بكاء الحسين عليه السلام) أحاديث كثيرة تؤكّد هذا المعنىٰ وتعزّزه.

(٢) بحار الأنوار ٢٦: ٣٢٢.

يصهل ويقول في صهيله: «الظّليمةَ الظّليمةَ من أمّةٍ قَتَلَتْ ابنَ بنتِ نبيّها»[1].

حبيبي يا حسين.. وذُبح طفلك الرضيع بين يديك بسهم مسمومٍ ذي ثلاث شُعَب[2].

حبيبي يا حسين.. ورُضّ جسدك المقدّس ـ بعد قتلك ـ بحوافر الخيل.

ورحت أردّد عبارات أخرىٰ راثية مُحزِنة وأنا أبكي وأسكب الدموع أسًى لمصائب سيّد الشهداء عليه السلام. وما هي إلاّ لحظة.. حتىٰ أشرق منّي الفؤاد وانفتحت عين قلبي، وبدت لي علامات قبول التوبة واضحة بيّنة، وباغتني أنّي بدأت أشمّ ـ وبكلّ كينونتي ـ نفحة عطر عجيب ملأ من حولي أطراف المكان.

أجلْ.. إنّه «ولا بدّ دونَ الشّهْد من إبَرِ النّحْلِ».. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[3].

أجل.. ها أنذا أخطو إذن نحو الحقائق خطوة أخرىٰ، أُزيل معها واحداً من الحجب الحائلة. إنه لمن المحال أن يسوّل لي الشيطان مرّة أخرىٰ فأنصاع له. أوَتراني أقدر علىٰ الانصياع له بعد ما تذوّقت لذة مناجاة الله؟! أو أقدر علىٰ الانكفاء بعد هذه الخفّة الروحيّة التي فاضت عليّ من نور الغفران، وبعد أن غمرتني نفحات العطر المعنويّ الآسِر الحبيب؟! لن أكون مطيّة مرة أُخرىٰ لأهواء النفس ووساوس الشيطان بإذن الله (تعالىٰ). بل إنه لم يَعُد له سلطان

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام: الخوارزمي ٢: ٣٧.

(٢) ورد عن الناحية المحفوفة بالقدس للإمام بقيّة الله عليه السلام: «السلام علىٰ عبد الله بن الحسين: الطفل الرضيع. المَرْمِيّ الصريع، المتشحّط دماً، المُصْعَد دمُه في السماء، المذبوحِ في حِجْر أبيه. لعَن الله راميه حرملة بن كاهل الأسدي. (بحار الأنوار ١٠١: ٢٦٩ ـ ٢٧٤).

(٣) سورة النجم، الآية: ٤١.

علـيّ. أو لـم يَـقُـل الله (سـبـحـانـه وتـعـالـىٰ): ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[1].

ثمّ إنّي لا أُومن أبداً بولاية الشيطان، فلا سلطة له إذَنْ عليّ.. ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[2].

لقد تُبْت ـ وأنا أبكي وأتلوّىٰ في تلكم البرّيّة ـ إلىٰ الله توبة نصوحاً. وقد عفا الله (تعالىٰ) عنّي وغفر لي كما وعد.. ووعدُه الحقّ. وبذل لي سيئاتي حسنات. وقد أدركتُ ـ بعَودة التذوّق المعنويّ إليّ، والالتذاذ بالمناجاة، وبهذا العطر الروحيّ الغامر ـ أنّ الله (جلّ جلاله) قد جذبني إليه، وجعلني من عبيده، وصار لي ملجأً وملاذاً من شرّ الشيطان.

لكنْ.. ما عساني أصنع بالنفس الأمّارة؟!

إنّها النفس.. التي طالما عانىٰ منها ـ في أوّل الأمر ـ الصالحون.

إنّها النفس.. التي دفعت آدم إلىٰ الأكل من الشجرة الممنوعة، فأُخْرِج من الجنّة.

هي نفسها النفس التي كانت وراء التهام الحوت ليونس عليه السلام.

هي النفس التي قال عنها الحقّ (تبارك وتعالىٰ) علىٰ لسان عبيده: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾[3].

وهذا يعني ـ بالنسبة إليّ ـ أنّي إذا لم أُفلح في تهذيبها وتزكيتها، وإذا لم أُسْلمها بيدي إلىٰ ربّي، فتغدو مطمئنة راضيةً مَرْضيّة، فإني لن أعرف السعادة ولن أتذوق طعم الهناء. وبدون هذه التزكية وهذه الطمأنينة لن يكون لي ـ في

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

هذه الدنيا وفي الآخرة ـ من القرب من الله نصيب.

لكن.. ما السبيل إلىٰ هذا الهدف الصعب؟ من ذا تراه يعينني عليه ويسهّل لي العسير منه؟ إنّ الأعمال ـ وحتىٰ اليسير منها ـ يحتاج إلى مرشد معين، فكيف أريد أن أنجز عملاً كبيراً هذا الكِبَر دون الاسترشاد بدليل؟

إنّ الأستاذ المرشد الذي يتطلبه هذا العمل ينبغي أن يكون أكبر الأساتذة المرشدين، لا بدّ أن يكون معصوماً، أن يكون قلبَ عالم الإمكان، محيطاً بكل المعارف والعلوم.. وما هو إلاّ الإمام بقيّة الله (أرواحنا فداه).

لكن.. كيف يمكنني أن أُمسك بحجزته؟

كيف يتناول الثرىٰ أطراف الثريّا؟

وهنا انخرطتُ في نوبة أخرىٰ من البكاء، ورحت أبكي وأبكي.. حتىٰ أُغمي عليّ.

وقد وَقَر في قلبي آنذاك أنّ عليّ البدء بتزكية نفسي، حتىٰ أصل إلىٰ أفق الحقائق العليا، فأنجو من ظلمة النفس.

الفصل الرابع

الثبات

- مرحلة الثبات
- التخلّص من اليأس والكسل
- صيّروني «خَوّافاً»
- تحمّل الشدائد
- الصّبر علىٰ العبادة
- ثبات القدم ازاء المعصية
- ادفع عنك الملالة والكسل
- بالإرادة القوية نبلغ الثبات
- سوء الظنّ بالناس
- ما عند الله باقٍ
- الثبات.. أو سرّ النجاح

مرحلة الثبات

يدلّ الثبات علىٰ المقاومة والقوّة في كلّ شيء ولدىٰ كلّ عمل. إنّه إيجاد طاقة في النفس تولّد في روحيّة الإنسان عزماً راسخاً ومقاومة قويّة وحزماً عنيداً.

وقد سبق أن بحثت هذا الموضوع كاملاً في كتاب (الاتّحاد والصداقة)، ويمكن لمن يريد التعرّف علىٰ مرحلة الثبات أن يراجع الكتاب المذكور. ولكننا نبحث الموضوع في هذه الصفحات من زاوية أخرىٰ.. من قبيل أنّ السالك إلىٰ الله (تعالىٰ) إذا افتقد الثبات إزاء المشكلات والمشقّات ـ كالرياضات الشرعيّة ومفارقة المعصية وأداء التكاليف ومجاهدة النفس ومخالفة الشيطان والعبوديّة التامّة لله ـ فإنّه لا يغدو قادراً علىٰ مواصلة الدرب، ولَسَوف يسقط في الطريق. لهذا فإنّه لا بدّ من الحديث عن مثل هذه القضايا من موضوع الثبات ـ ولو علىٰ نحو الإيجاز ـ عسىٰ أن تنفع، بإذن الله.

التخلص من اليأس والكسل

قال صديق. كان قد فاز بطيّ مراحل عالية من السّيْر والسلوك، حتىٰ غدا اليوم من الصالحين. . قال:

فيما مضىٰ كنت إنساناً «خوّافاً»، يؤوساً، قليل الصبر، سيّئ الظنّ بالناس، كسولاً، منطوياً على نفسي. هذه الحالات كانت تعذّبني وتنغّص عليّ أوقاتي بحيث إني كنت أدعو الله (تعالىٰ) أن يقرّب أجلي. . إلىٰ حدّ أنّي حدّثت نفسي يوماً بالانتحار! إذ لم أعد أرىٰ لبقائي في الدنيا من معنى. حتّىٰ قيّض الله لي أستاذاً عالماً ذا خبرة. . أخذ بيدي وأعانني.

في البداية وجّهني إلىٰ التوبة. وكانت تلك مرحلة شاقّة عليّ؛ لأنّ أوّل شرط اشترطه هذا الأستاذ أن أنفّذ أعمالاً معيّنة بجدّ تامّ بحيث لا أتوانىٰ عنها ولا يوماً واحداً. ولأني قد تعوّدت على حياة الكسل وقلّة الصبر فقد كان برنامج التوبة ـ خاصة في البدايات ـ عسيراً مرهقاً. . لكنّ الله (تعالىٰ) ـ وله المنّة والشكر ـ ألقىٰ في قلبي إيماناً وميلاً إلىٰ الأستاذ، بحيث كان يكفيني منه ـ إذا قصّرت في عملي ـ أن يقول لي بمحبّة: ما كان ظنّي أن تتساهل إلىٰ هذا الحدّ! . . حتىٰ أواصل عملي مرّة أخرىٰ. وهكذا. . حتىٰ عبرت مرحلة التوبة، وطَهُرت من الخطايا والآثام السالفة. عندها قال لي الأستاذ: إذا كنت

ما زلت تظنّ أنّ الله لم يغفر لك فقد أسأت الظن بالله. وبعد هذه المغفرة التي سلختُ من أجلها عشرات الأيّام في الرياضة الروحيّة والتوبة والاستغفار. . قال لي الأستاذ:

حان الآن وقت دخولك في مرحلة الثبات، التي ستكون ـ ولا ريب ـ أشقّ عليك وأصعب. فإنْ تُرِدْ أن تصل إلىٰ الكمالات الروحيّة فلا مفرّ إذَنْ من طيّ هذه المرحلة وعبورها.

قلت: لقد تحقق لي ـ والحمد لله ـ نصف هذه المرحلة، خلال الأربعين يوماً التي طويتها بالتوبة والاستغفار. وإذا شاء الله (تعالىٰ) فإنّي أطوي ما بقي من هذه المرحلة بلطف منك.

فقال لي الأستاذ: إقرأ سورة «الكهف» كلّ يوم، واعلمْ أنّ ما يبلغه المرء من المقامات فإنّما بفضل ثباته واستقامته.

قَصّ الله (تعالىٰ) علينا في سورة الكهف خبر أصحاب الكهف الذين مدحهم الله لثباتهم في مقابل دقيانوس (الملك الجائر الذي ادّعىٰ الألوهيّة)، فهجروا مناصبهم في الدولة، بل تركوا كلّ شيء. . من أجل صيانة إيمانهم وحفظ عقائدهم. فذُكروا في القرآن بلقب «الفِتية». ومنذ الساعة التي خلدوا فيها إلىٰ النوم في الكهف. . كانت عناية الله معهم تَحُوطهم وتَلْطُف بهم إلىٰ ثلاثمائة سنة كان عليهم أن يرقدوا فيها. . منسيّين مصونين من الأخطار. وبعد يقظة قصيرة أُعيدوا إلىٰ الصَّوْن والحفظ مرة أخرىٰ حتىٰ يكونوا بعدئذ من أصحاب إمام العصر (روحي فداه). وعلىٰ هذا. . فإنّ الثبات على نهج الدين ينزّل علىٰ العبد من مدد الله (تعالىٰ) حظّاً وفيراً عظيماً، ويجعله من أنصاره.

وفي سورة الكهف كذلك قصّة رجُلَين، أحدهما لا ثبات له ولا مقاومة ولا قوّة إيمان. . دَخَل جنّته (بستانه)، فقال مبتدئاً: ما شاء الله! لكنه أنكر بعدئذ المعاد. والآخر: رفيقه الذي عنّفه ذامّاً انكفاءه وغياب استقامته

وثباته. . ثمّ فارقه. وبهذا الأسلوب يقول الله (تعالىٰ) للناس إن الله يكره ضعاف الإيمان، كما ينفر منهم الصالحون. وأنّه (سبحانه) سيسلب من أموالهم البركات، بل إنّه ليمحق هذه الأموال. بَيْد أنّ أصحاب الصمود علىٰ الحقّ والثبات ـ حتىٰ لو كانوا فقراء معدمين ـ يغنيهم الله من فضله ثروةً وبركة.

ونقرأ في سورة الكهف أيضاً قصّة موسىٰ والخضر عليهما السلام؛ إذ قَبِل الخضرُ موسىٰ تلميذاً وتابعاً، ليكون موسىٰ عليه السلام صاحب صبر علىٰ ما سيرىٰ منه. وكلّما كان الخضر يجد في موسىٰ قلة في الصبر كان يهدّده بتركه والافتراق عنه. . ثمّ كانت عاقبة موسىٰ أنْ انفصل عنه لقلّة ما صَبَر معه، بعد أن كشف له الخضر عليه السلام عن سرّ الأعمال التي لم يستطع موسىٰ عليها صبراً.

وفي السورة كذلك قصّة ذي القَرْنين مفصّلة. تحكي للبشريّة أنّ الثبات والرسوخ يمكّن الإنسان أن يفتح بلدان العالم كافّة. . كما حَدَث لذي القَرْنين الذي مضىٰ قُدُماً إلىٰ الإمام ـ بهمّته وقدرته ورسوخه في الثبات ـ حتىٰ بلغ «مغرب الشمس» حيث المحيطات. ثمّ أعدّ جيشاً بلغ به المشرق، ففتح أجزاء من بلاد الصين. ولقد كان راسخاً في ثباته علىٰ أهدافه الرفيعة ـ متوكلاً ومستعيناً بالذات الإلهيّة المقدّسة ـ حتىٰ ذكره الله (تعالىٰ) في القرآن: كتاب البشريّة الخالد. . نموذجاً بارزاً لمن مكّن الله له في الأرض، وقصّ قصّته مفصّلة فيه.

قال الأستاذ: وينبغي أن نستلهم من قصص سورة الكهف هذه موعظة نافعة لنا، كما قال الله (تعالىٰ): ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

وإذَنْ. . فلتقرأ سورة الكهف كل يوم، وتتعلّم من هذه السورة المباركة. واعلم أنّ من أراد أن تتحقق له أهدافه فلا بدّ أن يتّصف بالصبر والثبات. . كما تحقق لأهل الكهف الذين نالوا ـ بثباتهم ـ الكمال المعنوي ووصلوا إلىٰ الله (جل جلاله)، وكما تحقق لذي القرنين الذي فتح العالم.

أمّا إذا كان الإنسان ضعيفاً في الدنيا. . فإنّه لا يجني أيّ شيء، ويُسْلَب البركة من حياته وماله ووقته.

ثمّ قال الأستاذ: كلّما أحسستُ أنا بالضعف والوهن في قضايا التبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء تكاليفي في خدمة الخلق. . تَلَوتُ سورة (نوح). وأوصيك أنت أيضاً أن تقرأ هذه السورة المباركة كلّ يوم تستمدّ منها ما يعينك في أمر الصبر والثبات، ولتنظر كيف دعا نوح عليه السلام قومه مدة تسعمئة وخمسين سنة ليلاً ونهاراً. . بالوعد والوعيد، فلم يؤمنوا له، بل كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلاّ يسمعوا دعوته إيّاهم إلىٰ الله، وكانوا يستغشون ثيابهم لئلاّ يَرَوه. . لكنّه عليه السلام ظلّ راسخاً حتىٰ استطاع في آخر الأمر أن يجذب إلىٰ دعوته منهم قلّة قليلة، ركبوا معه في الفُلْك، واستنقذهم من بين الذين لا يلدون إلاّ فاجراً كَفّاراً.

ولقد واظبتُ سنة كاملة أقرأ هاتين السّورتين، ولا أجترح ذنباً، وأؤدّي فرائضي على الوجه السليم ـ في أوّل أوقاته. وبعد هذه السنة وجدت نفسي وقد تغيّرت عمّا مضىٰ. . إذ غدوت ثابتاً كالجبل، قد ذهبت عنّي أمراضي الروحيّة، ولم يبق في داخلي للخوف والكسل وقلّة الصبر من أثر، وتهيّأت مِنْ ثَمّ لطيّ مراحل الكمال

صَيَّروني «خوافا»!

ما تلقّيته في طفولتي من سوء تربية أبي وأمّي لي ـ أو لأقُلْ: بسبب إفراطهما في محبّتي ـ صيّرني إنساناً «خوّافاً».

في طفولتي كانت أميّ تقول إذا رأتني أريد الخروج من الغرفة في الليل: الولد يخاف، فلا تَدَعوه يخرج وحده، ليذهبْ أحد معه! أو أنّ أهلي كانوا يخيفونني من الظلام قائلين: لا تدخل في مكان مظلم بدون ضياء! يخيفونني من القطة.. يخيفونني من «العَوِيّة» أو من «ابن آوىٰ»!

إنّهم يحذّرونني ويخيفونني من أشياء أخرىٰ أيضاً: من أن أنفرد وحدي، من المجنون، من الذهاب قرب حوض الماء، من الجنّ والأشباح. يخيفونني من الميت ـ ومع أنّي منذ البداية أخاف من الميّت ـ. لكنهم يزيدونني خوفاً بما يحكون لي من قصص مفتعلة عن الجنّ أو الشياطين الذين يدخلون في جسم الميّت، ثمّ يهجمون على الإنسان ـ من داخل التابوت ـ بوجوه مرعبة.

أجل، إنهم كانوا يوجدون في نفسي رعباً من كلّ شيء، ومن كلّ صوت. وقد تركت فيّ هذه التصرّفات السيئة والإيحاءات الخاطئة أثراً سلبيّاً، كان خيراً منها لو أنّ أبي وأمّي قد أعميا عينيّ في الطفولة أو قَطَعا يَدَيّ.. وما صيّراني خوّافاً أفزع من كلّ شيء!

ولهذا فإنّي ـ لمّا أردت أن أمضي لأطوي مراحل السير والسلوك المعنويّ ـ سمعت ما لا طاقة بي عليه. لقد سمعت أنّ المرء إذا صفا وطَهُر من الداخل.. فإنّه يشاهد أنوار الملائكة. يرىٰ أرواح أولياء الله. يكلّم الموتىٰ. يناجي الله منفرداً في خلوة. الظلمة والانفراد خير وسيلة للبُعْد عن السُمعة والرياء وللارتباط بالله. أولياء الله يسيحون في الصّحارىٰ والقِفار. ينبغي الذهاب كلّ أسبوع إلىٰ المقبرة لزيارة أهل القبور، للاعتبار من موت الآخرين وللافاقة واليقظة بالموت.

لمّا سمعت هذا كلّه أخذني الخوف من الدخول في مراحل السّير والسلوك، ذلك أنّي فكّرت أنْ لو غدوت من أولياء الله وانفتحت عين قلبي لمشاهدة هذه الأشياء المخيفة.. فما تراه يحلّ بي؟! ما أمَرّها إذَنْ من أزمة نفسيّة ومن خسارة معنويّة هذه التي أوقعني فيها أبواي!

إنّ الشوق إلىٰ بلوغ الحقائق وتزكية النفس لم يدعني أهدأ لحظة وأستريح. ومن جهة أخرىٰ.. إنّي لأعلم أنْ إذا بقيت غير نقيّ الباطن ولا أصل إلىٰ الكمال الروحيّ فإني أكون قد وُلِدتُ حيواناً، وأعيش حيواناً، وحيواناً أموت.

ما كان منّي عندئذٍ إلاّ أن قصدتُ مربّياً، وشكوت له معاناتي وقلقي. فقال لي: لن أدَعَك تشاهد شيئاً من أنوار الملائكة أو من المسائل غير العاديّة الأخرىٰ قبل أن أعالجك من داء الخوف هذا.

وقد أسلمت نفسي إليه، دون أن أعرف ما الذي سيفعله. في البداية أمرني بالتوبة.. حيث سلخت مدّة أروّض نفسي في مرحلة التوبة للتطهّر من الآثام والتخلّف. ثمّ علّمني ما يمنحني التماسك والثبات.. معالجاً ـ أكثر ما يعالج ـ حالة الخوف. ولأني كنت قد التزمت أن أنفّذ ما يقول حرفيّاً وتعهّدت أمامه بذلك.. فقد تمكنت بفضل هذه التعليمات أن أتلبّس بالقدرة والثبات،

وأن أتخلص تماماً من الخوف.

في البداية قال لي: إنّ الخوف من ثمرات غياب الثبات والصّمود.. ولهذا عليك أن تخرج ليلاً إلىٰ البرّيّة المتاخمة للبلدة وتسير فيها ألف خطوة ـ تفعل هذا عشر ليال. يمكنك في الليلة الأولىٰ والثانية أن تصحب معك واحداً من أصدقائك في مسيرة الألف خطوة هذه. ومنذ الليلة الثالثة لا يصحّ أن تخرج إلاّ بمفردك، واعلم ـ بَلْ وأوْحِ إلىٰ نفسك ـ أنّ المكان المظلم لا ينقصه عن المكان المضاء إلاّ الضوء الذي ينعدم فيه، وما ينبغي للمرء أن يخاف من شيء عَدَم لا وجود له؛ إذ الظلمة تعني: عدم الضوء. واعلم بعدها أنّك حين تقطع العتمة برفقة أحد ولا تخاف.. فما ذاك إلاّ للأُنس بذلكم الرفيق، وإلاّ عدم التفكير في القضايا التي تبعث علىٰ الخوف. ومتىٰ ما اطّرح امرؤٌ الأوهام يتحرّر من نصف خوفه من الظلام. أمّا النصف الآخر من الخوف فإنّه يتبخّر حتماً إذا ما اقتنع المرء أنّه لا يوجد في الظلمة غير الأشياء التي يراها في وضح النهار، بل إنّ الأشياء التي في الظلام هي أقلّ ممّا يراه تحت الضوء.

وبدأت فعلاً بتطبيق هذه التجربة. وأعترف أنّي قد استوحشت في الليالي الأولىٰ وخفت.. بحيث لم أُرد أن اسمع صوت أنفاسي. لكنّ الخوف أخذ يخفت ويقلّ كلّما تقدّمت في التجربة إلىٰ الأمام.. حتىٰ تحررت نهائياً من العتمة ومن الانفراد.

بعدئذ قال هذا المربّي العزيز: بعد هذه الليالي العشر التي نبذت فيها الخوف من الوحدة والظلام.. عليك أن تختلي وحدك في غرفة مدّة ساعة واحدة في الليل، ولمدة عشر ليال. في هذه الخلوة تجلس وتفكّر في نفسك قائلاً: الآن.. سيدخل الجنّ عليّ! وركّز علىٰ هذا المعنىٰ في نفسك ما استطعت.. حتىٰ تمسي مسألة الجنّ عاديّة في نظرك. ومن المحتمل أن يصوّر لك خيالك في الليالي الأولىٰ صوراً لأشياء، لكنْ عليك ألا تعيرها

اهتماماً، بل إن عليك أن تأنس لأنّك تريد أن تكون لك صلة بكائنات لا يرتبط بها الآخرون.

ونفّذت كذلك ما أمر به الأستاذ. خفت كثيراً في البدايات، إذ كانت أشياء تتراءىٰ لعيني في الظلمة الحالكة. لكني أنِسْت بعئذ ـ كما قال لي الأستاذ ـ لأنّي أُريد الارتباط بكائنات لا يرتبط بها الآخرون. ولمّا بلغ الليل آخره.. لم أعد أرىٰ شيئاً أبداً، ولم أعد أخاف. وهكذا ذهب عني ـ والحمد لله ـ الخوف من الجن والملائكة والأرواح.. بل كنت أرجو حقّاً أن أرىٰ منها شيئاً.

ومع هذا كلّه.. فإنّي ما زلت أخاف من الميّت، وأستوحش لذلك من ذكر الموت. ولم يَقُل لي الأستاذ شيئاً في هذا الصّدد. لكنّه قد أصرّ علىٰ أن أصحبه مرّة في الأسبوع إلىٰ المقبرة، لقراءة سورة الفاتحة لِدُفَنائها. في أحد تلكم الأسابيع..

سألته: لماذا لا تحملني علىٰ الثبات والتماسك في موضوع الموت والخوف من الأموات؟

فقال الأستاذ: لم يأزف وقت هذه المعالجة لأمرين:

الأوّل: إنّك لم تدرك حتىٰ الآن حقيقة الموت والموتىٰ.

والثاني: إنّك لا تستطيع أن تتصوّر أن الإنسان إذا مات فقد نقص منه شيء، أي نقصت منه قدرته. الدوافع الضارّة التي للإنسان أن يتحاشاها.. قد نقصت منه. وأخيراً.. فإنّ روحه التي ترتبط بها كلّ أفعاله قد ذهبت عنه. فلمَ إذَنْ يخشىٰ الإنسان منه؟!

أمّا أنا.. فلم أقل شيئاً لأنّي كنت التزمت ألاّ أناقش أستاذي، وانتظرت حتىٰ حان الوقت المناسب، وبرئت كل البُرْء من خوف الموت والأموات.

أي أنّ أستاذي شرح لي، في بداية الأمر، من حقيقة الموت ما أنار فكري حول هذه الحقيقة، خاصّة وإنّي طالب في كلّية الطبّ. . ومن الضروري لي أن أدخل في قاعة التشريح وأتعامل مع الموتىٰ بالمِبْضَع والمِشْرَط. ومع أنّي وجدت في نفسي في الأيام الأولىٰ غير قليل من التهيّب والتردّد. . لكنّي بالتدريج أدركت قول الأستاذ بأنّ الميّت عاجز عن عمل شيء. ثمّ آل أمري أن غدوت ـ كغاسل الموتىٰ الذي لا يهاب ميتاً ولا يستوحش منه ـ وهذا جعلني أدرك حقيقةً مُفادها أنّ المرء إذا خاف من شيء فعليه أن يقدم عليه بكل شجاعة وفق النهج الصحيح، فيقدر عندها بقليل من المكابدة والمعاناة أن يحرّر حياته كلها من هذه المنغّصات.

وبهذه الرياضة النفسيّة القليلة التي استطعت فيها أنْ ألقي الخوف جانباً. . أحسست بقوّة تموج في داخلي قادرة علىٰ إنجاز الأعمال الصعبة العسيرة بسهولة ويُسْر.

تحمّل الشدائد

يقول أحد تلاميذ نهج أهل البيت عليهم السلام:

توفّيت أمّي وأنا طفل صغير، فتركت فجيعتها في نفسي أثراً سلبيّاً.. حتىٰ أنّي ما كنت أطيق - بعدها - أن أرىٰ أحداً من أقاربي يُصاب بِوَعْكة صحيّة. وإذا حَدَث أن مات أحد ممّن أعرف فإنّ الجزع يشتدّ بي أكثر من أهل الميّت أنفسهم، وأقعدُ للمناحة والبكاء. إنّ خبراً سيئاً يطرق سمعي كان كفيلاً أن يوهنني ويعصف بي.

وقد لازمتني هذه الحالة زماناً.. حتىٰ قصدت يوماً عالماً عسىٰ أن يقدر علىٰ معالجة هذا المرض الروحيّ، فقال لي: إنما تحدث لك هذه الحالة لأنّ عاطفتك فيّاضة، سرعان ما يحترق قلبك علىٰ الآخرين. وهذه من الصفات الإنسانيّة الحميدة، فلا ينبغي أن تقلق.

بَيْد أنّي أدركت أنّ هذا العالِم لم يشخّص الداء الذي أوشك أن يقضي عليّ.. ولهذا خرجت من لدن هذا العالم لا يقرّ لي قرار، إذ لم يعد في وسعي أنّ أتحمّل أصغر خطب يحلّ بي.

وهذا دعاني أن أمضي إلىٰ أستاذ - وما يزال أستاذي حتىٰ الآن - استفدت منه كثيراً. قال لي: حالتك هذه هي أثر من آثار الصّدمة العاطفيّة

التي تلقّيتها في طفولتك علىٰ أثر موت أمّك. ولسوف تخرج بإذن الله، من هذه الحالة ـ إذا عملت بما أوصيك ـ إلىٰ حالة التوازن العاطفيّ. شكرته علىٰ ما أبدىٰ لي وتعهّدت أن أعمل بوصاياه. قال الأستاذ:

أولاً ـ أن تكثر في ليلك ونهارك من ذِكر: «يا صابر» (ألف مرّة يومياً على الأقلّ) الذي هو من الأسماء الإلهيّة، ولسوف يَرْفِدك هذا الاسم المقدّس ويُنْجدك، لتواجه مصائب الدنيا بصبر وثبات.

ثانياً ـ أن تدمن قراءة الآية الكريمة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

علىٰ أن تتدبّر بدقّة في معنىٰ هذه الآية، فإنّ هذا التدبّر يزيد من قدرة الإنسان علىٰ الصبر إزاء المصائب والكُروب.

وغير هذا. . عليك أن توحي إلىٰ نفسك كلّ يوم، بل في كل وقت، معاني من مثل: لا بدّ أن أكون في مقابل كافة البلايا ثابتاً كالجبل، فلا تهزّني أيّ بليّة.

قُلْ لنفسك: إنّي لَقويّ. ما الذي ينقصني عن عظماء رجال التاريخ الذين تحمّلوا المصائب والصِّعاب ووصلوا إلىٰ الكمال الإنسانيّ وإلىٰ مراقي العظمة؟!

لو أنّ مريم ابنة عمران عليها السلام لم تواجه كبرىٰ مصيباتها (وهي أن تحمل

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

ـ وهي فتاة عذراء ـ بدون زواج، فيرميها قومها بفاحشة الزّنى) بالتحمّل والصبر، وكانت لجأت ـ كما يفعل الضعفاء المهزومون ـ إلى الانتحار. لَما كان لها هذا المقام الكبير الذي يتقدّم إليه عدّة مليارات من المسيحيين والمسلمين بالاحترام والتقدير.

ولو لم يصبر عيسىٰ بن مريم عليه السلام ويثبت، إزاء الشدائد والمصائب التي أوردها عليه الحواريّون وأعداؤه اليهود، فيترك الميدان ويستسلم إلىٰ الدّعة.. لَما كانت له هذه العَظَمة التي يقرّ له بها مليارات المسلمين والمسيحيين في العالم بأنه من أفراد الجنس البشريّ المتميّزين.

ولو أنّ رسول الله محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله لم يتحمّل المصائب والمشقّات طيلة ثلاث وعشرين سنة من الزمان الصّعب.. فإنّ الدين الإسلامي المقدّس لم يبق علىٰ هذه العظمة.

وإذا ما تأمّلنا في حياة الأنبياء والأولياء ـ بل حتىٰ كبار العلماء ـ فلربّما لم نجد أحداً منهم قد بلغ ما بلغ دون أن يطوي مراحل من التحمّل والصبر والثبات إزاء المصائب والمكاره.

واعلمْ أنّ الدنيا في حقيقتها ملآىٰ بالمكاره والمصائب والكروب. إنّها دار بالبلاء محفوفة، فلا بدّ لكلّ أحد أن يصيبه فيها حظّ من هذه الشدائد والبليّات. ولا يهنأ عيش لأحد في هذه الدنيا إلاّ إذا واجه المصائب والمصاعب بالصبر والإيمان.

يقول واحد من مشاهير رجال العلم والمعرفة: ولدتُ في قرية من أب فقير معدم.. كانت تتوالىٰ عليه الرزايا والمحن. ولا أنسىٰ مثلاً ذلك الشتاء الجليديّ القاسي الذي أصاب أسرتنا فيه داء قاتل لم ينجُ فيه منّا ـ ونحن خمسة اخوة وأب وأمّ ـ غيري وغير أبي. وخلال أسبوع واحد كانت أمّي وإخوتي الأربعة ينازعون الموت أمام أعيننا. في وقتها لم نقدر أن نمضي من

القرية إلىٰ المدينة لاحضار طبيب، ذلك لأنّ الثلج الغزير كان قد سدّ الطريق. ولقد عصفت هذه الرزايا بأبي وأوهنته حتىٰ هَجَس له يوماً أن يعلّق نفسه بحبل في الاصطبل وينتحر، فعمدتُ إليه أصبّره وأسرّي عنه. كنت أقول لنفسي دائماً: لو أنّي أقابل المصائب برخاوة وضعف فإنّي لن أجني غير الهزيمة والخسران، ولن أُفيد غير تعبيري عن الضعف والعجز والهوان.. فلمَ إذَنْ أُهزَم إزاء هذه الحوادث وأفقد الثبات وأعمل ليُسجَّل اسمي في التاريخ كانسان عاجز مهزوم؟! ولكنّي إذا ما ثبتّ إزاءها، منصرفاً إلىٰ أعمالي العلميّة. والمعنويّة ولا أكترث لهذه الرزايا والبلاءات.. فإنّي لا بدّ أن أتسلّق ذُرىٰ عالية من الكمالات العلميّة والمعنويّة. من أجل هذا جعلت صدري تِرْساً أمام المصائب وثَبَتّ صامداً كالجبل لا أبالي بما حلّ بأسرتي من هذا البلاء الكارث. وهذا جعل المصاعب تَهون في نظري وتصغر يوماً بعد يوم، وغدوت قادراً علىٰ مواجهة شدائد الدهر.. حتىٰ أفلحت أن أبلغ ما بلغت.

وفي إحصائيّة أوردتها إحدىٰ الصّحف أنّ معدّل حالات الانتحار في أمريكا يبلغ حالة انتحار واحدة في كلّ (٣٥) دقيقة. وفي كلّ دقيقة يصاب إثنان بالجنون. ولو كان لهؤلاء الناس صبر وتحمّل في مقابلة بلايا الدنيا، وكانوا يواجهون المكاره بقوّة الإيمان لانخفضت هذه الأرقام كثيراً، ولما حدثت هذه الجرائم.

بعدئذ.. قال لي الأستاذ: إذا أردت أن تغدو صبوراً متماسكاً ازاء المصائب والبلاءات فعليك أن تمتّن اعتقادك بالله (تعالىٰ) وتقوّيه. فمن يعرف الله (جلّ جلاله) ويستند آوِياً إليه بقلب مطمئنّ يقدرْ علىٰ احتمال الرزايا والبلايا، ولا يبقىٰ في داخله للخوف والحزن من ظلّ ولا أثر. يقول الله (تبارك وتعالىٰ) في هذا الصدد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ولقد عملت بما أوصاني الأستاذ وبما نصحني. وإذ أنفقت بضعة أشهر من الوقت متطلعاً فيها إلىٰ تحصيل الصبر والاستقامة والثبات ازاء مكاره الدهر.. فقد نِلْتُ ـ ولله الحمد ـ ما كنت اتطلّع إليه، وذهب عني تماماً ما كنت أعانيه من الضعف والخَوَر والعذاب الروحيّ.. بمدّد وتوفيق من الله (تعالىٰ).

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٣.

الصبر على العبادة

قليلَ الصبر علىٰ العبادة كنتُ، قليل التحمّل. وكان في مخيّلتي أنّ بإمكاني أن أظفر بكلّ الكمالات الروحيّة لو أنّي أحييتُ ليلة واحدة في حرم الإمام الرضاعليه السلام حتّىٰ الصّباح، أو أؤدّي عملاً عباديّاً صعباً مرّة واحدة.. ثُمّ أقضي سائر أوقاتي في غير ما عبادة. ولهذا فإنّي كنت أقرأ في كتب الأدعية كيفما اتّفق، ظَنّاً منّي أنّ الدعوات والأعمال المندوبات كَمَثلِ حديقة ورد يدخلها المرء فيقطف منها كلّ يوم وردة من غير النوع الذي قطف منه أمس.

وما زلت وقتئذٍ كذلك.. حتّىٰ مَنّ الله (تعالىٰ) عليّ فيه بأستاذ مرشد حكيم، لا أجد في وصفه خيراً من تعبير «طبيب روحي» ـ نفسي له الفداء.. فأنقذني من حيرتي، وكان لي نِعْم الدليل. ذلك أنّي كنت أقرأ الأدعية وأؤدّي المستحبّات سنوات عديدة ولم أحصل علىٰ ثمرة، فمللت.

ذهبت إلىٰ هذا الأستاذ وأخبرته خبري.. فقال لي: إنّ المستحبّات المبثوثة في كتب الدعوات ـ والتي وصلت إلينا من المعصومين الهداة (صلوات الله عليهم أجمعين) ـ إنّما مَثَلُها كَمَثل الأدوية والعقاقير التي نراها في الصيدليّة. فلا يصحّ لك أن تدخل الصيدليّة كل يوم فتتناول ما شئت من

الدواء؛ فإنّ عليك ـ إذا كنت مريضاً ـ أن تقوم بتشخيص الداء أولاً. . كأنْ تشخّصه أنت، أو يتعهّد بهذا طبيبك المعالج، ثمّ يُصار إلىٰ تحديد نوع الدواء اللازم، لتتناول منه بالمقدار الصالح لك. . حتىٰ تشعر بأثره الإيجابي في بدنك. وقد ورد في بعض الروايات أنّه ينبغي المداومة علىٰ العمل سنة على الأقل. قال الإمام الصّادق عليه السلام :

«مَن عَمِل عَملاً مِنْ أعمالِ الخير، فَلْيَدُم عليه سنةً ولا يَقطَعه دُونَها»[1].

وقال عليه السلام : «إذا كان الرّجُل علىٰ عمل. . فَلْيَدُم عليه سنة، ثمّ يتحوّل عنه إنْ شاء إلىٰ غيره»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً: «إيّاك أن تفرض علىٰ نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً»[3].

ومن وجهة أخرىٰ. . علىٰ المرء أن يحاذر الافراط في قراءة الأدعية والعبادات؛ فإنّ هذا الأفراط يؤدّي إلىٰ التعب والإشباع. يقول أمير المؤمنين عليه السلام يوصي ولده:

«واقتصِدْ يا بُنَيّ في معيشتك، واقتصدْ في عبادتك. . وعليك فيها بالأمر الدائم الذي تطيقه»[4].

ويقول أيضاً: «قليل تدوم عليه أرجىٰ من كثير مَمْلول فيه»[5].

---

(١) مستدرك الوسائل ١: ١٥.

(٢) أُصول الكافي ٢: ٨٥.

(٣) أُصول الكافي ٢: ٨٣.

(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢١٤.

(٥) شرح نهج البلاغة إبن أبي الحديد.

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام: «إنّي لأحبّ أن أدوم على العمل ـ وإن قلّ»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيء أحبّ إلى الله (عزّ وجلّ) من عمل يُداوَم عليه وإن قلّ»[2].

وقال الصادق عليه السلام: «إنّ خير العبادات... أدوَمُها ـ وإن قلّ»[3].

وهذا يدلّنا أنّ الأذكار والعبادات المستحبّة ينبغي أن يؤدّي منها الإنسان بقدر طاقته وبقدر حاجة الروح، ممّا لا يبعث على الملل والكسل. يضاف إلى هذا أنّ عليه أن يواظب على أحد الأدعية أو الأذكار أو العبادات المختارة زماناً يحدده له الأستاذ. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مرّ بي أبي وأنا بالطواف ـ وأنا حَدَث ـ وقد اجتهدتُ في العبادة.. وأنا أتصابّ عَرَقاً. فقال لي: يا جعفر، يا بُنَيّ إنّ الله إذا أحبّ عبداً أدخله الجنّة، ورضي عنه باليسير»[4].

ثمّ قال الأستاذ: إنّ من له حظّ من المتانة والثبات إنّما يواصل أيّ عمل يعمله مدّة من الزمان، حتى يقطف ثمرته.. تماماً كمن يريد أن يدقّ مسماراً في جدار، فإنّ عليه أن يواصل طرقه بالمطرقة مرّات عديدة ـ خاصّة إذا كان الجدار صلباً.. وإلاّ فإنّه لن يستطيع انجاز هذا العمل.

وكذا شأن المرء مع الدعاء، فمن كان يرجو أن يحالفه التوفيق فيظفر ببلوغ مرحلة من المراحل الروحيّة فليواظب مدّة على إحدى العبادات المناسبة للمرحلة التي يطمح إليها، فلا يتركها يوماً واحداً أو مرّة واحدة. إنّ الذين

---

(١) أصول الكافي ٢: ٨٢.

(٢) أصول الكافي ٢: ٨٣.

(٣) بحار الأنوار ٧١: ٢١٥.

(٤) بحار الأنوار ٧١: ٢١٣.

ينشغلون كلّ يوم بعمل ما ولا يَصِلون بعمل واحد من هذه الأعمال إلىٰ غايته ومنتهاه، لن ينتجوا عملاً صحيحاً في يوم من الأيّام، ولن يكون التوفيق حليفهم. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «عَدوّ العمل: الكسل»[1]. ويقول أيضاً: الكَسَل يضرّ بالدين والدنيا»[2].

وتابع الأستاذ يقول لي؛ واعلمْ يا ولدي أنّ مفهوم (الصبر علىٰ العبادة) الذي ورد في الأحاديث إنّما يراد به هذه المداومة علىٰ العبادة وتحمّل المشقّات التي يلقاها المرء في طريق العبادة والعبودية لله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«المُداومةَ المُداومةَ؛ فإنّ الله لم يجعل لمؤمنٍ غايةً إلاّ الموت».

وأوصيك ـ يا بُنَيّ ـ إذا أردتَ أن تكون في منأى عن قلّة الصبر هذه وقلة التحمّل أن تتخيّر عبادة خفيفة تناسب حالتك وروحيّتك ثم تأخذ علىٰ عاتقك ألاّ تتركها ولا يوماً واحداً، وأن تدوم عليها سنة واحدة على الأقلّ (وقد أوصاني الأستاذ بعدئذ بالتزام احدىٰ العبادات المناسبة لي) واسْعَ لتقوية إرادتك، ولا يَخطرَنّ ببالك أبداً أن تترك هذه العبادة[3].

(١) أُصول الكافي ٢: ٨٥.

(٢) تحف العقول: ٢١٩.

(٣) مستدرك الوسائل ١: ١٥.

ثبات القدم إزاء المعصية

في أوان شبيبتي. . كان الشيطان والنفس الأمّارة قد قعدا لي علىٰ قارعة الطريق: كلّما كنت أحاول النأي عن دوّامة المعصيّة فإني أجدني وقد قذفا بي في وسطها. كنت أجدُ فيّ شيئاً من الضعف إزاء الشيطان والنفس. وبالتدريج كان يداخلني اليأس من أن أغدو عبداً لله وأن أترك الذنب. قصدت مرّة جليلاً من الأساتذة وحكيت له، فقال: لو أنّك أوْلَيْتَ اهتمامك لمسألتين لوجدت لك عزماً لترك الذنب.

الأولىٰ: أن تعرف ماذا يعني الذنب.

الثاني: أن تنظر إلىٰ عظمة الذات الإلهيّة المقدسة بعين الاعتبار!

وتفصيل هذا أنّ علىٰ الإنسان أن يُعْنىٰ بروحه ـ في الأقل ـ كما يُعْنىٰ بجسده، وأن يدرك أنّ المعصية بالقياس إلىٰ الروح كالسمّ بالنسبة إلىٰ البدن، وأنّ أدنىٰ ذنب يرتكبه المرء إنّما هو كقطرة سمّ يتجرّعها فتسمّ البدن وتذهب بسلامته. وربّما تقضي المعاصي علىٰ روحه إلىٰ الأبد إذا أقام عليها ولم يبرح. ومتىٰ ما استحضر الإنسان هذا المعنىٰ في وعيه. . فإنّه لن يقرب الذنب ولن يجترحه.

أو لو أنّ الإنسان ـ من وجهة أخرىٰ ـ يقدّر الله في الأقلّ كما يقدّر مُضيّفاً

كريماً قد دعاه إلىٰ ضيافته وأسبغ عليه أنواع النعم بكلّ توقير وتكريم.. فكما أنّه لا يُقْدِم ـ والحالة هذه ـ علىٰ اقتراف عمل من شأنه أن يُغضب مضيّفه ويغيظه فعليه على الأقلّ أن يقدّر نِعَم الله (تعالىٰ) وأياديه وأفضاله عليه، فلا يقترف أي معصية تُغضب الله عليه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنِ استقامَ فإلىٰ الجنّة. ومَن زَلَّ فإلىٰ النار»[1]. أي أنّ مَن جَهِد في ترك المعاصي، وقاوم تسويلات النفس ووساوس الشيطان.. فإنّ منتهاه إلىٰ الجنّة. وأمّا من زلّت به قدمه إلىٰ العصيان فإنّما يزلّ إلىٰ النار.

واعلمْ أنّ الله (تعالىٰ) يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]. وإذا كان الأمر كذلك فعلىٰ الإنسان ـ من أجل آخرته، من أجل هناءته في حياة الأبد، من أجل نجاته من عذاب الله، من أجل ألاّ يموت قلبه ـ أن يهجر المعاصي والآثام، وأن يعظّم صغار الذنوب. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تُحَقِّروا شيئاً من الشرّ ـ وإن صَغُر في أعينكم»[3].

إنّ علىٰ الإنسان ـ صيانةً لنفسه من أخطار المعاصي، وتبرُّؤاً من الاستهانة بعظمة أمر الله، وتحقيقاً للوفاء وشكر النعم الإلهيّة، وإنجاءً لنفسه من عذاب النار ـ أن ينزّه نفسه عن الذنوب والآثام، وأن يراعي التقوىٰ مراعاة دقيقة علىٰ كلّ حال. يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يوصي ولده الإمام الحسين عليه السلام: «يا بُنَيّ.. أوصيك بتقوىٰ الله في الغِنىٰ والفقر»[4].

ثمّ قال لي الأستاذ: لو تعلم ما يكون من غضب الله (تعالىٰ) إزاء الذنب

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١١٩.
(٢) سورة المدّثر، الآية: ٣٨.
(٣) بحار الأنوار ٧٣: ٢٥٥.
(٤) بحار الأنوار ٧٧: ٢٣.

لَما عصيتَ أبداً. إنّ الذنب ـ في حقيقة أمره ـ تسرّع إلىٰ غضب الله وسخطه. وأنّ المعصية لتغضب الحقّ (جلّ وعلا) إلىٰ حدّ أن قال (جلّ جلاله):

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وهذا برنامج منظّم هيّأته لك، لن تقترف ـ إذا التزمت به ـ ذنباً ولن تقرب معصية بإذن الله.. فترضي الله (سبحانه وتعالىٰ) عنك علىٰ الدوام.

الأوّل: أن تواظب علىٰ ذكر «يا رحمٰن يا رحيم» مدة خمس عشرة دقيقة على الأقلّ.. متوجّهاً إلىٰ رحمة الله، وذاكراً نعمه وآلاءه.

الثاني: أن تلتزم بذكر «يا ديّان» مدّة لا تقلّ عن عشر دقائق.. مستذكراً ما أعدّه الله (تعالىٰ) من العذاب للعصاة، وموقناً أنّ الله لا تخفىٰ عليه خافية ممّا تجترح من الذنوب مهما صَغُرت وخَفِيَت. فإذا رأيت أنّك بدأت تدخل في حالة من الخوف، والخشية تجري فيها من عينيك الدموع.. فعليك أن تبادر إلىٰ الاستغفار مئة مرّة على الأقل قائلاً: «أستغفرُ الله ربّي وأتوبُ إليه»، علىٰ أن تصمّمَ أن لو قُطّعتَ إرباً إرباً لما اقترفتَ ذنباً من الذنوب. وعليك أن تجدّد هذا العمل ـ كحدّ أدنىٰ ـ مرّة في الأسبوع، ليسهل عليك ترك المعصية ويحالفك التوفيق.

وَلْتَعلمْ أن قيمة المرء مرهونة بإرادته؛ إذ ترتفع قيمته وانسانيّته بارتفاع درجة همّته وإرادته. فإذا ما فاز امرؤٌ بإرادة صُلْبة فإنّه يُرغم فيها نفسه علىٰ مفارقة الإثم.. مستمسكاً بهذه الإرادة وسائلاً الله (عزّ وجلّ) أن يعينه في هذا السبيل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤.

إدفع عنك المَلالة والكسل

التقيت يوماً بصديق كان قد خَسِر في حياته تجربة أو اثنتين، فلم يفلح في تحقيق ما كان يصبو إليه. فاشتمل عليه اليأس والقنوط، وأصبح كائناً عاطلاً لا يقوىٰ من أمره علىٰ شيء. وعلىٰ الإجمال فإنّه زوىٰ نفسه سآمةً ومللاً ـ علىٰ أثر ما أصابه ـ وأسلم نفسه لحوادث الأيّام وبلاءات الدهر، ولم يتحرّك للدفاع عن نفسه. أمّا العبادة فلم تكن في داخله رغبة إليها. . والحال أنّ المرء إذا لم يقف أمام رياح تصاريف الزمان كالجبل، ولم يواصل عمله وعباداته فإنّه لا بدّ أن يتهاوىٰ ويخسر في الدنيا والآخرة خسراناً لا يعوّضه شيء.

أخذت هذا الصديق إلىٰ أحد كبار أساتذة علم تزكية النفس، وطلبت منه أن يحكي له ما ألمّ به. فاستجاب صاحبي ـ ولله الحمد ـ وعرض علىٰ هذا العالم حالته.

ومن خلال مواعظ الأستاذ ـ التي سنذكرها ـ والتعليمات التي أوصاه بها. . استطاع أن ينتزع نفسه من وضعه القديم ويفوز بحياة جديدة. وهو الآن ـ والحمد لله ـ من خيرة الملتزمين بالبرامج المعنويّة والروحيّة.

في البداية شرع الأستاذ يتلو عليه آيات من القرآن الكريم تتعلق بالنشاط

والسَّبْق في الخيرات والدوام علىٰ العبادة. . إيماناً منه أنّ هذه الآيات في ذاتها تُحْدث نورانيّة فيه تبعثه علىٰ النشاط للعبادة، وتحرّره من أسر هذا الاحباط. وهذه هي الآيات الكريمة التي تلاها عليه:

- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

- ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

- ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[3].

- ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[4].

إنّ علىٰ المسلمين ـ إذَن ـ أن يتسابقوا تلقاء الأعمال الصالحة ـ دنيويّة وأُخرويّة ـ وألاّ يفرّطوا بلحظة واحدة في التقدّم نحو الكمالات الماديّة والمعنويّة.

ثمّ إنّ الأستاذ قال له: هذه الحالة التي تمرّ بها تسمّيها الروايات بـ«الفَتْرة» ـ أي: الفُتور والتوقّف والسُّكون، بعد مدّة من العبادات الشاقّة المُتعبة التي لا بدّ وأن تنتهي بالمرء إلىٰ مثل هذه الحالة.

يقول النبيّ الأكرمﷺ: «ألاَ إنّ لكلِّ عِبادة شَرّة، ثمّ تصير إلىٰ فترة»[5].

أي: اعلموا أن لكلّ عبادة (وخاصّة في البدايات) نشاطاً كثيراً ورغبة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦١.

(٥) أُصول الكافي ـ كتاب الايمان والكفر.

بيّنة، يقبل فيها المرء علىٰ هذه العبادة بشوق وتوق. . علىٰ أمل أن يبلغ هدفه بأقرب فرصة. وإذ أنّه لم ينهج في عبادته النهج الصحيح، فإنّه لن يبلغ ما كان يأمل، ويقع ـ مِن ثَمّ ـ في تعب ونَصَب يقوده إلىٰ التوقف والفتور. وإذا طرأ علىٰ المرء هذا وهو ما يزال سَوِيّاً لم ينحرف عن الصراط المستقيم فإنّ الله (تبارك وتعالىٰ) يأخذ بيده ويهديه. ولكنّ من أسرف علىٰ نفسه وخرج عن جادّة الصراط متلقّياً برنامج العبادة من هذا وذاك فيقع في مسلك منحرف يتعبه. . فإنّه لا بدّ أن يضلّ ويهلك ولا ينجيه عمله هذا.

ويقول النبيّ ﷺ في تتمّة الحديث: «أمَا إنّي أُصلّي وأنام، وأصوم وأُفطر، وأضحك وأبكي. فمن رغب عن منهاجي وسُنّتي فليس منّي»(١).

أي: أني أحيىٰ مثلكم حياة عاديّة، وأشارك في الحياة البشريّة كسائر الناس. . بلا إفراط ولا تفريط. لا أنقطع إلىٰ التعبّد إلىٰ حدّ الإعياء ولا أحرّم علىٰ نفسي النوم، ولا أكسِل حتىٰ أخرج من عداد عباد الله المتعبّدين. فكونوا مثلي فإنّ هذه سنّتي ومنهاجي. . ليس مني مَنْ فارقهما.

يقول الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «إنّ لكلّ أحد شرّة، ولكلّ شرّة فترة. . فطوبىٰ لمن كانت فترته إلىٰ خير»(٢).

يعني عليه السلام ألاّ تؤدّي الفترة والوقفة ـ بعد النشاط ـ إلىٰ شرّ بل إلىٰ خير. . فإنّ من يعمل سوءاً في حالة نشاطه ويظلّ ماكثاً في حالته هذه فإنّه يقيم عندئذ في أسوأ وضع. ومن يكن في حالة نشاطه مقبلاً على الخيرات فإنّه يتوقف ـ إذا توقّف ـ علىٰ وضع حَسَن.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢١.

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «ما مِن أحد إلاّ وله شرّة وفترة. فمن كانت فترته إلىٰ سُنّة فقد اهتدىٰ. ومن كانت فترته إلىٰ بِدْعة فقد هوىٰ»[1].

وقال له الأستاذ أيضاً: وطبق ما ورد في أحاديث جمّة عن المعصومين عليهم السلام فإنّ علىٰ المرء أن يسلك، في عبادته، الطريقة الوسطىٰ. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تُكَرّهوا إلىٰ أنفسكم العبادة»[2] ـ أي بإكراه النفس علىٰ التزام العبادات والمستحبّات. ومعنىٰ هذا أن يحذر الإنسان القيام بعبادات مستحبّة أكثر من الحدّ الذي يشعر فيه بلذّة العبادة ويجد في نفسه نشاطاً لها وهمّة.. لئلاّ يَؤول أمره إلىٰ ما آل إليه أمرك. ولو مات الإنسان وهو في حالة من الفترة والتعب من العبادة ـ خاصّة إذا انجرّ إلىٰ الإنحراف والزهد في الله (جلّ جلاله) والرغبة عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه ينقلب إلىٰ الآخرة في شرّ حال.

وفي حديث ابن مسعود أنّه مَرِض فبكىٰ، فسئل عن بكائه فقال: إنّما أبكي لأنّ المرض أصابني علىٰ حال فترة، ولم يُصِبْني علىٰ حال اجتهاد.

وإذَنْ.. فالأمر الذي كان يقتضيك مراعاته فيما سلف لئلاّ تعرض لك حالة الارهاق والنصب هو ألا تفرط في العبادات والتطوّعات.

وعندها قال صديقي للأستاذ: في تلك الآونة كنت اتّخذت سبيلي إلىٰ عالم أوصاني بكثرة إتيان العبادات المستحبّة، وكنت أقضي بعض الليالي بالعبادة إلىٰ الصباح. ولا أستبعد أنه كان لتلك الأعمال الكثيرة المتابعة أثر في إيجاد ما بُليت به من تعب ويأس.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢١٢

(٢) بحار الأنوار ٧١: ٢١٣.

قال الأستاذ: بلىٰ، إنّ الواقع ما قلت. ما ينبغي للمربّي أن يَكِل المتعلّم إلىٰ برنامج عبادي مكثّف يرهقه ويضنيه. يقول رسول الله ﷺ: «إنّ هذا الدّين متين، فأوغلوا فيه بِرفق، ولا تكرّهوا عبادة الله إلىٰ عباد الله».

واعلمْ يا هذا أنّ من علائم الجهل أن يتزيّد المرء تزيّداً مفرطاً في عمله أو أن يقلّ عمله إلىٰ حدّ التضييع. يقول الإمام عليّ عليه السلام: «لا يُرىٰ الجاهل إلا مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً»[1].

وكما أنّ من لا خبرة له بقيادة السيارة ينحرف بها ـ إذا جلس وراء المِقْوَد ـ ذات اليمين مرّة، ويميل بها ذات الشمال أخرىٰ.. فكذلك الجاهل إذا دخل في شأن لا يعرف مداخله، فإنّ مآله إلىٰ الزيغ والانحراف ما لم يكن له من يرشده ويسدّده. ونظير هذا مسألة العبادة والتعبّد لله والسير في طريق الكمالات الروحيّة؛ فإنّها ممّا يحتاج إلىٰ استهداء دائم وإلىٰ دلالة تواكب المرء في كلّ حركته علىٰ نهج السير والسلوك تلقاء الكمالات والمعنويّات. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «هَلَكَ مَن ليس له حكيم يُرْشده».

من أجل هذا ـ وما يزال الحديث للأستاذ ـ فإني أوصيك؛ إزالةً لما عَرَض لك من وهن ويأس، أن تقول كلّ يوم ـ بإرادة وعزيمة ـ: «لا إلٰه إلاّ الله» مئة مرّة. وتصلّي علىٰ النبيّ ﷺ مئة مرّة، كما تستغفر مئة مرّة أيضاً، علىٰ أن تتدبّر في معنىٰ ما تقول من هذه الأذكار وعليك كذلك أن تؤدّي فرائضك علىٰ الوجه الصحيح في أوّل أوقاتها، وأن تترك المناهي والمحرّمات. وينبغي أن تصبر علىٰ تنفيذ هذا المنهج مدّة أربعين يوماً على الأقل.. لنرىٰ بعدئذ ما يكون.

قال صديقي: بعد هذه الأيّام الأربعين.. وجدت همّة قد تجدّدت فيّ ونشاطاً، وحالة من الإقبال علىٰ العبادة كما كنت فيما مضىٰ من الزمان.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢١٧.

بالإرادة القويّة.. نبلغ الثبات

ثمّة رجل تاجر دؤوب قد سعىٰ كثيراً في درب الكمالات الروحيّة. وكانت طبيعة عمله تقتضي أن يسافر إلىٰ الخارج عدّة مرّات في السّنة. قال لي هذا الرجل يوماً: أُريد أن أكفّ عن السفر إلى أوروبا والبلدان غير الإسلاميّة؛ لأنّي حين أخالط أناسها الفاسدين المحرومين من الحياة الروحيّة والمعنويّة، أجد تغيّراً في حالتي، فلا أقدر علىٰ أن أصون نفسي من المعصية.

قلت له: كان لي أستاذ حدّثته مرّة أنّ لي حالة كهذه التي ذكرتَها الآن. . فقال لي الأستاذ: إنّ هذا التغيّر الذي يطرأ علىٰ حالتك في مثل هذا الظرف إنّما سببه أنّك لم تَطْوِ مرحلة «الثبات» ولم تعبرها كما ينبغي. وإلاّ فانك إذا طويتها حقّاً تغدو راسخاً كالجبل الذي لا تهزّه العواصف. . تغدو كمن تدرّع بملابس ضدّ الحريق ودخل في وسط لهيب النار. ومتىٰ غدوتَ كذلك فإنّ نار فساد أوروبا والغرب لن تحرقك. إنّ أنبياء الله عليهم السلام قد عاشوا بين الكفّار، وقد استطاعوا ـ إلىٰ جوار صونهم أنفسهم ـ أن يكونوا هداةً وأدلاّء للآخرين. واعلمْ أنّ البشر ينقسمون ـ في التعامل مع البيئة التي يَحْيَون فيها ـ إلىٰ ثلاث فئات:

الأولىٰ: الذين ينفعلون بالبيئة انفعالاً كاملاً. . كالفِلّينة الطافية علىٰ الماء يأخذها معه أينما جرىٰ، أو كالبعوضة في الهواء: حيثما الريح تُمَيِّلْها تَمِل. ومن الواضح الجليّ أنّ هذه الفئة من الناس ممّا لا وزن لها في الموازين العلميّة والدينيّة والسياسيّة ولا اعتبار. إنّهم لا يصلحون لشيء، وغالباً ما يؤول أمرهم إلىٰ أن يتحوّلوا إلىٰ أدوات ذليلة في أيدي الخونة والطواغيت، أو يلجؤوا إلىٰ الإدمان علىٰ المخدّرات متحلّلين من كل قيد.

الثانية: فئة لأصحابها إرادة وثبات، وتماسك إزاء الفساد، فلا يطاوعون البيئة الفاسدة، ولا يستجيبون لانحراف المنحرفين. بيد أنّهم ليسوا من القوّة والمتانة ليؤثروا هم في البيئة ويكون لكلامهم فعل في القلوب والأرواح. إنّ هؤلاء ـ علىٰ نحوٍ ما ـ أناس صالحون متماسكون من الداخل، غير أنّ الانسان ذا الإرادة السالك إلىٰ الله. . ينبغي أن يكون، في جميع حالاته، أكثر متانة وأشدّ قوّة.

الثالثة: هم أولو الأقدام الراسخة والإرادة القويّة والكلمة النافذة الذين يغيّرون البيئة من حولهم أينما كانوا ولا يخافون لومة لائم. انّهم «كالبُنْيان المرصوص». . كالجبل الراسي. . كالفولاذ المقاوِم. وإنّهم كالمطر: يملؤون الأرض من تحتهم بالنُعمىٰ والبركات. وإنّهم كالعاصفة يكسحون الشرور والأسواء بعيداً عن المجتمع.

وإن الله (تعالىٰ) ليحبّ هذا النمط من الناس. . كما صرّح به القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1].

(١) سورة الصفّ، الآية: ٤.

ومثل هؤلاء يعبّر عنهم رسول الله ﷺ بقوله: «المؤمن كالجبل الراسخ.. لا تحرّكه العواصف».

وها أنت الآن تفكّر ألا تعيش في بيئة يكثر فيها الفساد لئلاّ تؤثّر فيك.. في حين عليك أن تمضي إلىٰ هناك وتغيّر الفساد. فإذا لم تجد في نفسك هذه القدرة فهلمّ إذنْ إلىٰ مدرسة أهل البيت المعصومين الطاهرين عليهم السلام تتمرّن ـ إلىٰ أمد ـ علىٰ رياضة النفس، وتقوية مَلَكاتك الروحيّة.. وبعدئذ ستجد أنّ الثبات وقدرة الاستمرار والمقاومة ـ وهي من آصَلِ المعاني الأخلاقيّة في الإسلام ـ قد بدأت تتجلّىٰ في باطنك من تلقاء نفسها وبدأت تتبلوَر. عندها يهون عليك أن تختلط بالمسلمين، وبالعصاة المذنبين، وبالكفرة الظالمين.. فتؤدّي تكليفك الإسلاميّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بكل ثقة ورسوخ، وبلا وَجَل أو خوف.. وتنطلق داعياً الناس إلىٰ الله (تعالىٰ)، فتكون مصداقاً للآية الشريفة:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]. ومصداقاً لقول الله (عزّ وجلّ): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

يظنّ بعضهم أنّ الله (تعالىٰ) يُنزِّل الملائكة علىٰ الذين «استقاموا» في وقت مماتهم وحَسْب. وليس الأمر كما يظنّون، فمن يستقم في طريق الله يُدْرِك أنّ الملائكة تتنزّل عليه في هذه الدنيا، فيبصرهم، وهم ـ بطريقة أو أخرىٰ ـ يُمدّونه وينصرونه. وعندئذ لن يخشىٰ أحداً إلاّ الله، فلا يخاف شيئاً

---

(١) سورة فُصّلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة فصّلت، الآية: ٣٠.

ولا يحزنه شيء. وهذه العَلاَمة ـ أي لا يَخافُ ولا يَحْزَن ـ إنّما هي من آثار نزول الملائكة ونُصْرتهم. وهذه الحالة أنسب أن يفوز بها المؤمن في الدنيا من فوزه بها في الآخرة؛ لأنه في الآخرة ماضٍ إلىٰ لقاء الله الرحيم. هذا.. إلىٰ جوار الآية (١٣) من سورة (الأحقاف)؛ فإنّها تقول لمن يعيشون مبتعدين عن الحقائق ظانّين أنّ رؤية الملائكة ونزولهم في الدنيا أمر مشكوك فيه.. تقول الآية لهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهذا يعني أنّ من يقاوم المشكلات، صائناً لايمانه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.. فلا خوف لديه من أحد أو من شيء، ولا يحزنه شيء.

وإذا ما أردتَ أن تغدو قويّاً ثابتاً في وجه الفساد.. فعليك أوّلاً أن تقوّي اعتقادك وترسّخه؛ فإنّ لهذه النقطة أثراً كبيراً في ايجاد القوة الباطنيّة والثبات. ثمّ عليك بعدئذ أن تختلي بنفسك ـ عدّة دقائق كلّ يوم ـ فتجلس في خلوتك منتصب البدن، وتحدّث نفسك بعزم قويّ وتصميم نافذ.. قائلاً:

أنا لا تهزّني العواصف علىٰ الإطلاق.

لن يغيّرني أيّ شيء أبداً.

أنا معتمد علىٰ الله القادر الحكيم.

إنّه معي ينصرني في كلّ المواطن.

لن انهزم أبداً.. لن أنهزم.

هذه العبارات ـ وما يماثلها ـ كرّرها مع نفسك مدّة عشر دقائق على الأقلّ، ثمّ تَنَفَس نَفَساً عميقاً، وقل مئة مرّة: «لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم»، واسأل الله (تعالىٰ) لنفسك القدرة والصبر والثبات.. توفّق إنْ شاء

الله عندئذ تحسّ أن الملائكة تنزل عليك تنصرك، وسيهبونك من الطمأنينة ما لا تخاف معه علىٰ شيء ولا يحزنك شيء.

وعمل الصديق التاجر بهذا المنهج الذي كان الأستاذ قد قاله. ولقد دامت رياضته الروحيّة أكثر من ثلاثة أشهر، لكنه غدا من بعدها متيناً مقتدراً.. يعبّر عن مَظْهَر للبنيان المرصوص، والجبل الراسخ، والمؤمن الواقعيّ.

سوء الظن بالناس

كان لي أستاذ، في مرحلة دراستي، قد مرّ بتجربة عابرة ـ ولكنها مؤثّرة ـ مع أشخاص خونة محتالين جاروا عليه. ومن حينها ساء ظنّه بالناس. . بحيث لم يكن يودّ أن تربطه بأحد رابطة رفقة وصداقة. إنّ إحساسه الغالب بالوحدة والانفراد جعله قلقاً في حياته قليل الثبات، حتىٰ لم يكن في وسعه أن يبلغ بعمل ـ ولو كان صغيراً ـ إلىٰ نهايته. . إذا كان يحتاج إلىٰ شيء من العناء أو كان يستغرق وقتاً طويلاً.

وكانت عاقبة أمره أن تسلّط عليه الكسل والرغبة في الانزواء. . ولم ينقذه العلم الذي معه من أن يتحوّل إلىٰ كائن غير ذي مزيّة وغير ذي شأن. لكنّه في الوقت نفسه كان يدرك أنّ سوء الظنّ بالناس خصلة سيئة شديدة السّوء. وهذه الحالة هي التي أدّت به ألا يكون له في المجتمع من اعتبار.

ومع أنّي كنت من تلاميذه في الفقه والأصول. . إلاّ أنّي حدّثته ـ تذكيراً له ـ بمسائل سأوردها الآن كان لها فيه أثر كبير. أرجو أن تكون نافعة لكم أيضاً.

في البداية قلت له: إنّ سوء الظنّ بالناس قد جعلك وحيداً منعزلاً، ولا ريب أنّك تشعر ـ لهذا ـ بكثير من الضعف. إنّ هذا الارتياب بالناس وسوء

الظنّ بهم قد نهىٰ عنه القرآن الكريم في قوله (تعالىٰ):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾(١).

ويقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: إطرحوا سوءَ الظنّ بينكم؛ فإنّ الله (عزّ وجلّ) نهىٰ عن ذلك(٢).

وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كم بين الحقّ والباطل؟ فقال: أربع أصابع ـ ووضع أمير المؤمنين عليه السلام يده علىٰ أذنه وعينيه فقال: ما رأته عيناك فهو الحقّ، وما سَمِعَتْه أُذناك فأكثره باطل(٣).

وقال عليه السلام: ضَعْ أمر أخيك علىٰ أحسنه، حتّىٰ يأتِيك منه ما يغلبك. ولا تَظُنَّنَّ بكلمةٍ خرجتْ من أخيك سوءاً.. وأنت تجد لها في الخير مَحْمَلاً»(٤).

ثمّ قلت للأستاذ: وتفيد أحاديث عدّة أنْ «إذا رأيتم أحد اخوانكم في خصلة تستنكرونها منه، فتأوّلوا لها سبعين تأويلاً»(٥). بل إنّ علىٰ المرء، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن يطلب لأخيه عذراً؛ فإنْ لم يجد له عذراً فعليه أن يلتمس له عذراً(٦).

وينبغي ـ كما ورد في (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٢) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٤.
(٣) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٦.
(٥) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٦.
(٦) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٧.

ألا تسمع في أخيك المسلم أقاويل الناس. ثمّ قال عليه السلام: الباطل أن تقول (فيما يتّصل بأخيك المسلم من سوء): سمعت، والحقّ أن تقول: رأيت[1].

بعد هذا قلت للأستاذ: إنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إذا اتّهم المؤمن أخاه.. انماثَ الإيمان في قلبه، كما ينماث الملح في الماء»[2].

فقال لي الأستاذ: جزاك الله خيراً إذ وعظتني. ولكن أتَعْلَم أنّه لا ينبغي إحسان الظنّ بالناس إذا كان الفساد غالباً على الزمان؟ ذلك أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول:

«إذا استولى الفساد على الزمان وأهله، فأحْسَنَ رَجُلٌ الظنَّ برجل.. فقد غرَّر»[3].

ويقول الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام:

«إذا كان زمانُ العدلُ فيه أغلب من الجور.. فحرامٌ أن تظنّ بأحدٍ سوءاً حتّى يُعْلَم ذلك منه. وإذا كان زمانُ الجورُ فيه أغلب من العدل.. فليس لأحد أن يظنّ بأحدٍ خيراً حتى يبدو ذلك منه»[4].

ولا أنسى أنّ أستاذاً ـ لمّا كنت أدْرُس في الحوزة العلميّة بقمّ ـ كان يذكر لنا كل يوم عبارة أو عبارات عن الشهيد الثاني (رحمة الله عليه).. كدرس في

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٧.
(٢) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٨.
(٣) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٤) بحار الأنوار ٧٥: ١٩٧.

الأخلاق، وكنت أنا أكتب ما يقول. وفي أحد الأيّام ذكر لنا أن الشهيد الثاني يقول في صدد الرِّيبة وسوء الظنّ:

«إعلمْ أنّه كما يَحْرُم علىٰ الإنسان سوء القول في المؤمن، وأن يحدّث غيره بلسانه بمساوىء الغير.. كذلك يَحْرم عليه سوء الظنّ، وأن يحدّث نفسه بذلك.

والمراد بسوء الظنّ المحرّم: عَقْد القلب وحكمه عليه بالسوء من غير يقين. فأمّا الخواطر وحديث النفس فهما معفوّ عنهما... قال الله (تعالىٰ): ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيانٍ لا يحتمل التأويل. وما لم تعلمه ثمّ وقع في قلبك فالشيطان يُلْقيه، فينبغي أن تكذّبه، فإنّه أفسق الفاسقين، وقد قال (تعالىٰ):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾(١).

فلا يجوز تصديق إبليس.

ومن هنا جاء في الشرع أنّ من علمتَ في فيه رائحة الخمر.. لا يجوز أن تحكم عليه بشربها، ولا يُحدّ عليه؛ لإمكان أن يكون تَمَضمض به ومَجّه، أو حُمِل عليه قَهْراً، وذلك أمر ممكن. فلا يجوز إساءة الظنّ بالمسلم. وقد قال ﷺ: «إنّ الله (تعالىٰ) حَرّم من المسلم دمه وماله وأنّ يُظَنّ به ظنّ السّوء». فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرّر عليها أنّ حاله عندك مستور كما كان؛ فإنّ ما رأيته فيه يحتمل الخير والشرّ...

وقد يكون الرجل ظاهر العدالة ـ ولا مُحاسَدة بينه وبين المذكور

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

(بالسُّوء) ـ ولكنْ يكون من عادته التعرّض للناس وذكر مساويهم. فهذا قد يُظنّ أنه عَدْل، و(لكنّه) ليس بعدل؛ فإنّ المغتاب فاسق. وإذا كان ذلك من عادته رُدّت شهادته. إلا أنّ الناس ـ لكثرة الاعتياد ـ تساهلوا في أمر الغيبة، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخَلْق.

ومهما خَطَر لك خاطر سوء علىٰ مسلم.. فينبغي أن تزيد في مراعاته، وتدعو له بالخير؛ فإنّ ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك.. فلا يلقي إليك الخاطر السوء؛ خيفةً من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

ومهما عرفت هفوة مسلم بحجّة.. فانصحه في السرّ، ولا يخدعنّك الشيطان فيدعوك إلىٰ اغتيابه. وإذا وعظتَه فلا تعظه وأنت مسرور باطّلاعك علىٰ نقصه؛ لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستصغار وترتفع عليه بدالّة الوعظ...

ومن ثمرات سوء الظنّ: التجسّس؛ فإنّ القلب لا يقنع بالظنّ، ويطلب التحقيق، فيشتغل بالتجسّس ـ وهو أيضاً منهيّ عنه. قال الله (تعالىٰ): ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1]؛ فالغيبة وسوء الظنّ والتجسّس منهيّ عنها في آية واحدة. ومعنىٰ التجسّس أنّه لا تترك عباد الله تحت ستر الله.. فتتوصّل إلىٰ الإطّلاع وهتك الستر، حتىٰ ينكشف لك ما لو كان مستوراً عنك لكان أسلم لقلبك ودينك»[2].

وعند هذه النقطة خلصنا ـ أنا والأستاذ ـ إلىٰ هذه النتيجة، وهي أنّ سوء الظن والريبة بالناس أو بالزمان من العوامل التي تسوق المرء إلىٰ الانزواء والانطواء، بل ممّا يوهنه ويسلبه الإرادة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٥: ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

ما عندَ الله باق

في أعقاب الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة التقيت بشابّ كان قد فقد، في جبهات القتال، إحدىٰ يديه وإحدىٰ رجليه. قال لي هذا الشابّ ـ وهو أحد تلاميذ وليّ من أولياء الله في تزكية النفس: لقد قدّمت إحدىٰ يديّ وإحدىٰ رجليّ في سبيل الله. وإنّي لأعتقد أن يدي ورجلي الباقيتان لي هما اللتان افتقدهما في الحقيقة. واليد والرجل اللتان تبقيان لي هما اللتان ذهبتا في الحرب بانفجار «لُغم».

قلت: صحيح ما تقول.. ذلك أنّ الله (تعالىٰ) يقول:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد رأيت كثيراً من المعوّقين وممّن فقدوا بعض أطرافهم ذوي شخصيّات جدّ متماسكة لم يعيروا أدنىٰ أهميّة لهذا الفقد، بل لعلّهم فَرِحون جَذِلون أنْ بقي لهم عند الله في قيامتهم شيء.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

إنّهم يؤمنون أنّ الدنيا سريعة الزوال، وأنّ الإنسان لا بدّ له فيها من الرحيل. ويؤمنون أنّ أعضاء أجسادهم ـ وهي ممّا يقترن بهذه الدنيا ويرتبط بها ـ لا بدّ أن يفقدوها يوماً وتمسي تحت التراب. ومتىٰ ما قدّم امرؤ يداً أو رجلاً في سبيل الله يكن في وسعه أن ينال من الله في الآخرة خيراً منها أضعاف المرّات. وإذا ما أعطىٰ الله (تعالىٰ) امرءاً عضواً من الأعضاء ناقصاً عن المألوف.. فإنّه يوم القيامة يعوّضه. وعلىٰ هذا فما ثمّة إنسان عاقل يضحّي بشيء باق إلىٰ الأبد بأشياء فانية مضمحلّة. إنّهم يتماسكون ثابتين إزاء شدائد الدنيا، وينتظرون انتهاء الحياة الدنيا العاجلة الزوال.

طوبىٰ لأولئك الذين يرون الدنيا هذه الرؤية؛ فإنّهم سرعان ما يتجاوزون آلام الدنيا وقد ادّخروا لهم عند الله (تعالىٰ) شيئاً. إنّهم يستمتعون في الدنيا آنِسين، ولا يؤذيهم ما يَلْقون فيها من نقص مؤقّت.

وإذا ما قرأنا التاريخ فإننا نجد الناس طائفتين: طائفة الظالمين، وطائفة المظلومين المستضعفين. أمّا اليوم.. فما بقي منهم أحد، كلّهم قد غادروا الدنيا. أمّا الظالم فلم يَبْقَ له إلا سوء الذكر في الدنيا، وإلا عذاب الضمير وأليم عذابات الآخرة. بَيْد أنّ المظلوم قد بقي له عند الله عظيم الأجر ووافر الثواب.

إنّ أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام قد صبروا واستقاموا وقدّموا دماءهم وأرواحهم وأموالهم في سبيل الله ففازوا بمقام عبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام ـ في الزيارة التي علّمها «صفوان» ـ بقوله: «فداكم أبي وأمّي». أو عبّر عنه الأئمّة الأطهار عليهم السلام في خطابهم لهؤلاء الشهداء، في نصوص عديدةٍ من الزيارات، بمثل قولهم: «فُزتُم واللهِ فوزاً عظيماً، فياليتَني كنت معكم».

وإذ صَبَر النبيّ أيّوب علىٰ فقده ماله وأولاده وعافيته.. وصفه الله (عزّ

وجلّ) في القرآن بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[1]. وقال لنبيّه الأكرم ﷺ في غاية المؤانسة: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾[2].

أترىٰ مثوبة خيراً من أن يُذكر اسم انسان بالصلاح في كتاب إلهيّ خالد.. علىٰ أنّه «نِعْمَ العبد» لله، ويغدو هذا الإنسان ـ في مقام العبوديّة ـ مطمحاً لأنظار أفضل عباد الله؟

وانطلاقاً من هذا.. فإنّ الأعمال الصالحة والثبات علىٰ نهج الصدق والوفاء ـ بل كلّ عمل يؤدّىٰ بجدّ وثبات ـ إنّما يظلّ باقياً في الباقيات.

عسىٰ الله (تبارك وتعالىٰ) أن يمنّ علينا بهذا الفهم وهذا الإدراك.

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤١.

الثبات.. أو سر النجاح

«لا يَسْتقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتّىٰ يستقيمَ قَلْبُه» رسول الله ﷺ

عرفتُ في حياتي عشرات من الأصدقاء، ثمّ إنّي كنت أفتقدهم لأدنىٰ غفلة تصدر منّي. ولئن كان عليّ ألا أفرّط في أداء واجباتي إزاء الأصدقاء.. لقد كانوا هم يتّصفون بضعف ظاهر في الرسوخ والثبات. وإذا كان دَيْدَن الأصدقاء أن يَتَتارَكوا حين يَبْدُر من أحدهم أمر لا يَرُوق فلن تبقىٰ صداقة بين اثنين من الناس.

إنّ علىٰ الأصدقاء أن يتآزروا فيما بينهم علىٰ الوفاء، وأن يَغضّوا الطَّرْف عمّا يصدر من أحدهم من خطأ واشتباه، وأن يكونوا ذوي أقدام ثابتة في مقام الصّداقة.. ذلك أنّ المتانة والثبات من الفضائل التي ينبغي أن يتلبّس بها المرء تلبّساً تامّاً، ليتسنّىٰ له ـ مِن ثَمّ ـ بلوغ السعادة والمحبّة والتوفيق. ولا بأس هنا باستذكار قول (غُوتَهْ) في هذا السياق:

أهمّ شيء في الحياة أن يكون للإنسان هدف كبير، وأن يكون له من القدرة والمضاء ما يبلغ به هذا الهدف.

وإنّك لَتَعْلم ـ أيّها القارىء العزيز ـ أنّ الذين يميلون إلىٰ الانطواء والانفراد لا يَسيغون أن تُفْرَض عليهم القضايا فَرْضاً. وقد ذكرت كتب

البحوث النفسيّة عدّة مظاهر وعلامات في هذا الصدّد، منها التي أوردناها آنفاً، ومنها كذلك غياب حالة الثبات.

كتب (خواجه نوري) في كتاب البحوث النفسيّة:

يَضْعُف لدىٰ الانطوائيّ من الناس الميل إلى إتمام العمل وإلىٰ الدأب والكدح. وغالباً ما لا يصل في عمله إلىٰ غايته. وتراه يتجنّب الأعمال التي تقتضي سعياً حثيثاً جاداً. أي أنه إذا التزم بأداء شغل كان قد أخّره كثيراً.. فإنّ اندفاعه يصاب بالوهن لدىٰ أول عقبة تعترض الطريق؛ لأنّها تستلزم المزيد من الجهد والجدّ. وستزول حتىٰ الرابطة الضعيفة التي كانت تربطه بهذا العمل.

إنّ أمثال هؤلاء الأفراد من الممكن أن يفوزوا بالمئات من الأفكار الحَسَنة المفيدة، فهم يتخيلون مثلاً:

إنّ المعاملة الفلانية ستكون نافعة لو تمّ الإقدام علىٰ إنجازها.

لو التقوا بالشخص الفلاني ذي الوجهة والنفوذ لتقدّموا في أعمالهم ونالوا خيراً فيما يريدون.

كتابة مقالة في موضوع معيّن، أو تأليف كتاب.. عمل له قيمته.

ولكنّ المؤسف أنّ كلّ هذه الرغبات لا تتحقّق في الخارج، ولا تتحرّر من شبكة عالم الخيال.. بسبب الوهن في قوة الإرادة.

وعلىٰ أيّ حال.. فإنّ قضيّة الصلابة والثبات من القضايا المهمّة التي كُتِبَت حولها دراسات واسعة. وللتخلص من هذه الحالة أستطيع أن أقول

بعبارة موجزة: إنّ الإنسان متىٰ ما أفلح في إيجاد رغبة قلبيّة ازاء العمل الذي يريد القيام به، واستطاع أن يديم هذه الرغبة.. فإنّ بامكانه عندئذ أن يكون ذا ثبات وصلابة في أداء الأعمال. إنّ الصلابة والهمّة العالية ممّا يبلغ بالمرء درجات من العزّة رفيعة.

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «الشّرَف بالهِمَم العالية، لا بالرِّمَم البالية»[1].

ويقول الشاعر في هذا المعنىٰ:

لا تفخَرَنّ بالجُدود الخالِيه[2] «لا شَرَفَ بالرِّمَمِ البالِيَة»

كُن كعليٍّ في علوّ الهمّة فـ«الشَّرَفُ بالهِمَمِ العالِيه»

ومن يفتقدون الصلابة والمتانة فلا شك أنّهم ممّن لا يطمئن إليهم أحد ولا يثق بهم.

ولطالما كان من الشباب من عزم علىٰ الإتيان بعمل ما، ثمّ أغفله وتخلّىٰ عنه، ولم يستجرّ لهم هذا غير التخلّف والشقاء.

لو أنّ تلميذاً في صنعة من الصّنائع، يفتقر إلىٰ القدرة علىٰ الثبات والمثابرة.. لكان متوقّعاً من الأستاذ ألا يبوح لهذا التلميذ بكلّ خبراته في صنعته ولا يُفْضى إليه بأسرارها وخفاياها؛ لأنّ التلميذ ـ والحالة هذه ـ سيتراخىٰ في طريقة تلقّيها ولا يعرف قدرها.. فلا يصونها عن غير أهلها، وتضيع عندئذ خبراته الطويلة بَدَداً.

وإذا ما خلوتَ من خصلة الصلابة والثبات والمتانة، فإنّ أحداً لا يعاملك

(١) غُرَر الحكم ودُرَر الكَلِم ٨٧/ الحديث ٢٠١٤.

(٢) الجدود: الأجداد، الخالية: الماضية. وفي هذا المعنىٰ يقول الشاعر:

إنّ الفتىٰ من يقول: هٰذا أنا ليس الفتىٰ من يقول: كان أبي!

باطمئنان، ولا يثق بشخصيّتك. ولا تنتظر عندئذ أن يبوح لك بأسراره الشخصيّة والعائليّة. ذلك أنّك ربّما اتّصفت اليوم بالوفاء والأمانة، لكن سرعان ما تتحول إلىٰ صفات مناقضة في الغد.

تكون اليوم وَرِعاً تقيّاً، فإذا جاء الغد.. عَرِيتَ عن هذه الخصال، وذَهَبتْ عنك أدراجَ الرّياح.

إنّ المتانة والوفاء في الصّداقة أعظم وسيلة لاكتساب الأصدقاء والاستزادة من المحبّين.

إنّك لو علمتَ أنّ إنساناً ما يَفِي لك في صداقته ما وَسِعَه الوفاء، ويقف معك في النوائب ما أمكنه الوقوف.. فإنّك ستسعىٰ باذلاً غاية جهدك للتعرّف عليه ولتمتين أواصر الصداقة معه. وما أحسب أنك تسعىٰ هذا السّعي كلّه إليه.. إلاّ لأنه امرؤ وفيّ ثابت في مقام الوفاء.

جاء يوماً رجل من العلماء علىٰ رأس جمع من الأشخاص، فقال لي: في نيّتنا أن نشرع بالعمل الخيريّ الفلاني.. فماذا تقترح لتنمية هذا العمل وتقويته؟

قلت: ينبغي لجمعكم هذا ـ باديء ذي بَدء ـ أن يكون متيناً متماسكاً لا يتخاذل إزاء المصاعب والعوائق التي تتولد خلال مشقّات العمل وتكاليفه، فلا ريب أنّ الجماعة المتينة المتماسكة في وسعها تحقيق أيّ عمل يناسب ما أُوتيتْ من قدرة.

وحين تُنعِمون النظر بدقّة في سِيرة كبار العلماء والقادة والمخترعين وأولياء الله.. تجدون أنّ سرّ رقيّهم هو هذا الثبات ورسوخ القدم.

ولسوف تجدون ـ في الوجهة المقابلة ـ أنّ كلّ تخلّف وشقاء وكلّ هزيمة وبؤس.. فإنّما مَرَدّه إلىٰ الخوف والقلق والوهن.

ومن أجل هذا كلّه عُنِي الدّين الإسلاميّ الحنيف ـ عناية خاصّة ـ بدعوة المسلمين إلىٰ ثبات القدم والصّلابة والوفاء، وبتوجيههم تلقاء هذه الخصال القيّمة. . عن طريق تأميلهم بالمثوبة الأخرويّة والأجر العظيم، وأحياناً عن طريق الإيمان إلىٰ الشخصيّات التوحيديّة الراسخة المليئة بالعزم والثبات.

وفي القرآن الكريم دعا الله (سبحانه وتعالىٰ) أوّل ما دعا رسوله الأمين ـ وهو الأسوة والقدوة لكافّة المسلمين ـ إلىٰ الصّبر إزاء المصاعب والمِحَن وإلىٰ الاستقامة الراسخة كما أمَرَه الله. ثمّ دعا المسلمين كذلك إلىٰ الصّبر والتحمّل والصّلابة في الموقف. . قال (عزّ وجل):

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1].

ولقد كان عَمَل النبيّ ﷺ في حمل المسلمين علىٰ هذه الاستقامة والصلابة. . علىٰ قدر عظيم من المشقّة والعناء، عبّر عنه ابن عبّاس بقوله: ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ آية كانت أشدّ عليه ولا أشقّ من هذه الآية. ولذلك قال لأصحابه ـ حين قالوا له: أسْرَع إليك الشيب يا رسول الله ـ: «شَيَّبَتْني هُود والواقعة»[2].

وهنا ربّما يتسرّع بعض الجهلة الذين لا يعرفون شيئاً عن المقام العظيم لرسول الله ﷺ، فيقولون: إنّما ورد هذا التعبير لأنّ النبيّ كان يشقّ عليه هذا الأمر الإلهيّ الذي ورد في الآية القرآنية؛ لِما في الثبات والاستقامة إزاء هذا الأمر من مشاقّ وعنتٍ وصعوبات!

وينبغي أن يقال لهؤلاء إنّ الله (عزّ وجلّ) قد أمر رسوله أيضاً في سورة الشورىٰ بقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٢) مجمع البيان ٥: ٣٠٤.
(٣) سورة الشورىٰ، الآية: ١٥.

فلماذا لم تصدر من النبيّ ﷺ هنا شكوىٰ في مقابل هذا الأمر الإلهيّ؟!

لقد كان في عامّة المسلمين من الضعف والوهن ـ رغم كلّ هذه التأكيدات ـ بحيث كانوا في بعض المعارك يُوَلّون الأدبار فارّين، ويُخْلُون ما حول النبيّ في ساعة العُسْرة.

ثمّ إنّ القرآن قد أمر المسلمين بقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾(1).

ويقول يحثّهم علىٰ هذه الاستقامة المهمّة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(2).

ويقول: أيضاً:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾(3).

وإنّ هذا لَيَعْني أنّ المسلم الذي ينهض بهذا الأمر الإلهيّ لا بدّ أن يغدو ذا شخصيّة متينة راسخة، حتىٰ لو كان في ظاهر أمره ممّن لا يؤبه به أو ممّن تقحمه العين.

كان «بلال بن رباح» حبشياً أسود من عبيد أميّة بن خلف. لكنّ جمال رسول الله ﷺ قد أسره وهيّمه لمّا شاهده في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ. وما أسرع ما استجاب إلىٰ الإسلام حين دعاه النبيّ. بَيْد أنّ سيّده أميّة إذ علم باسلامه عمد إلىٰ تعذيبه أشدّ العذاب، يعينه علىٰ ذلك أبو جهل

---

(1) سورة فصّلت، الآية: ٦.

(2) سورة فصّلت، الآية: ٣٠.

(3) سورة الجنّ، الآية: ١٦.

العدوّ اللّدود لرسول الله ﷺ. كانا يُلقيانه علىٰ رمال صحراء الحجاز الحارقة ويجعلان علىٰ صدره حجراً كبيراً، حتىٰ تحترق بشرته بهذه الحرارة الملتهبة.

ولم يكن من بلال إزاء ألوان العذاب غير الصبر والاحتساب، وما كان ينطق ـ وهو في ذروة معاناته ـ إلاّ بكلمة التوحيد، وإلاّ بذكر الله (عزّ وجلّ). وما زال كذلك حتىٰ أمر النبيُّ ﷺ بشرائه، فأُطلق من قيد العبودية ومقاساة العذاب.

وكان إيمان بلال من الصدق والكمال بحيث غدا المؤذّنَ الخاص لرسول الله ﷺ الذي لا يسدّ أحد مَسَدّه. وقد بقي بلال بعد النبيّ وفيّاً لعليّ وفاطمة عليها السلام كما أوصاه النبيّ ﷺ. وما زال محبّاً لأهل البيت عليهم السلام مؤثراً لهم.. حتّىٰ عُدّ من كبار أبطال الإسلام الشجعان.

وحدث مرّة أن تحدّثت مثل هذا الحديث في جمع من الناس، فسأل بعدئذ شابّ عن الأسلوب الذي يمكّن المرء لو اتّبعه أن يفوز بهذا النمط من التربية فتقوىٰ لديه مَلَكة الثبات علىٰ الموقف الحقّ.

وكان الجواب أنّ ثمّة حالات في الإنسانية تجعله قلقاً غير مستقرّ، وتنأىٰ به عن الثبات والتمكّن والصّمود. ولا يطمعنّ امرؤ أن ينال ما يبتغي في هذه المعاني ما دام متلبّساً بحالاته تلك:

الأولىٰ: الخوف

والخوف يقف علىٰ رأس المعوّقات التي تحول بين الإنسان وإنجاز أيّ عمل.

يقول الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: «لا يكونُ المؤمن جباناً»[1]. أي أنّه لا يخشىٰ شيئاً ولا يَفرِق من شيء. وما دام الإنسان يخشىٰ

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ٣٠١

أحداً غير الله فإنّه لن يبلغ السّعادة والهناءة في الحياة[1].

إنّ أشياء ثلاثة هي المسؤولة عن إيجاد حالة الخوف هذه في الإنسان. وهذه الأشياء:

١ ـ شدّة اعتقاد الإنسان بقيمته الشخصيّة واحساسه بعظمة نفسه:

ومثل هذا الاحساس يجعل المرء يحاذر أن يعقد صداقة عميقة مع أحد، خشية أن تستجرّ هذه الصّداقة إلىٰ مزاح لا يراه مناسباً لشخصيّته، ممّا يذهب بمكانته وقيمة شخصيّته بين الناس. وهذا يدعوه إلىٰ أن يكون حذراً في علاقاته فلا يصادق أحداً من الصّميم. أو أنّه يتجنّب الحديث حين يضمّه مجلس لئلاّ تصدر منه عبارة يبدو معها أنّه إنسان غير ذي شأن كما صوّر لنفسه. أو أنّ مثل هذا المرء لا يقدم علىٰ عملٍ ما خشية ألا يكون قادراً علىٰ مواصلته واتمامه علىٰ الوجه الصحيح، مما يشي بضعفه في أعين الناس.. وهكذا.

٢ ـ غياب الاعتماد علىٰ النفس

وقد يحدث في بعض الحالات أن يكون امرؤ ذا همّة عالية وقدرة علىٰ العمل، لكنّه يحسب أنّه غير قادر علىٰ إتيان أيّ عمل، حتىٰ لو كان هذا العمل من السهل الميسور؛ خشية ألا يوفق لإنجازه وأدائه.

ولو حَدَث أن تكلّم مرّة كلاماً صائباً نابعاً من تفكيره السليم، فإنّه يبادر إلىٰ نسبة هذا الكلام إلىٰ سواه، خوفاً من أن تكون للآخرين مؤاخذة علىٰ ما تكلّم به.

وربّما طُرح في مجلس هو حاضره موضوع علميّ نَظَر إليه الآخرون في

---

(١) يقول انطونيوس بشير العالم النفسيّ المصري في كتابه (مرآة السّعادة): لن تكون قادراً علىٰ أداء أيّ عمل ما لم تقلع من قلبك جذور الخوف. ويقول أيضاً: الخوف أشدّ أعداء الحياة. إنّ خوفك ليمنعك من السعي والجدّ في كلّ أوقات حياتك.

المجلس بمنظار غلط، فإنّه يفقد القدرة علىٰ الاعتراض وقول كلمة الحقّ رغم ما في كلام الآخرين من أغلاط واضحة وإشكالات بيّنة.

وإذا حدث مرّة ـ وندر أن يحدث هذا ـ أن تكلّم في موضوع ما. . فإنّه يعمد بعدها إلىٰ لوم نفسه وتأنيبها علىٰ ما تكلّم به، وينخرط في حالة من الكآبة والحزن. ومتىٰ ما أراد أن يقيم علاقة صداقة مع أحد فإنّه يقول في نفسه إنّه لا يقوىٰ علىٰ الوفاء بشروط الصداقة حتىٰ آخر الشّوط. . ممّا يحدو به إلىٰ الامتناع عن مدّ يد الصّداقة لأحد.

٣ ـ قلّة العمل وقلّة التجربة

طالما شاهدنا أُناساً يتهيّبون كثيراً الخطابة في محضر عامّ. ومبعث هذا التهيّب أنّه لم يسبق لهم خوض مثل هذه التجربة.

لو قيل لتاجر شابّ من هذا الطراز: إنّ البضاعة الفلانيّة تدرّ أرباحاً وفيرة، واقتنع هو بصدق ما قيل له. . لَما واتته الشجاعة علىٰ الدخول في مشروع كهذا. ويعلّل موقفه بأنّه لم يدخل من قبلُ هذه الدّخلة، وأنّه يخشىٰ أن يُمنىٰ بخسارة.

ومن يتوجّس من الدخول في الأعمال يصبح في حالة من التردّد، بحيث يَعُدّ إقامة علاقة صداقة مع أحد أمراً فوق الاحتمال. وحتّىٰ إذا تجرّأ علىٰ إقامة هذه العلاقة فإنّها ممّا لا يبقىٰ ولا يدوم.

وقد ذكر علماء الأخلاق وعلماء النفس الإسلاميّون عدّة تعليمات للتغلّب علىٰ حالة الخوف، نشير هنا منها إلىٰ ما له أثر أكيد في العلاج.

أوّلاً: عليك ألا تتحدّث عن الخوف ما أمكنك ذلك، فلا تَقُل أبداً: أخاف من إتيان العمل الفلانيّ. أو: ليس بإمكاني الوصول بالعمل الفلاني إلىٰ نهايته.

بل ينبغي أن تتحدّث باستمرار عن معاني الشجاعة والتعابير التي تثير الثقة والعزم، كأنْ تقول: كلّ شيء ـ بإذن الله ـ هيّن أمامي، ولست أخاف من شيء.

ثانياً: إذا هِبْت أمراً.. فَقَعْ فيه. انطلق إليه وامكث فيه. ومَن يَخْشَ من الظلام مثلاً فعليه أن يوطّن نفسه علىٰ أن يدخل في الأمكنة المظلمة بمفرده.

ثالثاً: إرجع إلى عقلك في هذا الصدد تجده يقول لك: إذا عُرِفتَ بأنك جبان فإنّ هذا سيقلّل كثيراً من شخصيّتك، وأنّ الذين يمضون تلقاء الأعمال الكبيرة بشجاعة ليسوا خيراً منك.

رابعاً: لا تُصْغِ أبداً إلىٰ كلام بعض النساء[1] أو نصائح الجبناء من الناس[2]؛ فإنّ مثل هؤلاء قد يوقعونك في الرهبة والخوف، لِما هُمْ عليه من ضعف وتخاذل، فلا تُعِرْ أهميّة لأقوالهم في مثل أنّ الشيء الفلانيّ نحس، وأنّ الحيوان الفلاني مصدر شؤم[3]!

حاول بما تستطيع ألاّ توحي إلىٰ نفسك أنّك سيّئ الحظ أو منحوس الطالع.

إنّ مثل هذا الكلام ممّا لا أساس له، فلا العقل قد قادك إلىٰ هذا اللون من التفكير، ولا أمرك به الدين.

إنّك قادر ـ باتّباع هذه التعليمات ـ أن تتخلص من هذا المرض الروحي وأن تَسْلم منه.

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ٢١٣.

(٢) بحار الأنوار ٧٣: ٣١٤.

(٣) ورد النهي عن التطيّر والتشاؤم في روايات عديدة.

الثانية: اليأس والقنوط

إنّ أسوأ بواعث الشقاء، وأخطر عوامل التخلف، وأعتىٰ ما ينقض الصّلابة والثبات. . هو اليأس والقنوط.

يقول رسول الله ﷺ: «الأمل رحمة لأمّتي. ولولا الأمل ما رَضَعت والدة ولدها، ولا غَرَس غارس شَجَراً»(١).

لو أنّ أفراد الجنس البشريّ قطعوا أملهم من المستقبل لَما كان ممكناً أن يقوموا في الدنيا بأيّ عمل.

وهذا يعني أنّه لا يتحقق عمل في دنيا البشر إلا وهو نابع من مَعين الأمل. وما من موضوع تُنفَض منه اليد إلاّ ويكون اليأس قد قطعه.

إنّ الأمل في مثوبة الله (عزّ وجل) هو الذي يقف وراء (٩٠٪) من عمل الإنسان المؤمن في ترك القبائح والمحرّمات.

وإنّ السرّ في نشاط التاجر لشراء البضائع الكبيرة الأثمان وبيعها. . إنّما هو رجاء الربح والمنفعة.

والمرء الذي يكدح منذ الصباح حتىٰ المساء. . إنمّا يتحمل معاناة الكدح في العمل ابتغاءَ لأجر مناسب.

والصديق الذي لا يتوقّع من صديقه الوفاء ولا يرجو منه الإخلاص في الصداقة. . سرعان ما يتخلّىٰ علىٰ هذه العلاقة. وهذه المسألة وما يناظرها ممّا لا تحتاج ـ لفرط وضوحها ـ إلىٰ مزيد من القول والبيان.

يقول بلوتارك: من غير المهمّ أن أغدو تعيساً مشرّداً مثل «ارستيد»، أو أن أحترق بنار الفقر والعُدم شأن «سقراط»، أو

---

(١) بحار الأنوار ٧٧: ١٧٣.

أن أموت في الغربة والخيبة كما حدث لـ«أناكساغور». هذا كلّه غير مهم، ولكن الويل لي إذا انطفأت في قلبي نجمة الأمل[1].

وإنّه لمن النافع للتغلّب علىٰ هذا الداء النفسيّ أن يعمد المرء كِراراً إلىٰ الإيحاء إلى نفسه أنّ الناس كلّهم أصدقاء له أوفياء. وأن يوحي إلىٰ نفسه كذلك أن لا وجود للهناءة من دون وجود الآخرين، وأنّه قادر لذلك علىٰ أداء أعماله كافّة، يحالفه في جميعها التوفيق.

الثالثة: قلّة الصّبر

كلّنا قد سمع مثل قول القائل:

أمَا والذي أبكىٰ وأضحك والذي ... أماتَ وأحيىٰ، والذي ماله كُفْوُ
لئن كان بَدْء الصّبر مُرّاً مذاقُهُ ... لقد يُجْتَنىٰ مِن بَعْده الثّمَرُ الحُلْوُ

أو قول الآخر:

إصْبِرْ يسيراً، وكُن باللهِ معتصماً ... ولا تعاجِلْ، فإنّ العجز بالعَجَلِ
الصّبر مثل اسمه في كلِّ نائبةٍ ... لكنْ عواقِبُه أحلىٰ من العَسَلِ

وإنّ هذا لحكيم من القول، فمتىٰ ما أهمل المرء شأن الصَبر والتحمّل فلا بدّ أن يعتريه العجز والخَوَر. يقول الإمام الصّادق عليه‌السلام:

«من لا يعدّ الصبر لنوائب الدّهر.. يعجز»[2].

ومن البيّن المعروف أنّ الدنيا دار بلاء. وإنّها لتعصف ـ علىٰ حدّ قول اللّورد آويبوري ـ كما تعصف الريح وتزخّ كالمطر، فما أحد منها في مأمن.

---

(١) من كتاب (في أحضان السّعادة).

(٢) بحار الأنوار ٧١: ٨٣.

ويقول: إنّ الحياة مشوبة بالمصاعب والمصائب. ولا بدّ لكلّ حيّ من المعاناة وتحمّل ثقل الأعسار. من يذهب في البحر فلا بدّ أن تبتلّ أذيال ثوبه. ومن يدخل في أرض شوكاء فإنه لا يسلم من وخزات الشوك تدمي قَدَمَيه.

ويقول أيضاً: ما من أحد في الدنيا إلا وتلدغ قلبه الرزايا والمعضلات كالنحل والعقارب، ولا تدعه يهدأ ويستريح. ترىٰ.. ما عساه يصنع؟! هكذا هي الدنيا! حيث لا تجدي الشكوىٰ ولا التأوّه شيئاً غير زيادة المشاكل وتضخيم المصاعب[1].

ولقد وردت روايات عدّة عن أئمة الإسلام عليهم السلام.

إنّ البلاء يصيب المؤمن لإصلاح شأنه، وأنّ الله (تعالىٰ) يريد ليثبّته في كلّ أموره[2]. وأن هموم الدهر وشدائده لَتنير القلب وتشحذ الفكر، وأنّ المصائب الكبيرة تصنع الرجال الكبار[3].

إنّ مَن يتّصف بقلة الصّبر سرعان ما ينهار إذا صادفته الشدائد والأزمات، ولن يكون قادراً على الثبات في أداء عملٍ ما إذا واجه صعوبة ولو يسيرة.

ومثل هذا المرء حين تربطك به رابطة صداقة لن تلقىٰ لديه وفاء، من بداية أمره. إنّ قلّة الصبر، ولا شكّ، هي أسوأ ما يمكن أن يصيب الإنسان في طريق التقدم نحو الأهداف العالية.

واللبيب من الناس هو من يهمّه دائماً الخلاص من هذا الداء النفسيّ،

---

(١) في أحضان السّعادة.

(٢) غُرر الحكم ودُرَر الكلم ٨٢٣/ حديث ٣٤٢.

(٣) بحار الأنوار ٧٧: ٢٨٦.

فهو يحتكم إلىٰ عقله في الأمور، ويرابط صابراً في إنجاز أعماله حتىٰ يفوز بالتغلب علىٰ قلّة الصبر، فلا يضيق بعدها ذرعاً فيما يهمّه من أعمال ومشاريع.

الرّابعة: العَجَلة

أثبت العقل، كما أثبتت التجربة، أنّ العجلة في الأمور تُعْقب الندامة والخسران. في حين يمكن لمن يقوم بأعماله من موقع التفكير الصائب والتأملّ، وفي أوانها المناسب.. أن يبلغ بأعماله إلىٰ منتهاها، بحيث يطمئنّ منه البال ويستريح ضميره. ومن يتعجّل في أموره انّما تراه ينفر من دراسة عواقب أعماله دراسة دقيقة لكي ينطلق منها إلى أهدافه بقوّة واتّزان.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الأناة من الله، والعَجَلة من الشيطان»[1].

إنّ التفكّر والتأمّل له من الشأن في الرؤية الإسلاميّة.. بحيث لم يذكر النبيّ وأهل بيته (صلوات الله عليهم) من الثواب العظيم لعمل ما كما ذكروا للتفكّر والتفكير[2].

وإنّهم عليهم السلام ليَنصُّون علىٰ أنّ «الدنيا دار الأسباب»[3]. وهذا يعني أنّه ينبغي أن نتوجّه إلىٰ ما نريد من أعمال في الدنيا إلىٰ أسبابها ومقدّماتها.

إنّ الإنسان المتعجّل الذي لا يردّ الأعمال إلىٰ مقدّماتها الخاصّة لن يفلح في الوصول إلىٰ ما يبتغي من نتائج. ولسوف يفقد الثبات والمتانة إذ يجد نفسه قد انتهىٰ إلىٰ طريق مغلق.

---

(١) بحار الأنوار ٧١: ٣٤٠/ حديث ١٢.

(٢) أُصول الكافي ٢: ٩١/ حديث ٣.

(٣) بحار الأنوار ٢: ٩.

ومثل هؤلاء الناس عادةً ما يميلون إلىٰ أن يغدو الآخرون علىٰ شاكلتهم من الاستعجال في الأعمال والتصرّفات، فتراهم يستاؤون ـ والحالة هذه ـ من الأصدقاء الذين لا يماثلونهم في هذه الصفة ولا يجانسونهم. إنّ مسافة شاسعة تفصل بين المتأني في أموره والعَجُول، ممّا يلغي الألفة بينهما ويلغي فرصة التفاهم والاشتراك في الأعمال. ولن يكون للقائهما في موضوع ما ـ إذا حدث ـ من قدرة على البقاء والثبات.

بَيْد أنّ تجارب هذا النمط من الناس غالباً ما تكشف لهم أنّهم لم يسلكوا في حياتهم النهج المعافىٰ السّليم، إذ طالما أدّتهم العجلة إلىٰ الخيبة والإخفاق، ممّا يضطرّهم إلىٰ السّعي لمعالجة حالتهم شيئاً بعد شيء.

الخامسة: سوء الظنّ

من أخطر العوامل التي تقود الإنسان إلىٰ الانطواء علىٰ النفس وغياب المتانة والثبات في العلاقات الاجتماعيّة. . سوء الظنّ بالناس، فهو يحسب أنّ الناس كافّة يكنّون له العداوة والبغضاء، ويتحيّنون الفرص للإيقاع به، ويَحُولون بينه وبين المضيّ فيما يريد من أعمال.

ومثل هذا المرء لا ينجح في صداقة أحد. وإذا حدث أن قامت صداقة بينه وبين آخر فما أسرع ما تتقطّع أواصر هذه الصداقة إذا ما خالفه صديقه في قول أو عمل فينسب تصرّف صديقه هذا إلىٰ اللجاجة والعناد، مما يبتر هذه الرابطة ويجعل مصيرها إلىٰ الزوال.

إنّه يفقد ـ والحالة هذه ـ صفة الثبات والوفاء، ولن يكون في مقدوره أن ينشىء صداقة لها حظّ من البقاء. وربّما آل أمره إلىٰ تصوّر أنّ الزمان يعانده ويجري ضدّ إرادته، وأنّ الفلك لا يدور إلاّ ليعمل علىٰ تعاسته وشقائه. ولعلّك لقيت في حياتك من الناس من يقول في تضجّر واستياء:

واضَنايا! ويالَسوء الحظّ!

الزمان لا يُعين ولا يساعد!

الضعيف مسحوق دائماً!

المنحوس منحوس!

قانون الطبيعة يدوس الضعيف بالأقدام!

وقد غاب عن هؤلاء: إنّ قانون الطبيعة لو كان يدوس الضعيف ويسحقه لَما تسنّىٰ لطفل غضّ ضعيف أن ينشأ في أحضان أمّه ويدرج. لو كان قانون الطبيعة يمحق الضعيف وينتقم منه لَما تأتى لحبّة قمح صغيرة أن تحييٰ في قلب التراب وتمدّ جذورها وساقها صاعدةً إلىٰ طلاقة الحياة.

إنّ للضعيف والرقيق في قانون الطبيعة وجهاز الخليقة لأنصاراً وأعواناً كثيرين.

ولم يشتمل علىٰ المرء مثل هذا التفكير الباطل إلاّ بسبب ما في داخله من سوء ظنّ وضعف نفس واهتزاز الثبات، ومن أوهام مريضة مخرِّبة.

وأعرف، في هذا الصدد، شابّاً سيئ الظنّ كثيراً بأقرب أصدقائه وألصق معارفه، إلىٰ حدّ ألاّ يطيق أن يجمعه وايّاهم مجلس لساعة واحدة.

إنّ الوهم ليذهب به إلىٰ الاعتقاد أنّه لن ينجو من المخاطر إذا ما جالسهم؛ لأنّهم يريدون أن يضرّوه بأعمال من السّحر يصنعونها لإيذائه. لكنّ هذا الشابّ ـ بفضل الإيمان الذي نبت في قلبه، ومن خلال تجارب جمّة مرّ بها ـ استطاع الافلات من هذه الصفة الذميمة. وغدا يرىٰ أنّ الناس كلّهم خَلْق الله، قد منحهم (سبحانه وتعالىٰ) نعماً وفيرة كثيرة مجّاناً وبدون ثمن. وغدا يرىٰ ـ استكمالاً لهذا ـ أنّه متىٰ ما عمل بالتعليمات الإلهيّة الرّحيمة ـ سيلفت إليه أنظار الناس، ويكون كلّ ما حوله مصدر خير له وهناء.

يقول الله (تبارك وتعالىٰ) في كتابه المجيد:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

السّادسة: الكَسَل

ما أن تسمع بكلمة «الكسل» حتىٰ ترتسم في ذهنك صورة امرىء قد اقتعد في زاوية جالساً القرفصاء، لا يجد في نفسه استجابة للقيام بأيّ عمل يدعىٰ إليه. ولا بدّ أنّ مثل هذا المرء ـ بالقياس إليك ـ يكون مبعث نفرة واشمئزاز.

وكذا الأمر في الواقع الخارجي، إذ تجد الكسول يُؤثِر الإخلاد إلىٰ الراحة الظاهريّة ولا يُعنّي نفسه في الدخول بأعمال تتطلب مشقّة وبذل جهد. ومن غير المتوقّع من إنسان كهذا أن يكون له في صداقته نصيب من المواصلة والوفاء، ولا همّ له غير السّكون المنفرد والانزواء.

حتّىٰ في حياته الخاصة.. غالباً ما تراه «متفرّجاً» لا فاعلاً، إذ لا يرىٰ نفسه ذا نفع ولا يتحمّل مسؤولية. ولن يعترض حتىٰ علىٰ من يُوقع به أفدح الأضرار.

إنّه لَيَهُون عليه أن يرتكب أبناؤه أو زوجته الجنايات، ولن يحرّك ساكناً إزاء ما يشاهد أو ما يطّلع عليه. يقول أحد الكتّاب الأوربيّين: إنّ الرجل العاجز مَثَله مثل الساعة التي انتزع منها عقرباها سواءٌ وجوده وعدمه.

ومعنىٰ هذا ـ قارئي العزيز ـ أنّ الكسل مرض فتّاك لا يضارعه مرض آخر في قدرته علىٰ تحطيم الإنسان وتدميره، وعلىٰ المرء أن يسعىٰ جاهداً للسلامة منه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

يقول «س. أ. ماردن» في كتابه (أسرار السَّعْد): من نشأ في طفولته كسولاً لا بدّ أن يعيش كسولاً في مرحلة صباه؛ ذلك أنّ صفة الكسل تنمو مع الإنسان وتكبر، فإذا ما كانت في البداية شبيهة بنسيج العنكبوت فإنّها تمسي في آخر الأمر أشبه بسلسلة حديديّة. إنّ الكسول ليتحرّك ببطء، لكنّ الفقر سرعان ما يقارنه. إنّ المعنىٰ الدقيق للكسل هو الافتقار.

ولقد أكد الإسلام علىٰ ضرورة العمل والكسل وأخذ أمور المعيشة مأخذ الجدّ، من خلال نصوص كثيرة، يؤلّف الحديث عنها كتاباً قائماً بنفسه.

وما نروم قوله هنا إنّ الكسل لون من ألوان الانتحار؛ ذلك أنّ العاجز الكسول إنسان ميّت إلىٰ حدّ الكفاية، رغم أنّه ما يزال يحيىٰ حياته الحيوانيّة.

وقد رغب أحدهم يوماً أن أتحدّث في جلسة عن علاج هذا الداء الذي ربّما لا يسلم منه أحد ولو بدرجات متفاوتة.

فقلت له: إنّ الكُسالىٰ غالباً ما يكونون أناساً غير جادّين في شيء، ضَجِرين، ومصدر عناء. وإذ تضطرّهم ظروف المعيشة إلىٰ الكدّ والعمل تستفحل مكابدتهم ويتضاعف لديهم الضجر والعناء.

منذ سنوات أجرىٰ أحد الأطبّاء تجربة شرح تفصيلها ونتائجها في إحدىٰ المجلاّت. وقد استبان له أن الملل والضجر في العمل يؤدّي إلىٰ التعب والشعور بالنّصب والإرهاق.

وقد قامت تجربة هذا الطبيب علىٰ توزيع طائفة من تلاميذه علىٰ أعمال متنوّعة، مع علمه أنّ كلّ عمل منها يخالف ميل التلميذ ورغباته. فماذا كانت النتيجة؟

منذ بداية الأمر شعر التلاميذ بالتعب والوهن عن العمل، وطفقوا يشكون من ألم في الرأس وتعب في العين. ومن الوجهة النفسيّة غدا كلّ منهم عصبيّ

المزاج، وبدأ يختلّ ـ لدىٰ بعض منهم ـ عمل جهاز الهضم.

أترىٰ أنّ ما كانوا يشعرون به إنما كان علىٰ سبيل التصوّر والأوهام؟

إنّ الاختبارات ـ من خلال الأجهزة الفاحصة لعمل جهاز الهضم والدورة الدمويّة والتنفّس ـ أثبتت أنّ دخول الإنسان في عمل يؤدّي إلىٰ الملالة والكسل. . له أثر واضح في خفض ضغط الدّم واحتراق الأوكسجين. وما إن يشعر المرء باقبال علىٰ عمله ورغبة فيه حتّىٰ يعود البدن إلىٰ حالته العاديّة وينتظم عمل أجهزته.

وكان أن استخلص الطبيب المذكور (الدكتور تراندگ) النتيجة التالية: إنّ الملالة والضّجر من عملٍ ما هو مبعث قلة النشاط الإنسانيّ.

وهذا يعني أنّه لا يصحّ إطلاقاً إرغام إنسان كسول علىٰ القيام بعمل لا يحبّه. بل ينبغي ـ لإزالة هذا المرض النفسيّ ـ التحقّق من نوع العمل الذي يحبّه ويهواه، ثم يُصار إلىٰ اقتراحه عليه ليقوم به. ولا تَخَلْ أنّ هذا العمل ممّا لا قيمة له ولا اعتبار. المهم أن يندفع إلىٰ العمل ـ مهما صغر ـ حتىٰ يتعوّد عليه، ويألف متابعة الشغل. وفي هذا الأسلوب معالجة تلقائيّة للمرض.

وإذا كان ثمّة شخص يفتقد أيّ ميل إلىٰ العمل، فمن اللازم حينئذٍ البحث له عن شغل قليل الكلفة كثير الفائدة، علىٰ أن تُسرد له فوائده وثماره. . كي يقوم به بدافع ذاتيّ ومَيْل نفسيّ. وفي هذا ما يعينه على الخلاص من حالته يوماً بعد يوم.

وإنكم لتستطيعون ـ أيّها الأصدقاء ـ الالتزام بهذه التعليمات لتعوّدوا أنفسكم علىٰ المتانة والثبات، ليغدو في وسعكم أن تفوزوا دائماً بعلاقات صداقة تتّسم بالوفاء.

قال سقراط الحكيم: إذا أردت اختيار أحد صديقاً لك ورفيقاً. . فعليك ملاحظة هذه القضايا:

الأولىٰ: عليك أن تتفحّص عن حالته في أيام طفولته، وعن كيفيّة تعامله مع أمّه وأبيه وأخواته وإخوته وكافّة أسرته. فإذا ما استبان لك حُسْن تعامله معهم واخلاصه لهم، وأنه لم يكن متكاسلاً متراخياً.. فذلك يرجىٰ للصّداقة.

ونفهم من هذا أنّ من كان يعامل محبّيه الأوفياء باخلاص في المودّة والوفاء.. إنّما هو رجل لائق بعلاقة صداقة تبنىٰ علىٰ الصدق والإخلاص.

ويقول هذا الحكيم كذلك:

الثانية: لا يفوتنك أن تلاحظ طريقة تعامله مع الذين كانت تربطهم به قبلك رابطة رفقة وصداقة، وإنّ هذا المرء جدير أن تتّخذه صديقاً لك إذا وجدت أنّه كان يراعي شرائط الصّداقة ولا يقصّر في حقوق الأصدقاء.

الثالثة: من المهمّ لك أن تلاحظ القضايا التي يرغب فيها ويميل إليها، فإذا ما وجدت الغالب عليه الميل إلىٰ الكسل وطلب الرّاحة والإنانية مع اهتمام بمسائل الشهوة والمجون.. فاعلم أنّ هذه صفات الكسالىٰ الذين يفرّطون في أداء حقوق الصّداقة والمودّة، ولن تجد عندهم صدقاً في العلاقة ولا وفاء.

يقول العلاّمة الأخلاقيّ المعروف الشيخ النّراقيّ مؤلف كتاب (معراج السّعادة) و(جامع السّعادات):

«إعْلَم أنّ من تمام الحبّ للإخوان في الله: الوفاء. وهو الثبات علىٰ الحبّ ولوازمه، وإدامته إلىٰ الموت، وبعده مع أولاده وأصدقائه»[1].

---

(١) جامع السّعادات ٣: ١٨٨.

كان (جوجيتسو) أستاذ علم النفس. يقول لتلاميذه: عليكم أن تنحنوا كشجرة الصفصاف، وأن تقاوِموا كشجرة البلوّط.

ويقول المستر (كارنگي): أتعلم لماذا صار لإطار السيارة هذه القدرة علىٰ تحمّل كلّ هذا الضغط، وعلىٰ الصعود والهبوط أثناء المسير؟

في البداية كان هدف صُنّاع الإطارات إعداد نوع من المطّاط الذي يقاوم مطبّات الطرقات. بيد أنّهم سرعان ما اكتشفوا خطأهم؛ إذ أن هذا المطاط قد بدأ يتهرأ بعد مدة قصيرة ويتناثر إلى قطع صغيرة. وقد قادهم هذا إلىٰ صناعة الإطارات التي تُنفَخ بالهواء. ومن خصائص هذه الإطارات الهوائيّة أنها قادرة علىٰ تحمل الضغط، وقادرة علىٰ امتصاص أثر مطبّات الطريق.

إنّ هذه المسألة تشبه حالتنا أنا وأنت؛ فإذا ما أردنا أن نحيىٰ حياة هانئة لا تعكّرها الهزات والمطبّات فعلينا أن نتعلّم كيف نمتصّ ضغوط الحياة ومطبّات الطرقات المليئة بالحفر والعقبات. وهذا يعني أن نتصف بالثبات في مقابل الشدائد وألا نفتقد ما يحيط بنا من صداقات.

مقارنة بين تعاليم الإسلام وأقوال العلماء

من يتتَبّع مؤلفات الفلاسفة والعلماء منذ سقراط وأرسطو (في حدود ٤٠٠ سنة قبل الميلاد)وإلىٰ الآن.. يلاحظ أنّه كان يعنيهم أمر تقدم الإنسان ورقيّه في الجوانب الماديّة من الحياة الدنيا.

ونحن لا نقول إنّ ما أنجزوه في هذا السّياق عمل خاطىء، لكنّ ما لا

ريب فيه أنّ من يضع قانوناً يعالج المسائل المادّية والمعنويّة للإنسان يكن قانونه أشمل وأكمل وأعلق بالحياة الإنسانيّة في جانبيها المتلازمين.

إنّ من يتحدّث مثلاً إلىٰ مستمعيه عن قيمة الثبات والوفاء ضمن إطار القضايا المادّية الدنيويّة المحدودة الصائرة إلىٰ الزوال والاضمحلال.. لهو أدنىٰ بكثير ممّن يتحدّث في أفق سماويّ رفيع، فيعلّم الناس الأنظمة الأخلاقيّة المُسْعدة، ويهديهم إلىٰ الإيمان ويبصّرهم بأهميّته للحياة الإنسانيّة السّويّة المعافاة. إنّه يعرّفهم علىٰ العالَم الحقيقي الآخر الكائن فوق هذا العالم الأرضيّ، فيوسّع بهذا دائرة تفكيرهم، ويَمُدّ في آفاق نشاطاتهم وفعاليّاتهم.

ومن خلال هذه المقارنة الأوّليّة يستبين الفارق بين تعليمات الدين الإسلاميّ الحنيف وبين آراء العلماء غير المسلمين، في القيمة الواقعية وفي الدّقّة والعمق.

أرجو أن تعاود قراءة عبارة العلاّمة النّراقي الآنفة الذّكر.

تلاحظ أنّه ـ وقد تربّىٰ منذ نعومة أظفاره في إطار الحياة الدينيّة ـ قد أورد في حديثه اسم «الله»، وبهذا فهو يدلّ المسلمين علىٰ أنّهم حين يريدون أن يلتزموا بالوفاء والاخلاص في المودّة والصّداقة فعليهم أن يجعلوها لله وفي سبيل الله.

وكان من عناية الإسلام باستمرار الثبات في الصداقة والمودّة أنّه دعا المسلمين إلىٰ هذا الاستمرار وحثّهم عليه.

يقول النبيّ الأكرمﷺ: «إنّ الله يحبّ المداومة على الإخاء القديم، فداوموا عليه»[1]. وقد عدّ الإسلام من يهملون هذه المسألة الحيويّة في مصافّ الجهلة الساذجين. يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام:

---

(١) ميزان الحكمة ١: ٥٤/ حديث ٢٣٩.

«مَودّة الأحمق تزول كما يزول التراب».

هذا، وربّما عُدّت الصداقة والمودّة لوناً من القرابة والرَّحم، ومن يقطعها - حينئذٍ - فهو كمن تباعد عن أهله وقرابته. يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «مَوَدّة يوم ميلة. ومودّة شهر قرابة. ومودّة سنة رَحِم ماسّة؛ من قَطَعها قَطَعه الله».

(نقلاً من كتابي: الاتّحاد والصّداقة)

قيمة التفكير

ما ثمّة امرؤ سليم العقل يتنكّر لأهمية التفكير أو إعمال الفكر في المسائل الحياتية والعلمية المهمّة على اختلاف ميادينها.

إنّ التفكير من أكبر مفاتيح الظفر للإنسان في كلّ ما يهمّه، وهو من وصايا القرآن الوثيقة، إذ قال (تعالى):

* ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[1]؟!

* ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

* ﴿.. فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

* ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

* ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5]

وأنت ترى أنّ الله (تعالى) قد جعل التفكّر هو المائز بين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩ ـ و٢٦٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٤) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢١.

الأعمىٰ والبصير. وأنّه قد بَيّن آياته من أجل التفكّر، وقصّ القصص للمتفكرين، وضرب الأمثال في كتابه إثارةً للتفكّر في الناس.

ومن خطر التفكر وعِظَم شأنه في الإسلام أنّ ممارسته ساعةً واحدةً تعادل عبادة سنة، بل تزيد عليها[1].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّ التفكّر يدعو إلىٰ البِرّ والعملِ به»[2].

وفي حديث الإمام عليّ بن موسىٰ الرّضا عليه السلام: «ليس العبادة كثرة الصّلاة والصّيام، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله (عزّ وجلّ)»[3].

وهذا يعني أنّ الإنسان يرقىٰ شأنه برقيّ تفكيره. وعلىٰ من يبتغي المسير إلىٰ الله (تعالىٰ) أن يشحذ تفكيره ما اْستطاع، وأن يخطو في كلّ مرحلة بحضور فكر وألاّ يغفل عن شيء. وأهمّ من هذا أن يمتلك ـ إضافة إلىٰ شحذ الفكر ـ قدرة علىٰ التركيز الذهنيّ، أي أن يكون هذا التركيز طَوْع يديه.. فإنّ هذه المسألة (التركيز الذهنيّ في القضايا المعنوية) من الضرورات المهمّة في السّير إلى الله.

وهذا دعانا أن نورد في هذا الفصل ـ من خلال سرد بعض الوقائع ـ حديثاً عن قيمة التركيز الذهنيّ في مختلف المسائل وعن أسلوب تحصيل هذا التركيز وبيان منافعه.. عسىٰ أن يكون معيناً للسالكين إلى الله (عزّ وجلّ).

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تَفكُّر ساعة خير من عبادة سنة» تفسير العيّاشيّ ٢: ٢٠٨.
(٢) أُصول الكافي ٢: ٤٥ (كتاب الإيمان والكفر ـ باب التفكّر).
(٣) أُصول الكافي ٢: ٤٥ (كتاب الإيمان والكفر ـ باب التفكّر).

أهميّة التركيز الذهني

في رسالة كتبها أحد التلاميذ الجادّين في مدرسة السّير والسّلوك، كتب يقول:

كنت تلميذاً مجتهداً ملتزماً التزاماً دقيقاً بما يوصيني به الأستاذ. كنت أحسب أنّي متى ما طويت مرحلتَي التوبة والثبات كان بإمكاني - إذا توجّهت إلى الصلاة - ألاّ أغفل عن الله في صلاتي ولا لحظة واحدة. لكنّي - وأقولها بأسف - لم أجد ما كنت أؤمّل. فطالما شرد ذهني في الصلاة فلا أقبل على الله (تعالى) ما يليق من الإقبال. وأخبرت أستاذي بالأمر شاكياً له حالتي الروحيّة، طالباً منه العون. فقال: ينبغي أن يكون لديك تركيز ذهنيّ.

ثمّ أجلسني إليه، وقال: كلّما عزمت، يا بُنيّ، على التعبّد - صلاةً أو غير صلاة - فينبغي أن تستجمع فيه خاطرك. وأوّل ما تفعله أن لا تَدَع قبالتك ما يستهويك ويجذبك إليه، كزوجتك وأطفالك أو المناظر الحَسنة اللاّفتة.

ومن هذا المنطلق حذّر الإسلامُ المصلّي من الالتفات يمنة ويسرة، وحَظَر عليه التكلّم مع غيره، ومنع تناول الطعام والضحك والبكاء (لغير الله) في حالة الصلاة. أي عليه ألا تشغله القضايا التي تبعثه على الضحك أو البكاء. وهذا كلّه مما يخدم حالة التركيز الذهنيّ والإقبال التامّ على الله.

وعلىٰ هذا . . عليك أن تسعىٰ ما أمكنك السعي ليغدو التركيز طيّعا لك، فتتمكن من هذا التركيز متىٰ شئت . . بحيث لا يَصْرفك صارف عمّا ركّزت ذهنك عليه .

وأخيراً . . فإنّ مِنْ أهمّ ضرورات مَنْ يريد السّلوك إلىٰ الله أن يكون قادراً علىٰ التركيز .

ثمّ قال لي : ومَن يُرِد أداء عمله علىٰ نحو تام سليم ـ سواء أكان سالكاً إلى الله، أم كان مكتشفاً، أو مخترعاً، أو مطالعاً في كتاب ـ فينبغي أن يتحلّىٰ بالتركيز الذهنيّ ؛ فإنّ هذا التركيز ـ في الحقيقة ـ هو أساس كافة الأعمال الصحيحة .

أمّا إذا لم تكن قادراً علىٰ بلوغ التركيز . . فإنّك لن تستطيع ـ بذهن مشتّت ـ أن تمضي في السّير إلىٰ الله ؛ فإنّه أمر عسير، بل لعلّه كصراط القيامة : أدقّ من الشّعرة وأحدّ من السّيف . ولا أظنّ أن يحالفك ـ في هذه الحالة ـ التوفيق . فما عليك ـ إذن ـ إلاّ أن تَجْهد لامتلاك التركيز وأن تجعل أفكارك خاضعة لإرادتك .

وسمعت كلمات الرّجل، فعزمت علىٰ تنفيذها بأيّ شكل من الأشكال . بيد أنّي لم أفلح في مسعاي لتحقيق حالة التركيز الذهنيّ هذه .

وعدتُ ـ مرّةً أخرىٰ ـ إليه . . ليدلّني علىٰ طريقة تعينني في بلوغ هذه الحالة . فذكر لي تعليمات في الموضوع . . فنفّذتها، وحصلت على نتائج طيّبة والحمد لله .

وأجد أنّ عليّ الإشارة إلىٰ مسألة مهمّة في هذا السّياق، وهي أنّ من أراد أن يمارس التركيز بيسر وأن يتحكّم بأفكاره من غير عناء . . فعليه أن يؤدّي التعليمات التالية علىٰ أنّها ترويض للسيطرة علىٰ الذهن ولتركيزه .

تعليمات للتركيز الذّهني

الأوّل:

إذا شئت السيطرة علىٰ تركيزك الذهنيّ فعليك الانفراد في غرفة صغيرة خالية من وسائل الزينة أو ما يلفت النظر. . مدّة ساعة واحدة في اليوم إلىٰ تمام أربعين يوماً. وعندها تتوجّه إلىٰ الله (عزّ وجلّ) بالعبادة والدعاء وتلاوة القرآن، وأشْعِر نفسك أنّك في محضر الله (تعالىٰ) الذي أحاط بكل شيء، ولا تفكّر بغيره. وعليك أن تمسك بزمام تفكيرك بدقّة تامّة، ولا تسمح لأيّ شرود يطرأ عليك. وبهذا العمل تبلغ ما تنشده من التركيز.

الثاني:

من بواعث تركيز الذهن الولَه بشيء ما أو إنسان ما. إنّ الحبّ يجعل كلّ وعي المرء متركّزاً في محبوبه، منصرفاً عمّا سواه. وإذا ما عشق امرؤ عملاً يريد إنجازه فإنّه يُقبل عليه في غاية الانتباه والتركيز ويؤدّيه علىٰ خير وجه. وهذا يعني أنّ من سبل التحكّم بالتركيز الذهنيّ أن يتولّه الإنسان بعمل ما قبل أن يُقْدم عليه.

وهذا يعني ـ مرّةً أخرىٰ ـ أن يحاذر المرء أداء ما لا يميل إليه من الأعمال

(وبخاصّة الأعمال الفكريّة)؛ فإنّه يؤدّيه ـ إذا أدّاه ـ في شرود ذهني لا يولّد عملاً سليماً كاملاً.

ولهذا أوصيك ـ قال الأستاذ ـ أن تتعرف علىٰ العمل قبل إقدامك عليه، وتفكّر بثمرته، وأهميّته، وأثره في إسعادك أو إسعاد الآخرين. ثمّ تسعىٰ لتحبّ هذا العمل وتتعلّق به؛ لتحظىٰ بالنجاح في هذا السبيل.

الثالث:

من القضايا التي تجعلك تتحكّم في تركيزك الذهنيّ: التوكّل علىٰ الله. ولست أريد هنا أن أوافي بك مرحلة التوكّل؛ فإنّها من المراحل العليا التي لا تستطيع أن تصل إليها الآن. ولكن عليك الآن أن تعلم أنّ كلّ شيء بيد الله. فلا ينبغي إذَنْ أن تخاف علىٰ مستقبلك، أو تخشىٰ من الفقر والمرض وكلّ ما يُقلقك، فتقع في تشتّت الفكر وشرود الذهن. وكلّما تدنّىٰ إيمانك بالله وقلّ توكّلك عليه زادت في حياتك اليوميّة القضايا التي تُشتّت الذهن، فلا تستطيع عندئذ أن تركّز في القضايا التي تحتاج إلىٰ التركيز.

ثمّ قال الأستاذ:

ثمّة قضيّة يسمّيها بعضهم «السرّ الأكبر». وهي أنك إذا أردت أن تتوجّه إلىٰ أحد بالنّصح، أو أن يكون لموضوع في نفسك أو في غيرك أثر إيجابيّ.. فعليك الإيحاء بهذا الموضوع في المرحلة الثانية من المراحل: النوم و«الخَلْسة» واليقظة. ففي هذه المرحلة يقوىٰ التركيز الذهنيّ لدىٰ الإنسان. وتفصيل الموضوع أنّ المرء إذا أراد النوم يكون في مرحلة اليقظة في أوّل الأمر، ثمّ يعبرها إلىٰ مرحلة «الخَلْسة» أي ما بين اليقظة والنوم، ثمّ يخلد إلىٰ النوم.

وما يعنينا في موضوعنا هو المرحلة الثانية (مرحلة الخلسة) في حالَتَي البدء بالنوم والإفاقة من النوم. ذلك أنّ الأشخاص في هذه المرحلة يكونون

في خلسة وتركيز ذهني مدة تستغرق (٧) دقائق إلىٰ (١٠). وهذا ما يجعل لأيّ نوع من الإيحاء أو النصح أو الكلام أثره العميق. وغايتها أن يكون المرء عارفاً بقوانين الإيحاء، وأن يعلم أنّ الإيحاء في الخلسة مرّة واحدة لا يكون له أثر في نفسه أو في الموحىٰ إليه. . بل ينبغي تكراره عشرين مرّة، كأن يقول عشرين مرّة في الصباح: «أنا شجاع».

ثمّ إنّ الإيحاء يوماً أو يومين ممّا لا يحقّق الهدف، ولا بدّ أن يتكرّر من (٢٠) يوماً إلىٰ (٤٠) يوماً. ومن المعلوم أنّ الأشخاص يتفاوتون فيما بينهم في تلقّي هذا الإيحاء. وينبغي ألاّ تُبَدّل العبارة الموحاة في كلّ يوم، بل لا بدّ من الثبات علىٰ موضوع واحد في الإيحاء. وللايحاء باستخدام جهاز التسجيل مزيّة في هذا الاتجاه؛ إذ يطيل للإنسان مرحلة الخلسة.

والمسألة الأخرىٰ ألا يكون الإيحاء بالسلب أو النفي، فلا تقول مثلاً: «أنا غير مريض»، بل تقول: «أنا معافىٰ».

والعبارة التي تريد الإيحاء بها ينبغي أن تكون بصوتك أنت، أو بصوت من تحبّه (كأستاذك)، فإنّه يسجّل علىٰ شريط، وتستمع إليه قبل النوم ليلاً أو قبل الاستيقاظ في الصباح.

وأخيراً. . فإنّ العبارة التي يراد الإيحاء بها يُفَضّل أن تُنْطَق بمودّة ولطف، وأن تكرر عشرين مرّة مدّة أربعين يوماً. . ممّا يحقّق الغاية المنشودة.

بيانات مرتاض هندي

كنت أنتظر صديقاً لي، عند نهر مدينة (پونا) في الهند. . لمّا لفت نظري رجل يقوم بحركات وأعمال مدهشة خارقة للعادة. كان ـ مثلاً ـ قادراً علىٰ التكلّم بعدّة لغات، من بينها العربيّة والفارسيّة. في البداية حدثني بالعربيّة إذ ظنّ أنّي عربيّ. ثمّ تحدّث إليّ بالفارسيّة لمّا علم أنّي فارسيّ اللسان. إنّه أستاذ متمرّس في العلوم الغربية، فلا يرىٰ التنويم المغناطيسيّ (الهِيبنُوتِسم) مثلاً إلاّ مسألة عاديّة جدّاً. وقد أتىٰ ـ خلال مدّة انتظاري علىٰ جانب النهر ـ بعدّة أنواع من هذه المهارات في الحركات. . ممّا كان مبعث دهشة لي.

سألته: ما هو أهمّ عوامل نجاحك في كلّ هذه المهارات؟ فقال: أساس نجاحي ما علّمنيه أستاذي في أوائل شبابي، إذ وجّهني عدّة أشهر للسيطرة علىٰ تركيزي الذهنيّ.

قال لي ذلك الأستاذ: يمكنك أن تحقّق ما شئت لو ركّزت ذهنك وجمعت فكرك في بؤرة واحدة.

وقال: إنّ التركيز ضروريّ في كلّ عمل، ولا طريق لأداء الأعمال غير

العادية، بل الخارقة للعادة. . إلا بوسيلة التركيز.

وقد أدركت خلال تجاربي في الحياة ـ قال المرتاض الهنديّ ـ أنّه لا يمكن أداء أيّ شيء ممّا يقوم به المرتاضون. . من مثل خفّة اليد والتنويم المغناطيسيّ، بدون التركيز الذهنيّ.

ثمّ قال لي هذا المرتاض: لقد جهدتُ في أيام شبابي وعانيت كثيراً حتىٰ اكتسبت القدرة على امتلاك التركيز. . وصرت من بعدها قادراً علىٰ أي عمل من مثل هذه المهارات التي رأيتَها منّي. . بدون أيّ جهد وعناء. ذلك أنّ كل ما كنت أبلغه من الأعمال وأكتسبه من المهارات، كنت أجد التركيز الذهنيّ أساسه ومنطلقه.

في مدينة (بنارس) كنت واقعاً في حبّ فتاة لعدّة سنوات. وإذ امتلكت التركيز الذهنيّ. . كنت أشاهد ـ علىٰ بُعْد المسافة بيني وبينها ـ كلّ ما تقوم به من أعمال وتصرّفات. وها أنذا الآن أقوم بأغلب الأعمال الخارقة للعادة، بوسيلة هذا التركيز.

ويؤمن بعضهم أنّ الإنسان إذا استطاع أن يكتسب طاقة التركيز الذهنيّ علىٰ نحو كامل صحيح. . يغدو بامكانه أن يأتي بكلّ الأعمال الخارقة للعادة. ذلك أنّ في الروح الإنسانية طاقات مدهشة عظيمة، بل إنّ الروح لها طاقات غير متناهية، لأنها تنتسب إلىٰ الله، كما قال (تعالىٰ): ﴿. . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(١).

وعلىٰ هذا فإنّ الروح الإنسانيّة حين تجنّد كل الطاقات الفكرية لهدف ما، ويحدث في الإنسان التركيز. . يغدو في مقدوره أن يحقّق كلّ ما يهمّه من أعمال.

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

ربّما طرق سمعك أنّ بعض المرتاضين في هذه البلاد يستطيع أن يوقف حركة قطار. أنا نفسي قادر علىٰ أن أنظر ـ وبالتركيز الذهنيّ ـ إلىٰ غزالة في حالة فرار مسرعة، فأسمّرها في مكانها وأمنعها من الحركة. وأنا نفسي أستطيع بالتركيز أن أفصل روح حيّة ـ أو ما شابهها من الحيوانات الضعيفة ـ عن بدنها. . أو أن أجمّدها في مكانها.

والحقيقة أنّ المرتاض الهنديّ هذا يقدر أن يفعل هذه الأعمال. وإنّي لأعتقد ـ كما ادّعىٰ هو ـ أنّ كلّ المهارات العجيبة هذه إنّما تتحقّق بالتركيز الذهنيّ أو الفكريّ.

التنظيم في الأمور

كتب أحد السالكين في دفتر خاطراته:

كنت أفتقد التركيز في العبادات وفي مراحل السلوك تماماً. وطلبت من أستاذي يوماً أن يعينني علىٰ التخلص من حالة الشرود الذهنيّ.

وسألني الأستاذ أسئلة ترتبط بحياتي الشخصيّة، فاستبان له أني لا أعرف الانتظام في حياتي اليوميّة. قال لي: عليك أنْ تتّخذ قراراً لتنظيم كلّ شؤون حياتك.. كبيرها والصغير، لتصير ـ بعد زمان غير قصير ـ إلىٰ وضع من التركيز(١).

في البداية أوصاني بالمحاسبة والمراقبة قائلاً: عليك أن تختلي بنفسك كلّ يوم لتستعرض أعمالك، وتحاسب نفسك علىٰ أفكارك وصفاتك وما يصدر منك منذ أن تستيقظ في أوّل الصّباح (ولهذا الاستعراض أثر في قوّة الذاكرة).. فتستحي من الأعمال التي أدّيتها عبثاً وبلا نظام وتتنصّل منها عازماً ألا تعود إلىٰ مثلها في غد يومك ذاك. وإن كان في بعضها معصية استغفرت.

---

(١) ومن الواضح أنّ التعليمات المذكورة لن تكون مفيدة لمن يعيشون الفوضىٰ في جزئيات حياتهم. ويفتقدون التنظيم. وإذا كان لها من فائدة فهي قليلة مؤقّتة.

وهذه هي المحاسبة.

الأمر الآخر أن تكون علىٰ يقظة، فَتُحاذر أنْ تصدر منك أعمال كيفما اتّفق غير داخلة في خطّتك. وتستمرّ علىٰ هذه المراقبة لأعمالك وتصرّفاتك لئلاّ تخرج من الحدّ الوسط إلىٰ حالَتَي الإفراط والتفريط، وألا تقترف معصية بأيّ حال من الأحوال، وأن تُعنىٰ بالانتظام في كلّ الشؤون. وهذه هي المراقبة.

ثمّ قال: عليك الالتزام في كافة الأعمال بالتنظيم والترتيب العُقَلائيّ الدقيق.

وقال: إنّ التنظيم ينأىٰ بالمرء ـ علىٰ المدىٰ البعيد ـ عن التشتّت والشرود، ويقترب به تدريجاً نحو التركيز. فإنّه متىٰ كان أداء الأعمال وفق حساب دقيق مرتبط بجدول زمنيّ منذ الصباح حتىٰ الليل.. هدأ التفكير واطمأنت النفس، ولا يظلّ مَسرباً للتدافع والاضطراب من هذه الناحية.

إنّ الانتظام والترتيب في الممارسات اليوميّة ممّا يولّد طمأنينة البال والتركّز في التفكير.. ومَن قَرّ تفكيره واستكان، وتخيّر الطريق القويم، ودام علىٰ هذا زماناً.. فانّك لا تلقاه مشتّتَ الفكر ولا مضطرب البال. أمّا من يعيش في فوضىٰ الأعمال ولا يعرف ما ينبغي له أن يفعل.. فإنّ هذه الفوضىٰ المعيقة لا بدّ أن تَسِمَ تفكيره بِمَيْسَمها، ولو بعد حين؛ فلا يمسي قادراً علىٰ مواصلة عمل بعينه ولا يبلغ في عمل منتهاه.. في الوقت الذي تراه فيه مشغولاً بالعمل. وقد قيل في مثل هذا: فلان مشغول بلا شغل!

ويحلّ الليل علىٰ الإنسان الذي يفتقد في حياته الانتظام والترتيب.. فإذا هو مُرْهَق تَعِب، دون أن يحقّق أيّ عمل ذي شأن. في حين يفلح نقيضه

المنظّم في إنجاز كافّة أعماله في أوقاتها، وهو ما يزال يحتفظ بهمّته ونشاطه.. شاكراً الله (تعالىٰ) علىٰ ذلك.

ثمّ انّ الأنبياء والأولياء جميعاً عليهم السلام، وكذا الحكماء والعلماء قد أكّدوا في وصاياهم علىٰ التنظيم والتنسيق في ميادين الحياة وفي الأمور كافّة جَلّت أو صَغُرت. وهم أنفسهم كانوا علىٰ مستوىٰ رفيع من تنظيم الأمور، وذكروا فوائده الكثيرة.

تعليمات للانتظام في الحياة

ثمّ قال لي الاستاذ: اجعل لك دفتر ملاحظات، تكتب فيه كلّ صباح كافّة الأعمال التي عليك أن تؤدّيها في ذلك اليوم.. إلىٰ الليل. وعليك أن تحرص علىٰ أداء كلّ عمل من هذه الأعمال في وقته وفي موقعه، بلا تساهل ولا تراخٍ أبداً.

وليعرف الناس والأصدقاء من حولك أنّك منظّم في وقتك وفي أعمالك، فلا يحمّلونك عندئذ أشياء تفسد عليك هذا التنظيم.

ليعرف عنك الناس الحزم والجدّ في حياتك، فيقدّروا ما أنت عليه.

لا تخالط من الناس غير المنظَّمين الذين لا يُعيرون أوقاتهم وأوقات الآخرين اهتماماً؛ فإنّ وضعهم المضطرب يسري إليك كالوباء ويجعلك غير منظّم.

حافظ علىٰ أوقات مواعيدك. واهجُر من أخْلَف لك وعداً ـ حتىٰ لو كلّفك ذلك كثيراً.

عامل نفسك والآخرين ـ فيما يتّصل بتنظيم حياتك ـ بحزم؛ من أجل أن تفلح في امتلاك سرّ السعادة هذا، ورمز النجاح الكبير.

شكرت للأستاذ إرشاداته المهمّة، وعكفت علىٰ تنفيذ ما قال.. ففزت ـ ولله الحمد ـ بالقدرة علىٰ التركيز.

الفصل الخامس

الصراط المستقيم

- مرحلة الصراط المستقيم
- معنى الصراط المستقيم
- صراط الدنيا وصراط الآخرة
- مكاشفة تربوية
- الفلسفة الإسلامية
- الميزان الواقعي
- النظم في الحياة
- الوسواس
- الخلو من العقائد المنحرفة
- توقيفية العبادات
- ترك المحرمات وإتيان الواجبات
- التعهد والوفاء بالعهد
- ولاية الفقيه
- التقاليد
- الشهوة والصراط المستقيم
- الغضب
- النظافة والزينة
- الزواج
- آداب المعاشرة

ينبغي للسالك إلى الله مطالعة هذا الفصل من الكتاب، بعد أن يكون قد قرأ الفصول السابقة واستوعب ما فيها وجسد ما استخلصه من معارف في شخصيته وسلوكه تحت اشراف أستاذ مجرب، كما ويتعين عليه العمل بنفس التسلسل والمرحلية التي وردت في هذا الفصل، فإذا حاول تخطي أو تجاوز تلك المراحل مستهدفاً التقمص أو الحصول على تلك الكمالات دفعةً واحدةً فإنه لاشك سوف لا يُوفق في أن يخطو ولو خطوةً واحدةً في طريق الكمالات الروحية والمعنوية.

فمثلاً من أراد الدخول في مرحلة «الصراط المستقيم» التي وردت في هذا الفصل قبل الولوج في مرحلة الثبات أو من أراد الدخول بمرحلة اليقظة قبل دخوله مرحلة التوبة فإنه سوف لا يحصل على النتائج المتوخاة من هذا الكتاب.

ولا بد من التذكير أن عبور كلّ هذه المراحل يجب أن يكون تحت إشراف وتسديد كامل من قبل أستاذ متواضع خبير، أما إذا أراد أحداً العمل منفرداً بما ورد في هذا الكتاب والمُضي في تزكية النفس والحصول على الكمالات الروحية

فإنه في الوقت الذي سيتحمل فيه الكثير من العناء، فإنّ نسبة نجاحه في هذا الأمر ستكون ضعيفة ومتواضعة للغاية، أما إذا قُرأ هذا الكتاب من قِبل الأساتذة أو ممن لهم إحاطة بروحيات وأمزجة التلامذة، أو من قِبل أولئك الذين تجشموا عناء تزكية النفس طِبقاً لتعليمات وبرامج الأساتذة فإن هذا الكتاب سيكون مفيداً للغاية، من هنا إذا كنت قد قرأتَ في الفصول السابقة المراحل الثلاث من اليقظة والتوبة والثبات فأنت الآن في كنف المرحلة الرابعة من مراحل السير إلى الله، وهي مرحلة «الصراط المستقيم» التي تُعد من أهم مراحل تزكية النفس. فعليكَ أن تشمر عن ساعديك وتشد حيازيم همتك وأنت تقطع أشواط هذا الطريق.

مرحلة الصراط المستقيم

السالك إلى الله وبعد أن استجمع لنفسه معاني الثبات والصبر والمقاومة والعزم الراسخ والثقة العالية بالنفس وأنهىٰ عملية بناء الذات في تلك المراحل. لا بدّ له أن يُهيء نفسه وبكل جدية وتركيز في الأفكار ومراقبة جادّة منعاً من كل أنواع الإنحراف سواء إفراطاً أو تفريطاً، ويحاول أن يتّخذ لنفسه مقياساً دقيقاً يُحاكم به أفكاره وأعماله وعقائده ويحاول تطبيق ماله من أفكار وأعمال مع ذلك المقياس.

القرآن الكريم وضع لهذا الميزان وهذا المقياس لفظة «الصراط المستقيم» وأوجب علىٰ كل المسلمين ذكرها في كل صلاة في سورة الحمد بقوله «إهدنا الصراط المستقيم»، من هنا؛ فأهم مراحل بناء الذات هي مرحلة «الصراط المستقيم» والتي تستبطن الاتزان الفكري والعقائدي والسلوكي، وسنتناولها بكل مفرداتها في هذا الفصل انشاء الله. آمل أن يلتفت السالكون إلى الله لأهمية هذه المرحلة وأن يسعوا جاهدين إلى تطبيق ما هم عليه مع مفردات «الصراط المستقيم»، ولا بدّ من القول أن في مرحلة

«الصراط المستقيم» هناك أمران يتسمان بطابعهما العملي:

الأول: «المراقبة»: وتعني أن السالك إلى الله يراقب نفسه ألا يصدر عنه أدنىٰ إنحراف سواء إفراطاً أو تفريطاً فيجب على السالك أن يكون كسائق الحافلة الذي يتحكم بالحافلة ويتجنب أدنىٰ انحراف وأدنىٰ غفلة.

فينبغي للسالك أن يكون حذِراً مراقباً ألا يخطو خطوةً أو يتحرك حركة تنحرف به عن «الصراط المستقيم» وعن الدين والشريعة، أمّا الّذين يظنون أن بإمكانهم السير إلى الله مع تخبطهم في أوحال الذنوب والمعاصي والوسواس فإنهم لا شك مخطئون، كما وأن معظم أساتذة الأخلاق يؤكدون على أن أهم الأعمال وأكثرها نفعاً للسالك إلىٰ الله هي المراقبة والتي تعني المواظبة على عدم الانحراف عن الخط المستقيم للدين والشريعة وفتاوىٰ مراجع التقليد

لذلك؛ يلزم للسالك إلى الله أن يتمثل في نفسه وشخصيته صفة المراقبة ويجعلها أقرب للملَكَة كي لا ينحرف عن «الصراط المستقيم» حتىٰ في حالة اللاشعور.

الأمر الثاني: «المحاسبة»: والتي تعني أن يكون الإنسان محاسباً نفسه في كلّ شيء حتىٰ في عِباداته والمستحب من أعماله. ولا ينبغي له أن يكون لا أبالياً في ذلك، فقد ورد في بعض الأحاديث عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال «ليس منا مَن لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل خيراً استزاد الله منه وحمد الله عليه وإن عمل شراً إستغفر الله منه وتاب إليه»(١).

---

(١) بحار الأنوار المجلد ١ صفحة ١٠٢ والمجلد ٧٠ صفحة ٧٢.

فقد دأب أولياء الله أن يتخذوا لأنفسهم مكاناً في آخر الليل وقبل نومهم. يسترجعون ويستذكرون كل ما قاموا به وأقدموا عليه ويجعلوا من النفس اللوامة حَكَماً عليهم عند محاكمتهم أنفسهم قائلين: قبل أن تُقام هذه المحكمة يوم القيامة أمام الباريء عزّ وجل. جديرٌ بنا السعي لاقامة هذه المحكمة ونحن في هذه الدنيا فنحاسب أنفسنا لأن ذلك سيؤمننا من الفزع يوم القيامة. فقد قال رسول الله ﷺ «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[1].

السالك إلى الله وقبل أن يرد مرحلة «الصراط المستقيم» لا بد له أن يتحلىٰ بمَلَكتي المحاسبة والمراقبة وأن لا يسمح لنفسه بالانحراف عن «الصراط المستقيم» حتىٰ في حال الغفلة، فهو كسائق الحافلة الذي يعرف الطريق بكل منعطفاته الحادة وموانعه وحدود السرعة المطلوبة وعلامات المرور ولا يغفل عنها حتىٰ في حالة اللاشعور.

(١) بحار الأنوار المجلد ٧٠ صفحة ٧٣.

معنى الصراط المستقيم

يقول أحد رواد مدرسة تزكية النفس، ممن امتاز بطهارة القلب والروح، وكان قد طوىٰ مراحل «التوبة» و«الثبات» ودخل مرحلة «الصراط المستقيم»:

في الأيام الأولىٰ لدخولي مرحلة «الصراط المستقيم»، كنت غارقاً في التأمل بتلك الخصوصيات والشرائط التي سمعتها من أستاذي حول هذه المرحلة. وكنت أشعر بالسعادة وأرىٰ نفسي قد أتيتُ بالأعمال التي أوصاني بها أستاذي. فكنت أتوسم في أعمالي أنها من عنايات الله وألطافه، حيث مكنني أن أخطو خطوةً أخرىٰ نحو الكمال، فكنتُ لا أبرح أن أرفع يديّ في الخلوات بالدعاء وأكرر الآية الشريفة داعياً ضارعاً:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

في تلك الليلة جعلت من هذه الآيات المباركات ومن ذلك الظلام المفعم بالانقطاع. وردي إلى الله، وإذا بي قد كُشف لي عن عالم الغيب، وأُزيح ستار الطبيعة عن عينيّ، فعدتُ أرىٰ ما لا يرىٰ غيري، فرأيتُ كل

---

(١) سورة الحمد، الآيتان: ٦ ـ ٧.

وجودي يضرع إلى الله سبحانه «إلهي إهدني صراطك المستقيم» . . في تلك اللحظات، ساورني شعور بالضراعة لا حدّ له، وكما علّمني أستاذي، فطالما كنتُ أرغب إلى الله أن يجعل كل أعمالي وأفكاري وإعتقاداتي على «الصراط المستقيم».

فجأةً . . وإذا بيد الغيب، تقذف في قلبي الآية الشريفة من سورة الزخرف، فأخذتُ أتلمس معاني هذه الآية وأستهدي هداها.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(1).

من هنا، فإن «الصراط المستقيم» ليس هو إلا السير والأخذ بما أُوحي إلى القلب المبارك لرسول الله ﷺ من دين ومعارف وأحكام، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوىٰ بل هو الوحي الذي يجري علىٰ لسانه المبارك. وكما قال سبحانه في كتابه الكريم:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(2).

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(3).

إذن، فمن حذا حذو رسول الله في عباداته وعقائده وأخلاقه فهو على «الصراط المستقيم». وفيما أنا أخط هذه الكلمات، خطر بذهني أنني وقبل مدة، ذهبت إلى أحد المساجد، فرأيت شخصاً قد اقتدىٰ بآخر في صلاته، يحذو حذوه، لا يتخطاه في ركوعه وسجوده، فرأيت أن أحدهما إماماً والآخر مأموماً، عندها حدّثتُ نفسي لو كان المأموم لا يقتدي بالإمام في بعض أركان

(1) سورة الزخرف، الآية: ٤٣.
(2) سورة الحشر، الآية: ٧.
(3) سورة يس، الآيات: ١ ـ ٤.

صلاته فإنه بلا شكّ سوف لا تحصل لديّ القناعة بأنه مأموم.

فكون الرجل مسلماً أو شيعياً، ليس أمامه إلاّ الاقتداء التام «بالرسول الأكرم»ﷺ والإمام (علي بن أبي طالب»عليه السلام في كل صغيرة وكبيرة ودون زيادةٍ أو نقصان، وأن لا يحيد عن نهجهم، وطريقهم الذي اختطوه، وهذا بحد ذاته معنى «الصراط المستقيم».

ما هو الطريق القويم؟

يقول أحد السالكين إلى الله، ممن دخل مرحلة «الصراط المستقيم»، سمعت منك ومن على هذا المنبر تقول، إذا هُيّء لأحدٍ أن يتخطى مرحلتيّ التوبة والثبات، ستأتيه الملائكة وتأخذ بيده وتهديه، وقرأت حينها الآيات المباركات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

فبعد أن يتخطى الإنسان مرحلة الثبات، تتنزّل الملائكة حاملةً تلك الحقائق الربّانية إلى قلبه، وتعينه وتسدده في سيره نحو الله.

ولم يغبْ عن ذاكرتي منذ وطئت قدماي مرحلة «الصراط المستقيم»، قول أستاذي الكبير: إذا أردت أن تطوي هذه المراحل بسرعة وتصل إلى الكمال، لا بد لك أن تمسك شوارد أفكارك وخطرات قلبك ولا تدعها تتأرجح هنا وهناك.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٣

ما إن طرق هذا الكلام سمعي، حتىٰ جعلته أنيساً لي، إذ لم أزل أعالجه بفكري في كل لحظة وكل آن، ولا زال ذهني ممسوساً في التفكير بـ«الصراط المستقيم». وفي احدىٰ الليالي وبعد ما أتيتُ بفرائضي وعباداتي، جلستُ هُنيئة أترقّب أن يكشف لي الله ويفيض عليّ من ألطافه، وإذا بلوحةٍ تتراءى لي أمام عينيّ.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

وإنْ كان المعنىٰ الظاهر «للصراط المستقيم» في هذه الآية الكريمة، هو الأخذ وانتهاج التعاليم التي أفاضها الله على قلب «رسوله الأكرم»ﷺ، وأن ما كُشف لي يتطابق وظاهر هذه الآية الشريفة وآيات القرآن والروايات. حيث رأيت نفسي في طريق مستقيم، ينتهي ببيت الله الحرام، كان الطريق طويلاً ومرتفعاً، وعلى الرغم من طوله لكنّ بيت الله كان يتراءىٰ لي من بعيد، كما وإن الطريق كان مليئاً بالصخور والأحجار الصغيرة والكبيرة، الأمر الذي جعل عبوره أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، وعلى جانبي الطريق كانت هناك أزقة لكل منها عنوان خاصّ به، وينتهي كل زقاق من هذه الأزقة ببيت أحد أعلام المذاهب وأصحاب المشارب المناوئين للقرآن والعترة، وفيما أنا أحث السير في هذا الطريق نحو بيت الله الحرام وإذا باللوحة التي شاهدتها من قبل أمام عينيّ مكتوب عليها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2] وفيما كنت أحث السير في ذلك الطريق، وإذا برسول اللهﷺ واقفاً تغمر وجهه المبارك ابتسامة كريمة، وهو يقول لي: هذا الطريق المستقيم؛ صلْ نفسك بالله، واسعَ أن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

يكون سيرك في وسط الطريق ولا تدخل هذه الأزقة التي على جانبي الطريق، هذا ما أُوصيكَ به؛ وإذا أردت السير نحو الله ولقاء الله والحصول على تقوى الله، فاحذر كل الحذر أن تُدلف في تلك الأزقة، فإنها تصرفك عن «الطريق المستقيم» ولا تسمع في هذا كلام أحدٍ أبداً.

من هذه المكاشفة أدركت، أن ذلك الطريق هو «الطريق المستقيم» الذي طالما ورد ذكره في كتاب الله العزيز والذي ذُكر في هذه الآية المباركة بقوله سبحانه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1]. وأنا إذا أردتُ الفوز بلقاء الله، فلا بد لي أن أطوي هذا الطريق ولا أزيغ عنه قيد أُنملة. أما تلك الأحجار والصخور التي في الطريق، فهي الصفات النفسية الرذيلة التي تحملها جوانحي، والتي ربما تحول بيني وبين الوصول إلى الله جلّ وعلا.

وأما تلك الأزقة المغلقة، فهي الطرق الباطلة التي أعلامها نفر يدلون الناس إلى أنفسهم، لا إلى الله، ولا إلى الحقيقة وهذا ما أشير إليه بمعنى الآية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

لكن لماذا أرى الطريق المستقيم طريقاً صاعداً؟ ذلك؛ لأن الإنسان في سيره نحو الله والغيب يتحرّك على خلاف رغباته وميوله، فهو يتحسس عثرات الطريق وأشواكه، لذا نراه يتحرك ببطء وروية وتؤدة.

قال الرسول الأكرمﷺ: «حُفت الجنّة بالمكاره» ولعل الحكمة القائلة «البلاء للولاء» كلها حقائق واشارات لهذا الصعود في الطريق ظهرت لي في تلك المكاشفة، لكن هذا الصعود إلى تلك الربوة ليس بالأمر العسير إذا كان

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

القلب يحدوه شوق وإذا كان في النفس رغبة وفي الفؤاد حب.

عندها أخذتُ علىٰ نفسي أن لا أصغي بعدها إلىٰ وساوس الشيطان وتسويلاته ولكل ما يدعو للانحراف وأن أبقىٰ أسير في وسط «الصراط المستقيم»، الذي سينتهي بي حتماً إلى المحبوب والمعشوق.

صراط الدنيا وصراط الأخرة

منذ مدّة وعندما كنتُ أرتاد أحد المساجد لأداء صلاة الجماعة فيه، وبالرغم من كوني شاباً وفي مقتبل العمر أخذتُ علىٰ نفسي آنذاك الجلوس دائماً في الصف الأول علىٰ يمين إمام الجماعة، ذلك لأني سمعتُ أنّ هذا العمل ثوابه أكثر ويزيد من فضيلة صلاة الجماعة. في تلك الأثناء كان هنالك رجلاً مسناً يرتدي لباس علماء الدين. يجلس إلى يميني ويؤدي صلاته كل يوم، طبعاً والحال تلك، كان أقرب لإمام الجماعة مني إليه وغالباً ما كان يُدلي برأسه نحو الامام واضعاً يديه على الأرض يسأل إمام الجماعة، وكنت أستمع لأسئلته وأجوبة العالم وكنت أستفيد منها كثيراً.

في أحد الأيام، سأل هذا الرجل إمام الجماعة الذي كان من العلماء الأجلاء؛ لماذا نكرر في صلاتنا سورة الحمد ولماذا نطلب على الدوام من الله سبحانه أن يهدينا «الصراط المستقيم». هل يمكن أن يكون الرجل عبداً لله ولكنه ليس على «الصراط المستقيم»؟ إذن ما هي حقيقة هذا الدعاء؟

إمام الجماعة أجاب وباختصار:

ذلك لأن الشيطان قد نصب لنا فخاً ويجب أن لا نغفل عن

ذلك حيث قال ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١].

انتفعت كثيراً بهذا الكلام ولكنّي وقتها كنت لا أمتلك الجرأة لفتح باب الحديث والتكلم مع إمام الجماعة، قررتُ عندها أن أتبادل الحديث والاستئناس مع ذلك الرجل الذي بجانبي. وفي أحد الأيام وبعد أن أتم صلاته وشرع بجمع أطراف سجادة صلاته وقبل أن ينصرف بادرتهُ متسائلاً: هل باستطاعتكم أن ترشدوني حتىٰ أكون من أولياء الله؟ قال: تعال نمشي الطريق معاً إلى المنزل ونتحدث إلى بعضنا عما تريد.

قبلتُ الأمر وخرجنا من المسجد سويةً نحو بيته في وقتٍ كان طريقي غير طريقه. وحرصتُ أن أكون خلفه بعض الشيء في مسيري معه، وقلتُ له: من أين أبدأ وكيف أطوي الطريق إلى الله؟

قال: اعلم يا بُني؛ أن هذا الطريق طريق شاق وطويل وهو ذاته «الصراط المستقيم» الذي يمر من فوق جهنّم ويبدأ من هذه الدنيا وينتهي إلى الجنّة ولكنه محفوف بالمخاطر والمشاق التي لا بد أن توطن نفسك عليها، واعلم، أن أدنىٰ غفلةٍ منك وأنت تطوي هذا الطريق ستؤدي بك إلى الخروج منه وستسقط في جهنّم، فيجب عليك أن لا تركن إلى الطرق المنحرفة الأخرىٰ التي ستراها فيما بعد.

قلتُ له: قبلتُ بذلك ورضيت وسأسعىٰ جاهداً أن أطوي هذا الطريق ما دمتُ حياً، وصحبته طيلة الطريق إلى أن دخلنا البيت وجلسنا الغرفة. لكنه كان مطأطأً رأسه محركاً شفتاه وكأنه يدعو الله ويناجيه ولم يتكلم معي بشيء.. جلس لحظات ثم خرج من الغرفة.. نصف ساعة مرة ولم يأتِ.. في تلك الأثناء وأنا في الغرفة، أمتلكتني حالة معنوية عجيبة لم أعشها من

---

(١) الأعراف، الآية: ١٦.

قبل، بدأت أفكر وكأني جالس بين يديّ الله أناجيه، وشعرت أني وجدتُ «الصراط المستقيم»، في تلك الأثناء بدأ النعاس يثقل عينيّ شيئاً فشيئاً وأخذتني إغفاءة وكأني راكب قطاراً من بلدٍ لآخر لكن الشيء الذي لفت نظري واسترعىٰ انتباهي، أن سكة القطار تلك كانت لكلا البلدين، وكان إسم ذلك البلد الذي أتوجه إليه «عالم البرزخ والقيامة»، وكنت متيقناً أنني إذا تركت القطار ونزلت منه. لم يكن بوسعي آنذاك الاستفادة بصورة طبيعية من عالم البرزخ والقيامة وطريقه المنتهي إلى الجنّة، واصلتُ سفري هذا إلى أن أنتهيت إلى حدود عالم الدنيا وعالم البرزخ، كنت ألاحظ أن «الجمارك» في تلك النقطة الحدودية أشبه ما تكون بمحط رحال القوافل أو ما يسمىٰ بـ«الخان»، ولديه بابان يدخلون من أحدهما ويخرجون من الآخر، وكنت أشعر أن ذلك البناء أو الـ«خان» هو قبري ومحل دفني، وأنا مستقل القطار كنتُ لا أحتاج سوىٰ أن ينظر مسؤولو «الجمارك» إلى جواز سفري الذي أحمله، والقطار يسير بي إلى أن انتهيت إلى القيامة، هناك في القيامة أشّر مسؤولو الجمارك جواز سفري دون أن ينزلوني من القطار، وأنا مستقل القطار، عبر بي جهنم التي كانت صحراء محرقة جرداء مرعبة مليئة بالأخطار والأهوال. نعم عبرتُ من جهنم دون أن تلفح وجهي أو أحس بأدنىٰ حرارة، بعدها، توقفنا في محطة مقابلة لباب الجنّة رأيت جمعاً غفيراً من الناس جاؤوا لاستقبال مسافري هذا القطار، وما إن ترجلتُ من القطار إلا ورأيت جمعاً غفيراً من معارفي وأصدقائي يتقدمهم أحد الملائكة رسولاً من قبل «أمير المؤمنين» عليه السلام فعانقني واحتضنني واستقبلني بحرارة. مرحّباً بي فرحاً بقدومي وقادني معه إلى الجنّة.. فجأةً؛ رجعتُ إلى سابق وعيي فرأيت نفسي في الغرفة وسردتُ لصاحبي ـ الرجل الكبير ـ وقائع تلك المكاشفة فقال: ما رأيت هو الصحيح فالطريق القويم «الصراط المستقيم» في هذه الدنيا هو الولاية وهو يمتد وإياك إلى الموت ويستمر إلى ما بعد الموت. يأخذ بيد

الإنسان ويعبر به جهنم حتى يصل إلى باب الجنّة، وهذه المكاشفة تعبر عن مضمون حديث للإمام الصادق عليه السلام عن معنى الصراط المستقيم حيث يقول عليه السلام في تفسير آية: إهدنا الصراط المستقيم «هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجل وهما صراطان. صراط في الدنيا وصراط في الآخرة وأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة مَن عَرَفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة»[1].

وكان صاحبي الشيخ الكبير يؤكد لي أن «الصراط المستقيم» هو التمسك بالقرآن و«المعصومين» عليهم السلام وتوليهما والأخذ بهما فكراً واعتقاداً وعملاً، لذا فمن يركب سفينة النجاة (أو القطار كما أوضحته المكاشفة) سينجو من الانحراف في هذه الدنيا ومن جهنم في الآخرة التي هي خاتمة الانحراف عن «الصراط المستقيم».

تكلم معي صاحبي ـ الشيخ الكبير ـ في هذا الباب مدّةً من الزمن واستفدت كثيراً من كلامه وتوجيهاته وإرشاداته لي.. وبقيتُ بعدها ولعدة سنوات أستأنس برفقته وحديثه حتى غادر الدنيا (رحمه الله).

---

(١) معاني الأخبار صفحة ٢٨ الصدوق.

مكاشفة تربوية

يقول أحد زملائي: أمتلكتني في فترة من فترات حياتي رغبة جامحة وولع شديد في التعرف علىٰ دراسة حياة علماء وفلاسفة الغرب، حيث قرأت الكثير عن حياتهم ومذكّراتهم وحصلت من خلال ذلك علىٰ بعض المعلومات المفيدة، بعض الأحيان كان يملكني العَجب إلى حد الذهول عما يصدر عن هؤلاء من أعمال بعيدة كل البعد عن الحقيقة، ولكن هناك مسألة أبهتتني وأدهشتني أكثر من غيرها وهي أن (٩٩٪) من هؤلاء العلماء والفلاسفة كان لهم إيمان عميق بالله ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يمرون أمام هذه الحقيقة الساطعة ببرود ولا أبالية عجيبين شأنهم شأن من لا يؤمن ولا يعتقد بهذه الحقيقة.

على سبيل المثال «موريس مترلينگ»و«نيوتن» و«انيشتين» فهؤلاء كانوا من المؤمنين والمعتقدين بالله عزّ وجل. . ولكن المسألة التي طالما أشغلت فكري وملكت عليّ خاطري ولبيّ، هيّ أنني كنت أقول: إن هؤلاء إذا كانوا لا يؤمنون بالله فلماذا اعترفوا بوجوده وجردوا أقلامهم لإثبات إحاطته سبحانه بجميع الكائنات والمخلوقات؟! وإذا كانوا يؤمنون فلماذا لم يراعوا حرمته ويستشعروا قربه منهم ولم يأنسوا به؟! ولماذا لم يناجوه؟! ولماذا لم يطرحوا

مشكلاتهم بين يديه؟! فهم علماء وليسوا بأناس عاديين، فجأةً: ألتفتُ إلى مسألة وهي أن هؤلاء شأن أحدهم كسائق الحافلة الذي انحرفت حافلته عن الطريق وسقطت في الأدغال والأحراش والأحجار. فراح ذلك السائق يفكر ويتحدث في الأشجار والأحجار وغاب عن باله مقصوده وهدفه.

نعم، إنّ لذة الإسهاب في المباحث العلمية وبالخصوص في الأمور المادية تُبعد الإنسان وتنسيه الحقائق المعنوية، فهم في كل الأحوال بشر لا يملكون إلا قلباً واحداً[١] ونمطاً واحداً في التفكير وليس باستطاعتهم أن يصبوا إهتماماتهم إلا على نقطة واحدة، فهم ليسوا كأولياء الله الذين سلكوا الطريق المستقيم طريق المعنويات ممن كانوا يرجحون المسائل الروحية على غيرها من الأمور المادية، فهم في الوقت الذي كانوا يحلقون في آفاق المعنويات ويأنسون بالله تعالىٰ نراهم قادرين على تعاطي العلوم المادية والطبيعية[٢] وحل معضلاتها وألغازها، بالضبط كذلك المسافر الذي استقل بارتياح حافلة جديدة ومتطورة تسير به في الصراط المستقيم. فهم في الوقت الذي يقطعون الطريق نحو هدفهم ومقصودهم إلا أنهم في الوقت ذاته ليسوا بغافلين عن تعاطي العلوم الطبيعية والتحقيق فيها.

أنا وفي هذا الإطار لما كنتُ في مرحلة «الصراط المستقيم» تذكرتُ قول أستاذي لي: إياك والتفكير بشيء غير المرحلة التي أنت فيها، فكنتُ أضرع إلى الله ليل نهار وأستنجد بفكري وأستعين بقدرتي في البقاء والثبات على صراط الله المستقيم، وكثيراً ما كان يؤرقني التفكير والاهتمام بـ«الصراط المستقيم» فعدتُ لا يطبق لي جفن ولا تغمض لي عين حتىٰ ساعة متأخرة من الليل، وفي إحدىٰ الليالي وأنا مستلقٍ على ظهري أحدق في سقف الغرفة

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤ .﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾.

(٢) سورة النور: الآية ٣٧ .﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

الذي أضاءته أنوار طبيعية ملونة. كنت أتضرع إلى الله بالهداية وأتوسل إليه التسديد والدموع تتقاطر من عينيّ. فجأةً.. وإذا بأعمدة نور بيضاء أشبه بشرر النار تسطع على أطراف السقف وزواياه، لم يكن لها شكل خاص لكن لها دويّ كدويّ النحل وكلها تهمهم وتقول «لا إله إلا الله»، وأنا كذلك بدأت أردد «لا إله إلا الله» وما إن يرتفع صوت التهليل حتىٰ يرتفع صوتي أنا كذلك وأُدغم صوتي مع تلك الأصوات التي كانت تقترب مني شيئاً فشيئاً حتىٰ أحاطت بي وبوجهي وبدني واستقرت في أذني وحلقي وشعرتُ أن نورانيةً عجيبة ملأت أركان وجودي، وكأن نوراً مَلَكَ عليّ كل هواجسي ومشاعري، وعدتُ أشم عبير رائحة عطرة غمرت كل أركان الغرفة، حتىٰ الأرواح والأجنّة كانت تطمع دخول الغرفة لترتشف من معين تلك النورانية والمعنوية.

لكن الملائكة والتي هي الأنوار التي أحاطت بأركان الغرفة لم تسمح لهم بالدخول، الأرواح والأجنّة هي الأخرى ومن خلف الباب إرتفع صوتها بالتهليل «لا إله إلا الله» ونحن كذلك من داخل الغرفة نصرخ «لا إله إلا الله» فكنا أشبه بموكب العزاء الذي تردُ فيه مجموعة الجواب على أختها من المجموعة الأخرىٰ، وكنتُ أنظر لأعرف إلى ما سيؤول إليه الأمر.

فجأةً.. أحد تلك الأنوار خرج من الغرفة، ليعود بعد هُنيئة ويخبرني أن هؤلاء الذين خارج الغرفة هم من الشيعة ومن الأرواح الطاهرة للمؤمنين في عالم البرزخ هم مثلنا على الصراط المستقيم قلت: إذن لماذا لا تسمح لهم بالدخول؟

قال: هؤلاء لم تتطابق ولم تتجانس نفوسهم مع نفوسنا، أي يمكن أن يطمعوا فيك ويأخذوك معهم ونحن موظفون بحفظك وحراستك حتىٰ بلوغك يوم أجلك، من هنا لم نسمح لهم بدخول الغرفة.

قلتُ: إذا كانوا على الصراط المستقيم فعليهم أن لا يأتوا بما لا يرضي

الله سبحانه، أنا في تلك الحالة بين المكاشفة والنوم كنتُ أصّرُ على إدخالهم الغرفة.

ولا بد من الإشارة أن تلك الأرواح والأجنّة كانت قادرة على دخول الغرفة وإن كان الباب مغلقاً ولكن كونهم على الصراط المستقيم لا يسمحون لأنفسهم دخول الغرفة دون إذن حراسها.

ولكن وبعد إصراري وإلحاحي أذِنت الملائكة التي على الباب لتلك الأرواح والأنوار والأجنّة دخول الغرفة، وبقينا معاً نستأنس بقربنا من الله وخامرتنا من اللذة ونحن في ذاك الحال ما لا تعدله لذة أخرىٰ، ولكن وكما قالت لي الملائكة من قبل فهم ـ الأرواح والأنوار والأجنّة ـ ومن خلال كلام منطقي طلبوا مني أن أرحل عن هذا العالم وأظل معهم على الدوام، أنا كنتُ متهيأً وحاضراً لهذا الأمر، لكن الملائكة التي تبنت حمايتي وحفظي قالوا: نحن لا نرغب أن يصدر منا عمل خلاف رضا الله فأجابتهم الأرواح والأجنّة: إذا توجهنا بالدعاء وطلبنا من الله بقبض روحه واستجاب عزّ وجلّ لهذا الطلب عندها هل يبقىٰ لديكم ما تتذرعون به؟ أجابتهم الملائكة: إنّكم لو كنتم تتمتعون بالمزيد من الكمالات لأحجمتم عن الإسراع إلى مثل هذه القضايا ولامتنعتم عن طلب أمرٍ بالدعاء والتوسل كان قد قدّره الله سبحانه لمصلحةٍ ما، عندها اعتذروا لي وللملائكة وأُلغي البرنامج بالكامل، واستفدت من هذا الحديث أموراً كثيرة لا بأس بنقلها إليكم.

أوّلاً: إن من يحصل على نعمةٍ ما، يود لو أن زميله هو الآخر يتمتع بهذه النعمة فهم يعرفون أن الذي يترك هذه الدنيا خفيف المؤونة سالكاً الطريق المستقيم كم سيستشعر اللذة في الحياة التي بعد الموت، وهم يعرفون جيداً مدىٰ المعاناة والمشاكل التي يعانيها كل من أراد المضي في صراط الدين المستقيم وكم هو صعب وعسير الثبات عليه.

ثانياً: إن الإنسان إذا بلغ الكمالات الروحية سيستشعر الرضا بالتقدير الإلهي، ولا يتخطىٰ الحق جلّ وعلا فيما يقضي ويقدّر بل ويسعىٰ أن لا يقدّم رضاه على رضا الله سبحانه وتعالىٰ. كما ورد في زيارة «أمين الله».

«اللَّهُمَّ اجعل نفسي مطمئنة بقدرك».

ثالثاً: علمتُ من تلك المكاشفة كم هم مطيعون ـ ملائكة الله ـ للأوامر الإلهية، فهم بحق عباد الله المخلَصون «﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾»[1] ولا يتقدمون بكلامهم ودعائهم الارادة الإلهية ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[2].

رابعاً: وقفتُ علىٰ الأهمية التي توليها الملائكة لحراستنا وحمايتنا وإلى أي مستوًى هم حاضرون للدفاع عنّا ودرءِ كل ما يمكن أن يداهمنا من أخطار فهم لم يبرحوا يذودون عنا حتىٰ يوم خروج أرواحنا من أبداننا.

وهنا لا بأس من إيراد قصة لم أذكرها في كتاباتي السابقة تكون مناسبة للمقام ومعبرة إنشاء الله.

في ليلة من ليالي الجمعة وفي مدينة شهر ري بتُ إلى جوار المرقد المطهر لـ«عبد العظيم الحسني» وفي تلك الفترة كانت هناك مسافة تفصل بين طهران وشهر ري، حيث ذهبت أنا ومجموعة من تلامذة أستاذي في الأخلاق الملاّ أقاجان إلى شهر ري مشياً على الأقدام. ونحن نحث الخُطى في ذلك الطريق تحدث زملائي الكثير حول المسائل الروحية والمعنوية، إلى أن وصلنا إلى الحرم المطهر حينها أصبحتْ نفوسنا وأرواحنا قد اكتسبت صفاءً خاصاً، أنا في تلك الليلة وبتلك الروحية والصفاء اخترتُ لنفسي زاوية من زوايا الحرم المطهر وأخذت بالتفكير في شخصية هذا الرجل العظيم خاصة وأني سمعت من قبل هذه الرواية.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

عن رجل عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال: دخلت عليه فقال: أين كنت؟ فقلتُ: زرت الحسين عليه السلام قال: أما لو أنك زرت قبر عبد العظيم عندكم كنت كمن زار الحسين بن علي صلوات الله عليه[1].

قلت في نفسي: كيف يمكن أن تكون زيارة عبد العظيم الحسني كزيارة سيّد الشهداء عليه السلام؟! في حين أن عبد العظيم الحسني ما هو إلا من أولاد الإمام الحسن المجتبىٰ وهو غير معصوم، في تلك الليلة وفي عالم الرؤيا أو في حالة الكشف التي حصلت لروحي شاهدت روح أستاذي في الأخلاق وهو يقول لي:

إن عبد العظيم الحسني بلغ هذا المقام السامي لأنه كان على الصراط المستقيم ولم يكن لديه أدنىٰ انحراف في أعماله وعقائده وأفكاره، بل إنه كان قدوة لغيره فلم يزل يطابق عقائده مع عقائد إمام زمانه في كل صغيرة وكبيرة، كما وأنه كان كثير البكاء على مصائب سيد الشهداء عليه السلام، فهو لا شك محشور إلى جوار سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام ومن زاره كأنما زار سيد الشهداء وثواب زيارته كثواب زيارة أبي عبد الله عليه السلام.

أنا في تلك الفترة لم أكن أطّلع علىٰ هذه الرواية التي سأنقلها لكم بعد عدة سطور، ولم أكن حينها أفهم ما كان عليه عبد العظيم الحسني من ثبات على الصراط المستقيم في عقائده وأعماله ولكني، وبعد أن اطلعت علىٰ هذه الرواية أدركت عمق إهتمامه بالصراط المستقيم وإقتداءه بإمامه في عقائده التي هي من أهمّ الأمور، والرواية كالتالي:

(١) بحار الأنوار، المجلد ١٠٢ ص٢٦٨.

ينقل الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد: أن عبد العظيم الحسني قال، دخلتُ علىٰ سيدي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فلما بصر بي قال لي: مرحباً بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقاً قال: فقلت له يابن رسول الله إني أريد أن أعرض عليك ديني فإن كان مرضياً ثبتُ عليه حتىٰ ألقى الله عزّ وجل فقال: هاتها أبا القاسم. فقلتُ: إني أقول أن الله تبارك وتعالىٰ واحد ليس كمثله شيء. خارج عن الحدين حد الإبطال وحد التشبيه وأنه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسم الأجسام ومصور الصور وخالق الأعراض والجواهر ورب كل شيء ومالكه وجاعله ومحدثه وأن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين فلا نبي بعده إلى يوم القيامة وأقول إن الإمام والخليفة وليّ الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم أنت يا مولاي فقال عليه السلام ومن بعدي الحسن إبني: فكيف للناس بالخلف من بعده قال: فقلت وكيف ذلك يا مولاي قال: لأنه لا يرى شخصه ولا يحل ذكره باسمه، حتىٰ يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، قال: فقلتُ أقررت وأقول إنّ وليّهم وليّ الله وعدوهم عدو الله وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله وأقول: إن المعراج حق والمساءلة في القبر حق، وأن الجنّة حق والنار حق، والصراط حق والميزان حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وأقول أن الفرائض الواجبة بعد الولاية الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر فقال علي بن محمّد عليه السلام: يا أبا القاسم. هذا والله دين الله الذين ارتضاه لعباده فأثبت عليه ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة[1].

أيّها الأحبة.. عرفتم الآن كيف حصل عبد العظيم الحسني على تلك المنزلة العظيمة وتلك الفضيلة؟! حصل عبد العظيم الحسني على ذلك لأنه كان على الصراط المستقيم، الأمر الذي حدا بالإمام الهادي عليه السلام إلى قبول دينه وتأييد عقائده، فإذا أردتم أن يرضىٰ عنكم إمام زمانكم كما رضي من قبل عن عبد العظيم الحسني إمام زمانه، فينبغي أن لا يكون لديكم أدنىٰ انحراف عن الصراط المستقيم في العقائد والأعمال والأفكار ولا تتبعوا بأي شكل من الأشكال المذاهب والمسالك المنحرفة.

وهنا لا بد لي من الإشارة إلى أن الإمام الحجّة عليه السلام قد منّ علينا ولطُف بنا أن أوضح لنا تلك العقائد ضمن رسالته الموجهة إلى «محمد الحميري» مجيباً على أسئلته وأوصانا عليه السلام في رسالته تلك بإظهار عقائدنا بصورتها الكاملة بين يديّ إمامنا ونصّ الرسالة كالتالي:

إذا أردتم التوجه بنا إلى الله تعالىٰ وإلينا فقولوا كما قال الله تعالى:

سلام على آل يس السّلام عليك يا داعيَ الله وربّاني آياته السّلام عليك يا باب الله وديّان دينه السّلام عليك يا خليفة الله وناصر حقّه السّلام عليك يا حجّة الله ودليل إرادته السّلام عليك يا تاليَ كتاب الله وترجمانه السّلام عليك يا بقيّة الله في أرضه السّلام عليك يا ميثاق الله الذي أخذه ووكّده السّلام عليك يا وعد الله الذي ضمنه السّلام عليك أيها العَلَم المنصوب والعِلْم المصبوب والغوث والرحمة الواسعة وعداً

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٣، ص٢٦٨.

غير مكذوب السّلام عليك حين تقوم السّلام عليك حين تقعد السّلام عليك حين تقرأ وتبيّن السّلام عليك حين تصلي وتقنت السّلام عليك حين تركع وتسجد السّلام عليك حين تهلّل وتكبّر السّلام عليك حين تحمد وتستغفر السّلام عليك حين تصبح وتمسي السّلام عليك في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلىٰ السّلام عليك أيها الإمام المأمون السّلام عليك أيها المقدّم المأمول السّلام عليك بجوامع السّلام.

أُشهِدُك يا مولاي أني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمّداً عبده ورسوله لا حبيب إلاّ هو وأهله وأشهدك يا مولاي أنّ علياً أمير المؤمنين حجّته والحسن حجّته والحسين حجّته وعلي بن الحسين حجّته ومحمّد بن علي حجّته وجعفر بن محمّد حجّته وموسى بن جعفر حجّته وعلي بن موسىٰ حجّته ومحمّد بن علي حجّته وعلي بن محمّد حجّته والحسن بن علي حجّته وأشهد أنك حجّة الله أنتم الأول والآخر وأنّ رجعتكم حقّ لا ريب فيها يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً وأنّ الموت حقّ وأنّ ناكراً ونكيراً حقّ وأشهد وأنّ النشر حقّ والبعث حقّ وأنّ الصراط حقّ والمرصاد حقّ. والميزان حقّ والحشر حقّ والحساب حقّ والجنّة والنار حقّ والوعد والوعيد بهما حقّ يا مولاي شقي من خالفكم وسعد من أطاعكم فاشهد ما أشهدتك عليه وأنا وليّ لك بريء من عدوك فالحقّ ما رضيتموه والباطل ما أسخطتموه والمعروف ما أمرتم به والمنكر ما نهيتم عنه فنفسي مؤمنة بالله وحده لا شريك له وبرسوله وبأمير المؤمنين وبكم يا مولاي أوّلكم وآخركم ونصرتي معدّة لكم ومودّتي خالصة لكم آمين آمين.

«وبعده أقرأوا هذا الدعاء»

اللّهمّ إني أسألك أن تصلّي على محمّد نبي رحمتك وكلمة نورك وأن تملأ قلبي نور اليقين وصدري نور الإيمان وفكري نور النيّات وعزمي نور العلم وقوّتي نور العمل ولساني نور الصدق. وديني نور البصائر من عندك وبصري نور الضياء وسمعي نور الحكمة ومودّتي نور الموالاة لمحمّد وآله عليهم السلام حتىٰ ألقاك وقد وفيت بعهدك وميثاقك فتغشيني رحمتك يا وليّ يا حميد.

اللّهُمَّ صلّ على محمّد حجّتك في أرضك وخليفتك في بلادك والدّاعي إلى سبيلك والقائم بقسطك والثائر بأمرك وليّ المؤمنين وبوار الكافرين ومجلّي الظلمة ومنير الحق والناطق بالحكمة والصدق وكلمتك التّامة في أرضك المرتقب الخائف والوليّ الناصح سفينة النجاة وعلم الهدىٰ ونور أبصار الورىٰ وخير من تقمّص وارتدىٰ ومجلّي العمى الذي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً إنّك على كلّ شيء قدير.

اللّهمّ صلّ على وليّك وابن أوليائك الذين فرضت طاعتهم وأوجبت حقّهم وأذهبت عنهم الرجس وطهّرتهم تطهيراً.

اللَّهمّ انصره وانتصر به لدينك وانصر به أولياءك وأولياءه وشيعته وأنصاره واجعلنا منهم.

اللَّهُمَّ أعذه من شرّ كلّ باغٍ وطاغٍ ومن شرّ جميع خلقك واحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله واحرسه وامنعه من أن يوصل إليه بسوء واحفظ فيه رسولك وآل رسولك وأظهر به العدل وأيّده بالنصر وانصر ناصريه واخذل خاذليه واقصم قاصميه واقصم به جبابرة الكفر واقتل

به الكفّار والمنافقين وجميع الملحدين حيث كانوا من مشارق الأرض ومغاربها برّها وبحرها وأملأ به الأرض عدلاً وأظهر به دين نبيّك ﷺ وجعلني. اللّهمّ من أنصاره وأعوانه وأتباعه وشيعته وأرني في آل محمّد عليهم السلام ما يأملون وفي عدوّهم ما يحذرون إله الحقّ آمين يا ذا الجلال والإكرام يا أرحم الراحمين[1].

(١) مفاتيح الجنان ص٥٢٣.

«الفلسفة أم الحكمة»

هنا. . ومن أجل ايضاح حقيقة «الصراط المستقيم » لا بد لي من بيان الحقيقة ساطعة ناصعة لا شائبة فيها لكم أيها القراء الأعزاء حتىٰ نكون وإياكم جميعاً علىٰ بينة من ماهية «الصراط المستقيم» في العقائد وكيف يمكن السير في هذا الصراط دون انحراف واعوجاج.

ذكرتُ مراراً وتكراراً في الكثير من بحوثي ومقالاتي التي كتبتها من قبل حول ضرورة الفصل بين «الحكمة» و«الفلسفة» لنتجنب النزاع فيما بعد، الفلسفة يجب أن تؤخذ على أنها علم. أما الحكمة فهي أمر ذو دعامة دينية.

ذلك لأن «الحكمة» ووفقاً لما صرّح بها العلماء والمفكرون: هي العلم الذي يُبحث فيه عن حقائق الأشياء. أما «الفلسفة»: فهي العلم بحقائق الأشياء والموجودات بمستوىٰ وقدرة الفكر البشري.

بناءً على ذلك، فكلا اللفظين لهما معنى مشترك ولكن يختلفان ويتفاوتان في عدة خصائص ينبغي على العلماء والمفكرين الاعتراف بها وإن كانوا قد اعترفوا بها من قبل بصورة ضمنية غير صريحة من خلال أقوالهم وكلماتهم.

الأول: لما كانت كلمة «فلسفة» قد أُخذت من اليونانيين الذين لم يكونوا قبل ذلك أصحاب وحي وذوي دين، فكان ولا بد أن تظهر معرفة حقائق الأشياء تلك قائمة ومبتنية على أفكار البشر ولم يكن بإمكانهم إظهارها على

أنها مستندة إلى الوحي وقائمة به، ذلك لأنه لم يدعِ أحد أن كبار الفلاسفة قبل الإسلام كانوا أنبياء، وإن ما أتوا به يستند إلى الوحي الإلهي. بل الكل أقرّ بأن «الفلسفة القديمة» اليونانية والفلسفة الحديثة كلها نتاج الأفكار العالية للفلاسفة ولم تخرج في حالٍ من الأحوال عن إطارها البشري أبداً، في حين نجد أن الحكمة سواء في القرآن أو الأحاديث الشريفة ظلت منسوبة إلى الأنبياء والوحي وأن الله سبحانه بعث الأنبياء والرسل وجعلهم وسائط لتعليم الحكمة[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

سورة البقرة، الآية: ١٥١: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

سورة البقرة، الآية: ٢٥١: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

سورة البقرة، الآية: ٢٦٩: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

سورة آل عمران، الآية: ٤٨: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

سورة آل عمران، الآية: ١٦٤: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

سورة النساء، الآية: ٥٤: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

سورة النساء، الآية: ١١٣: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

سورة المائدة، الآية: ١١٠: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

سورة الإسراء، الآية: ٣٩: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا=

ثانياً: لما كانت الفلسفة من نتاج الفكر البشريّ وأن الفلاسفة القدماء اختلفوا مع بعضهم البعض في الكثير من المتبنيات الفكرية، إضافةً إلىٰ أنه لا يمكن أن تكون أفكار البشر متطابقة مع بعضها بالكامل. كما وأننا نجد أن الفلسفة القديمة اختلفت مع الفلسفة الحديثة أكثر من اختلاف مدارسها الفكرية مع بعضها.

لذا ومن أجل رفع هذه الاختلافات وذلك التقاطع في الأفكار وضعوا «قانوناً» أسموه بـ«المنطق» لصيانة الفلسفة من الانحراف ولكن هذا القانون الذي هو حصيلة الفكر البشري هو الآخر لا يخلو من التباين والاختلاف، وعلى الرغم من تقنين ذلك القانون فإن الاختلافات ظلت كبيرة وقائمة وهو أمر لا يمكن إنكاره من قِبَل العلماء والمفكرين وأهل الفن[1].

أمّا الحكمة فإنها ظلّت نقية لم تطالها يد التغيير طول عمر البشرية ولذا فإن الله سبحانه في سورة النساء الآية ٨٢.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

ثالثاً: إن الفلسفة لا يمكن الاعتماد عليها من قبل الإنسان بحال من

= ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

سورة لقمان، الآية: ١٢: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

سورة ص، الآية: ٢٠: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

سورة الجمعة، الآية: ٢: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(١) التباين والاختلاف الفكري بين الفلاسفة بحدٍ لا يمكن إنكارهُ حتىٰ أن بعض العلماء قالوا: إن الماء والهواء والبيئة والفقر والثروة كلها عوامل مؤثرة في أفكار الفلاسفة، القدماء منهم والمحدّثين فعلىٰ سبيل المثال يقول أحد العلماء: إن طالس المالطي لما كان يعيش في المدن الساحلية المطلة على البحر فإنه كان يرىٰ في الماء أنه أصل كل شيء.

الأحوال، كما لا يمكن تقبّل مبانيها على انها اعتقاد جازم.

أمّا الحكمة فإن الإطمئنان إليها وإلى مبانيها بعد الإيمان بالله تعالى والدين والقرآن أمر محرز ولا يوجد ولو مسلم واحد ليس لديه إيمان بها.

الرابع: إن الفلسفة دوّنها أناس ليس هناك دليل على عدم خطئهم ولم يدعي أحد أنهم مصونون عن الزلل والهفوة.

أمّا الحكمة فإنها مصونة من الخطأ لأنها من الله تعالى جاء بها الوحي أو الإلهام.

مع كل ذلك يمكن أن ينقدح في أذهانكم أيها القراء الأعزاء هذا السؤال: مع وجود كل ذلك التباين والاختلاف بين اصطلاحي الفلسفة والحكمة نجد أن العلماء والمفكرين يحاولون استعمال هاتين الكلمتين على أنهما مترادفتان وكل منهما تحمل معنى الأخرىٰ؟!

نحن وفي معرض الإجابة على هذا التساؤل نقول: إن بعض علماء الإسلام ممن امتازوا بذوق فلسفي حاولوا إعطاء ذلك الذوق الفلسفي صبغة إسلامية، من خلال إدغام الفلسفة مع الحكمة بأي وسيلة ممكنة دون أن يبقوا لأحدٍ منهما إسمه الخاص وما يمتاز به.

ومن هنا فإن أتباع الحكمة الإلهية على «الصراط المستقيم» مئة في المئة أما أتباع الفلسفة البشرية فهم على الصراط المستقيم بقدر ما تطابقت فلسفتهم تلك مع الحكمة الإلهية، وإلا فهم منحرفون عن الصراط المستقيم.

وعلى هذا الأساس، فالطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة لدى المسلم هو معرفة حقائق الأشياء من خلال الحكمة، تلك الحكمة التي أفاضها الله على الأنبياء بالوحي وعلى الأولياء من خلال الإلهام بعد بلوغهم مقام الإخلاص

لا بد لي من الإشارة إلى مسألة وهي؛ إني وإن لم أُعرف كفيلسوف وفي حين يُؤخذ عليّ وعلى أساتذتي أننا من المناوئين «للفلسفة» لكنني أرى أنه من غير الإنصاف إخراج أساتذتي من دائرة الفلاسفة والمتخصصين في هذا الفن.

المرحوم «آية الله الحاج الشيخ مجتبىٰ القزويني» كان من كبار أساتذة الفلسفة، فقد دأب على تدريسنا كراسات تمثل خلاصة ما فهمه هو من الفلسفة، ومن خلال ذلك أدركنا أنه فيلسوف كبير استوعب أمهات المسائل والبحوث الفلسفية وتخصص في هذا العلم وأصبح من المتبحرين وأهل الرأي فيه، في الوقت ذاته وضع أصبعه على الكثير من انحرافات وأخطاء الفلاسفة الكبار، فكان يميط اللثام عن كل تلك الانحرافات والأخطاء والإشكالات ويجيب عليها بالأدلة العلمية المتقنة، لكننا نجد أن البعض يحاولون إظهار الخضوع والعجز من أنفسهم وبصورة غير طبيعية أمام كبار علماء الفلسفة ولا يعطون لأنفسهم الفرصة في أن يصغوا ويتفكروا في الكلام لا إلى المتكلم ويمعنوا النظر في الحديث لا إلى المتحدث كما ورد في الحديث الشريف «انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال» ويكونوا ذوي عقول فيتناولوا كلام الكبار بالنقد والتحليل ويأخذوا منه لبابه[١]، لا أن يقفوا مبهوتين مسحورين أمام شخصية وعظمة المتكلم، الأمر الذي يصرفهم عن التفكير والتأمل في كلامهم.

ويحاول البعض الدفاع وتبرير كل الآراء لبعض من الفلاسفة تلك الآراء التي جاءت نتيجةً لمتطلبات زمانية ومكانية بل ونتيجةً لمقتضيات الوضع الأخلاقي والفكري للفيلسوف وللمحيطين به، ومن يصل إلى حقيقة كون

---

(١) إشارة للآية الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ سورة الزمر، الآية: ١٨.

بعض هؤلاء الفلاسفة قد أخطأوا سواء إفراطاً أو تفريطاً يحاول ذلك البعض تبرير خطأ الفلاسفة بكل الوسائل الممكنة، والعجيب في الأمر أن بعض هؤلاء العلماء والمفكرين أعطوا للفلسفة من الأهمية، ما دفعهم وبصورة واعية أو غير واعية إلى تطبيق الحقائق القرآنية على كلام وآراء هؤلاء الفلاسفة والمفكرين، وإن كانت آراؤهم وكلماتهم تلك مغايرة للقرآن.

المرحوم «الحاج شيخ مجتبىٰ القزويني» كان يسعىٰ لوضع القرآن وكلام المعصومين عليهم السلام بعد النقد والتحليل العقلي محوراً وميزاناً بين الحق والباطل. فكان يأخذ بآراء كبار الفلاسفة إذا كانت أراؤهم تتطابق مع ما استنبطه من القرآن والأحاديث، وإلا.. يضعها في حيّز الإمكان أو يضرب بها عرض الحائط، فلم يكن كغيره ممن يتعبدون بآراء الفلاسفة الكبار وأفكارهم، وسلوكه هذا يتفق وسيرة العقلاء ولا شك أنه على الصراط المستقيم مئة في المئة، وبسبب ذلك أُلصق بالشيخ وتلامذته تهمة المخالفة للفلسفة ولم يستطيعوا أن يدافعوا عن آرائهم ويبرئوا أنفسهم.

على كل حال، لكن في نظري، ونظر جمع كبير من العلماء والمفكرين المنصفين، فإن العظام من أمثال الشيخ القزويني وتلامذته كانت لديهم احاطة كاملة بالفلسفة، أمّا ذلك التقوقع والتحجر الذي كان عليه البعض من العلماء، لم يكن إلا لأجل أن لا يُتهموا بعدائهم للفلسفة، في حين كنا نرى في الشيخ القزويني وتلامذته أنهم منفتحين مستقلين في أفكارهم وآرائهم وكانوا يبدون وجهات نظرهم في مختلف المسائل الفلسفية.

أحد الفلاسفة والمفكرين المعاصرين أطلق على أفكار المرحوم القزويني ومدرسته إسم «مذهب التفكيك»، ويقصد بذلك التفكيك والفصل بين الفلسفة والمعارف القرآنية وهذه التسمية كانت صحيحة إلى حد ما، وأورد ذلك المحقق بعض الآراء الجميلة في هذا المضمار لكن «المرحوم القزويني» لم يكن يؤمن بتلك التسمية بل كان يؤمن أن الفلاسفة قد خلطوا بين الطريقة

الفلسفية في المعارف وبين طريقة الحكمة والقرآن.

في أحد الأيام قال لنا المرحوم القزويني:

هذا الدمج والإدغام بين الفلسفة وحقائق الإسلام تم على يد «صدر المتألهين الشيرازي» وإن أتباع المعارف القرآنية لم يستسيغوا هذا الأمر حتىٰ يومنا هذا.

وأرىٰ أن ما يقوله هو الحق حيث إن فلسفة «ملاّ صدرا» تمثل نسيجاً من طريقة المشائين والاشراقيين والرواقيين والطرق الصوفية.

وأثنىٰ المرحوم القزويني على شخصية أستاذه المرحوم «آية الله السيد موسى زرآبادي القزويني» قائلاً:

لم أر نظيراً له طول عمري فقد كان رحمه الله متعبّداً مقيّداً بالأحكام الشرعية والمعارف الحقّة ففي الوقت الذي كان متبحراً ومن أصحاب الرأي في الفلسفة، كان في الوقت ذاته مجتهداً في الفقه وأوحدي زمانه في الأخلاق لديه من الكرامات ما تعجز عن استيعابها العقول والأسماع فهو ممن حظي بلقاء حضرة «وليّ الله الأعظم» (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) وتشرف بزيارته.

ويعتقد أن المرحوم «المجلسي» من خلال جمعه لأحاديث «أهل بيت العصمة والطهارة» عليهم السلام في كتابه «بحار الأنوار» وما جاء به من توضيحات واضافات لفك رموز تلك الأحاديث والروايات وحل ألغازها، استطاع النهوض بما يطمح النهوض به «مذهب التفكيك» في يومنا هذا، ولم يدع الميدان مفتوحاً لاختلاط مذهبيّ الفلسفة والحكمة مع بعضهما البعض، وهو يعتقد أن المرحوم «السيد بحر العلوم» هذا الرجل العظيم استطاع ومن خلال تربيته لتلامذة كبار وتوجيههم صوب المقام المقدس للإنسان الكامل ومظهر

الصفات الإلهية «الإمام الحجّة» (روحي فداه) استطاع الإبقاء على هذين المذهبين منفصلين عن بعضهما غير ممتزجين، وكان يؤمن أن علماء الدين وأتباع الحكمة المتعالية استطاعوا وبالاتكاء على قواهم المعنوية والاستعانة بالقرآن والسنّة الإبقاء على «الحكمة الإلهية» و«الفلسفة» منفصلتين عن بعضهما وتمكنوا من خلال ذلك من إثبات أن الحكمة الإلهية هي جوهر الاعتقادات والمعارف الحقة، كما وأنهم التزموا بالفلسفة على أنها معرفة بشرية كسائر المعارف البشرية والعلوم الإنسانية الأخرىٰ، وبذلك فضّوا النزاع الذي كان قائماً بين هذين الخطين.

«المرحوم القزويني» كان يؤمن أن الفلاسفة والعرفاء الإسلاميين أمثال «صدر الدين الشيرازي» و«الملا عبد الرزاق الكاشاني» و«محيي الدين بن عربي» لم يأتوا بشيء جديد سوى أنهم أعطوا تفسيرهم للآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام طابعاً فلسفياً، كي يتمكنوا بذلك من إعطاء الفلسفة البشرية لوناً من ألوان الحكمة الإلهية ويشيدوا للإسلام فلسفة إسلامية مستقلة قائمة بذاتها.

وأنا شخصياً كانت تجمعني جلسات خاصة مع المرحوم «العلامة الطباطبائي» (صاحب تفسير الميزان) ـ في الأمور المعنوية ـ وكان يصارحني إذا ما أضحت الجلسة خاصة جداً ويقول لي:

إن الفلسفة حجاب سميك لمن أراد السير والتوجه نحو الله والوصول إلى مقام الخلافة الإلهية المقدسة قلما يستطيع أحد النجاة من هذا الحجاب.

وأنا في معرض توضيحي لكلام العلامة أقول:

إن العلامة كان يعلم أن الفلسفة غير الحكمة وأنها ـ الفلسفة ـ يجب أن لا يطمئن إليها أحد ويختارها كوسيلة في السير إلى الله ومعرفة العقيدة وإن

أحداً إذا انغلق على الفلسفة بالكامل وأعرض عما سواها، فإنه لا يصل إلى الكمالات الروحية المطلوبة، بل يجب عليه الاستفادة من الحكمة الإلهية التي بيّنها الله سبحانه وتعالى في القرآن وجعلها الوسيلة في السير نحوه وأسماها بـ«الصراط المستقيم».

فهو ـ العلامة الطباطبائي ـ في الوقت الذي لا يوصي بالفلسفة كوسيلة للوصول إلى المقامات الإنسانية الرفيعة، نجده يرى فيها أنها حجاب سميك يُبعد السالك عن الله سبحانه، فإذا توخينا فصل مذهب الفلسفة والعرفان عن الإسلام والقرآن كما صرح بذلك القرآن، وأقرهُ وصرح به الفلاسفة الكبار أنفسهم فلا بد من تسمية المعارف (القائمة والمبتنية على الفكر الإنساني) بـ«الفلسفة» أما المعارف (القائمة والمبتنية على الوحي وكلام الأنبياء عليهم السلام) فهي «الحكمة» وبهذا يتحقق الفصل بين هذين الخطين والمسلكين ومن الطبيعي أن «الصراط المستقيم» في معرفة حقائق الأشياء يتم وفقاً للحكمة لا الفلسفة.

نحن وإلى آخر هذا الكتاب سنتكلم في موضوع «السير والسلوك» وسيكون كلامنا قائماً ومبتنياً علىٰ أساس الحكمة الإلهية التي هي القرآن والوحي.

الميزان الواقعي

يقول أحد السالكين إلى الله: إن أستاذي ونتيجةً للتزكية وتطهير النفس أُلهم قلبه أن القرآن الكريم هو معجزة إلهية وكان يعتقد بهذا الأمر ويؤمن به. في أحد الأيام سألته: كيف أدركت أن القرآن معجزة في حين أن القرآن لم يستعمل هذه الكلمة ولو في آية واحد، من آياته للإشارة إلى هذا المعنى؟

إلتفت إليّ وقال: في نظري إن أفضل معاني المعجزة هو ذات ما أورده الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.

﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

ذلك لأن كلمة ولفظة «معجزة» مأخوذة من العجز، والذي هو بمعنىٰ عدم القدرة والاستطاعة على إنجاز فعلٍ ما، والمعجزة ظاهرة تعجز كل العوامل الطبيعية عن الإتيان بمثلها وأنّ عقول العقلاء تحكم بكون هذه الظاهرة غير خاضعة للقوانين الطبيعية.

من هنا فإذا كانت الإنس والجن وهم المخلوقات العاقلة المفكرة في هذا العالم غير قادرة على الإتيان بمثل هذا القرآن فلا شك أن بقية المخلوقات التي هي أدنىٰ من هذين الصنفين علماً وفكراً وعقلاً لا تستطيع أن تأتي بكتاب كالقرآن، لذا فالقرآن بهذا البيان ومن خلال هذه الآيات أثبت لنفسه المعنىٰ الإعجازي فهو يصرخ في البشرية: إنني معجزة وليس بمقدور أحد غير الله أن يأتي بمثلي.

الفائدة من إثبات إعجاز القرآن

إذا استطعنا أن نُثبت كما أثبتنا من قبل في كتاب «مقالتان» إعجاز القرآن كما صرح القرآن نفسه بذلك نكون قد أوضحنا أحد الأدلة على إثبات وجود الله سبحانه، لأنه إذا استطعنا إثبات أنه ما من قوة في العالم قادرة على إيجاد مثل هذه الظاهرة في وقتٍ تكون هذه الظاهرة بين أيدينا اليوم، ينبغي علينا عندئذٍ أن نؤمن بوجود قوة هي فوق الطبيعة عالمة حكيمة خالقة لهذه الموجودات قادرة على إبداع القرآن الذي عجز علماء الجن والإنس عن

---

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

الإتيان بمثله هذه القوة العالمة القادرة المحيطة لا يمكن أن تكون سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

ومن خلال إثبات إعجاز القرآن، يمكننا إثبات الرسالة الحاملة لهذه المعجزة وهي رسالة الرسول محمّدﷺ، ذلك لأنه لا يمكن أن يضع الله سبحانه وتعالى هكذا معجزة بين يديّ رجل يدّعي الرسالة عنه سبحانه كذباً وبهتاناً هذا من جهة، من جهة أخرىٰ وبناءً على ما مضىٰ يمكن إثبات أن نصوص وعلوم القرآن المجيد كلها حكمة، أوحىٰ بها الله سبحانه وتعالىٰ وجعلها بين يديّ الإنسان وبهذا البيان يكون كل ما ورد في القرآن من الناحية العقلية صحيح وحقيقي وذو حجية، يفتح الله من خلاله على البشرية أبواب الحكمة والعلوم الواقعية، ذلك لأن القرآن الكريم ثروة تفيض بالعلوم والحكمة الإلهية والمعارف الحقّة[(١)].

ولما كان القرآن يؤكد أن كل كلام الرسول الأكرمﷺ هو وحي إلهي.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[(٢)].

يكون بذلك كل ما وصل إلينا من الرسول الأكرمﷺ من الروايات المعتبرة والقطعية الصدور عنهﷺ هي كالقرآن وحيٌ من الله سبحانه وتعالى ولما كنا نعلم أن ما قاله وجاء به «المعصومون» بالأسانيد المعتبرة في أمور الدين هو ذاته كلام «الرسول الأكرم»ﷺ وليس الأئمة إلا رواة وشارحون للحديث النبوي، وبلحاظ مقام عصمتهم وعظمتهم فإن كلامهم هو ذاته كلام الله سبحانه وتعالى ولم يخرج عن دائرة الوحي أبداً.

فمما لا شك فيه أن القرآن الكريم وروايات «المعصومين»عليهم السلام كلها

---

(١) شرحنا هذا مفصلاً في كتاب «مقالتان» حول إعجاز القرآن.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

حكمة تهدي إلى الصراط المستقيم، ونحن كما قبلنا الإسلام كدين، ليس أمامنا بحكم العقل من طريق سوى التمسك بالصراط المستقيم، فكل ما يصلنا من معارف وعلوم بحقيقة الأشياء من العرفاء والفلاسفة وأهل الذوق والمفكرين ـ المسلمين منهم وغير المسلمين ـ يجب علينا عرضه وتطبيقه مع كلام الله وكلام «المعصومين» عليهم السلام فإذا وافقه قبلناه وإلا تعاملنا معه بحذر وتردد.

كتاب علي عليه السلام

في أحد الأيام كنتُ أفكر في القرآن وكيف أمكنه وبحجمه الصغير هذا الإشارة إلى كل الحقائق والمسائل الكونية، فجأةً. . خطر بذهني قول أستاذي في الفقه المرحوم «آية الله العظمىٰ البروجردي (رضوان الله عليه)» قوله:

كان عند الإمام «علي بن أبي طالب» عليه السلام كتاب في شرح وتفسير القرآن الكريم أملاه عليه «رسول الله صلى الله عليه وآله» واختطه الإمام «علي». هذا الكتاب كان يضم بين دفتيه كل العلوم والأحكام الإلهية حتىٰ «أرش الخدش».

حاولت التثبت من الأحاديث التي ذكرت المعنىٰ أعلاه وتوصلتُ إلى نتائج جيدة في هذا المضمار أذكرها هنا عسى أن ينتفع بها السالكون إلى الله وهم في مرحلة الصراط المستقيم.

في روايات عن «الأئمة عليهم السلام» قالوا:

يا فضيل: عندنا كتاب «علي» سبعون ذراعاً ما على الأرض شيء يُحتاج إليه إلا وهو فيه حتىٰ أرش الخدش[1].

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٢٦ ص٣٤ و٣٥ والمجلد ٤٧ ص٢٧٠.

وفي روايات أخرىٰ متعددة ذكروا هذا الكتاب فقال الصادق عليه السلام:

إن عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعاً إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ علي عليه السلام بيده ما من حلال ولا حرام إلا وهو فيها حتى أرش الخدش[1].

في بعض الروايات ذُكر هذا الكتاب تارةً باسم «الصحيفة»[2] وأخرى باسم «الجامعة»[3] وهذا الكتاب اليوم لدى الإمام الحجّة (روحي فداه) وهو من ميراث النبوة وستنتفع به البشرية عند ظهوره (عجّل الله فرجه الشريف).

وهذا الكتاب، هو ذاته الكتاب الذي ذكرته الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام تحت عنوان «كتاب علي»[4] عليه السلام إذ أن أكثر ما ورد عنهم هو من هذا الكتاب.

وهو ذاته الكتاب الذي ينقل عنه «الأئمة الأطهار» في معرض إخبارهم بالمغيّبات وهو الكتاب الذي يحتج به بنو هاشم عند مطالبتهم بحقهم في الخلافة ويقولون: في «كتاب علي عليه السلام» ذُكر اسم ذلك الشخص بعنوان غاصب للخلافة إلا أنه لم يُوفق ويقتل في نهاية أمره.

وهو ذاته الكتاب الذي تُجمع كل الروايات على ضرورة كونه بيد المعصوم لا غير إذ أنه ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[5].

وهو ذاته الكتاب الذي ينقل عنه «الأئمة الأطهار» ويقول ذُكر في «كتاب علي» إذا كثر الزنى في أمّةٍ كثر موت الفجأة فيها.

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٢٦، ص٢٢.

(٢) بحار الأنوار المجلد ٢٥ ص١١٦ والمجلد ٢٦ ص٢٣ و٢٤ و٢٥ و٣٨.

(٣) بحار الأنوار المجلد ٢٦ ص٢٢ و٢٥ و٣٣ و٣٥

(٤) بحار الأنوار المجلد ٢٦ ص٣٥ و٥٠.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

وأخيراً يُستفاد من الأحاديث المتواترة أن هذا الكتاب جامع لكل المعارف والأحكام حتى التنبؤات وتفسير القرآن، واليوم هو بيد إمام العصر (روحي فداه) وأن ما أفاضه الأئمة من معارف وأحكام من هذا الكتاب، من هنا فإن كل ما جاء به «الأئمة الأطهار»، كان من «كتاب علي عليه السلام» وهو الكتاب الذي كله أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله والذي هو بصريح القرآن لا ينطق من تلقاء نفسه إن هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ[1] بل كل ما يقوله ويتفوه به صلى الله عليه وآله هو من إلقاءات الوحي التي هي من الله سبحانه، لذا فكل الأعمال والأفكار والعقائد التي تتفق وتتطابق مع القرآن وكلام المعصومين هي في «الصراط المستقيم» وما سواها ساقطة في وادي الانحراف.

(١) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

النظم في الحياة

واحدة من أهم الأمور التي ينبغي للسالك إلى الله وهو في مرحلة «الصراط المستقيم» الاهتمام بها ومراعاتها هي النظم في الشؤون الحياتية والعبادية، فالذي لا يعيش النظم في حياته سوف لا يكون بمقدوره الحصول على التوفيق والنجاح في أعماله والوصول إلى الكمالات الروحية والارتقاء في المدارج المعنوية.

والدين الإسلامي يولي إهتماماً كبيراً لمسألة النظم وبرمجة الأمور الحياتية حتى يرتقي بها ويضعها رديفاً للتقوىٰ والتوحيد.

الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة وفي وصيته لابنيه «الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام يقول:

«أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم»[1].

هذا ما أوصى به «أمير المؤمنين» أبناءه وأقرباءه وهو في لحظاته الأخيرة وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية النظم في الأعمال، لذا.. فواحدة من أهم وظائف الأستاذ هي مراقبة تلامذته بحيث تغدو مراعاتهم النظم والدقة في أمور حياتهم فى مستوى المَلَكَة في شخصيتهم.

---

(١) نهج البلاغة: صبحي الصالح ص٤٢١.

الوسواس

لا شكّ أن من يتملكه الوسواس في العبادات أو في أموره الأخرىٰ لا يستطيع أن يخطو ولو خطوة صغيرة في طريق الكمالات الروحية والمعنوية، أو أن يكون على «الصراط المستقيم» ذلك لأنه سيكون كالحافلة التي سقطت في الوادي وانحرفت عن «الصراط المستقيم».

فالوسواسيّ أشبه برجل ضعيف القوىٰ هزيل البُنية يجره آخر قوي البنية عظيم الجثة أينما يشاء وكيفما يريد. فالشخص الوسواسي ضعيف إلى حدٍ يكون قد سُلب اختياره منه وأعطىٰ زمام أمره بيد من لا يحب ولا يرغب.

وهكذا إنسان ضعيف، لا يستطيع أن يكون مواكباً في سيره وحركته سير وحركة السالكين إلى الله، بل سيكون كلاً عليهم ومانعاً من نجاحهم وموفقيتهم، فيجب على الأستاذ أن لا يسمح لهكذا شخص أن يكون في ركب من يريد السير نحو الكمالات الروحية وتزكية النفس، ولا بد للأستاذ بادىء الأمر أن يعين تلميذه في التخلص من هذا المرض العُضال.

والوسواسيون هم أكثر الناس قدرةً على إنقاذ أنفسهم من هذا المرض، شأنهم شأن المدمنين على المواد المخدرة فإذا لم يتخذوا هم أنفسهم قراراً بترك هذا العمل فإن كلَّ العلاجات الطبيعية ستكون عاجزة وغير مجدية.

فالوسواسي إذا هو لم يقرر ويريد فإن علاج أستاذه سيكون غير مجدٍ وعديم الفائدة، وإذا أراد المبتلىٰ رفع وسواسه فيجب عليه ترك كل الأعمال الباعثة لهيمنة الشيطان عليه. ولا بد له من المواظبة على كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» و«لا إله إلا الله» وعلى الأقل أن يسجد في اليوم والليلة سجدة يكرر فيها اليونسية[1] (فإن بعض أولياء الله ذكروا: أنه يمكن الإتيان بهذا الذكر أربعمائة مرة عند السجود).

---

(١) ذكر اليونسية هو ذلك الذكر الذي أتىٰ به النبي يونس عليه السلام عندما ابتلي وعلى أثره أنجاه الله ووعد سبحانه مَن يأتي بهذا الذكر وهو مغموم إلا فرج الله غمه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الخلو من العقائد المنحرفة

ينبغي في مرحلة «الصراط المسقيم» أخذ العقائد من الكتب المفصلة وتنظيمها وعرضها على الطلاب وفقاً لهذا الفهرست.

١ ـ معرفة الله سبحانه وتعالى من سورة التوحيد.

فهو في صفات الذات «أحد» يعني ليس له نظير ولا مثيل.

وهو في صفات الأفعال «واحد» يعني هو أول من حيث الرتبة وبهذا الدليل يكون «أرحم الراحمين» و«أكرم الأكرمين» و«أحسن الخالقين» أو «ربّ الأرباب».

وهو «صمد» يعني لا يمكن مقايسته بأحد من المخلوقات.

وهو «لم يلد» يعني لم يؤخذ من ذاته شيء ولم يترشح منه شيء ولم يتولد منه ولد وهو «لم يولد» يعني أنه لم يتولد من شيء فلم يخلقهُ أحد ولم يتولد عن شيء.

وهو «لم يكن له كفواً أحد» يعني ليس له كفواً في ذاته وليس له زوجة وليس له نظير ومثيل.

(هذه كلها أمور لا بد للأستاذ أن يشرحها للسالكين إلى الله في مرحلة «الصراط المستقيم»).

٢ ـ ينبغي معرفة «الرسول الأكرم»ﷺ من خلال الآية المباركة ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فلا بد من الإيضاح للسالك إلى الله أن الرسول الأكرمﷺ لديه بعدان، الأول هو البعد المُلكي الذي أُشير إليه بكلمة «أنا بشر مثلكم» وهذا يعني أنه كسائر البشر من قبيل الصحة والمرض والجوع والشبع والارتواء والظمأ، والتألم، والزواج، والنوم، والضعف والنشاط والموت أو القتل بمعنى أنه يحصل لهﷺ ما يحصل للبشر العاديين وكل ما جرىٰ لرسول اللهﷺ كان واقعاً وحقيقياً ولم يكن تظاهراً.

ولا بد من الإعتقاد أن الرسولﷺ من حيث الطاقات البدنية والقوى الجسمانية هو أكمل وأقوىٰ من غيره، يعني كما أنهﷺ من حيث قوة بصره وسمعه وسائر قواه وحواسه الخمسة أقوىٰ من الآخرين كذلك هو في قواه الجسمية والمزاجية أقوىٰ من غيره.

والبعد الآخر هو البعد الملكوتي لهﷺ وأُشير إليه بكلمة «يوحىٰ إليّ» وهو بمعنىٰ العلاقة والرابطة المستقيمة لهﷺ بالله القادر المطلق والعالم المطلق، الفعال لما يشاء، وتوضيح ذلك أن كل ما تطاله يد المخلوقين والبشرية من علم وقدرة فهو عن طريقه ومن خلالهﷺ فهو «يد الله» بمعنى أن بوجودهﷺ ومن خلالهﷺ تظهر القدرة الإلهية وهو «لسان الله» بمعنى أن كل العلوم التي يريد أن يفيضها الله على عالم الإمكان تكون عن طريقه ومن خلال وجودهﷺ وأخيراً إن الرسول الأكرمﷺ هو الواسطة المطلقة بين الله والخلق.

٣ ـ الإمام والإمامة ينبغي التعرف عليها والوصول إليها من الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والآيـة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والآيـة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فالإمام هو الوالي على الخلق في هذه الدنيا ولديه ولاية مطلقة تكوينية وتشريعية. والإمام يمتلك ذات العلوم التي أفاضها الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم من قبل، وهذا يعني أن

لديه العلم بجميع الحقائق وجميع الأمور التي يجب أن تكون بين يدي البشر.

ويجب إطاعة الإمام كما يطاع الباريء عزّ وجل «والرسول الأكرمﷺ» وللإمام كما للرسول الأكرمﷺ بعدين مُلكي وملكوتي كي يحصل التوافق بين «الرسول الأكرمﷺ» وخلفائه من بعده. «الأئمة الأطهار» إثنا عشر شخصاً أولهم «علي بن أبي طالب» وآخرهم «المهدي» إبن الإمام «الحسن العسكري»عليه السلام الذي سيظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويقيم الحكومة الإلهية في أرجاء المعمورة.

ولا بد للسالك إلى الله أن يعلم أن حقيقة الإنسان هي الروح، وما جسده إلا كلباس ارتداه لفترة قصيرة يبلىٰ بعد موته ليصبح تراباً أما الروح فإنها باقية إلى الأبد.

وبعد الموت تبقىٰ الروح مجردة عن البدن إلى يوم القيامة حيث تعذب أرواح ذوي الاعتقادات المنحرفة، أما الذين ليسوا من ذوي العقائد المنحرفة إلا أنهم لم يزكوا أنفسهم فإن أرواحهم ستبقىٰ في حالةٍ من الإغماء حتىٰ يوم القيامة، أما أولياء الله فإن أرواحهم ستظل ترفل بالنعيم واللذائذ الروحية إلى يوم القيامة حيث تحل أرواحهم في أبدانهم ثانيةً ويرجعون ويحيون حياتهم الثانية كما في الدنيا، وهكذا يمر الناس من الحساب والقيامة بعضهم يذهب إلى الجنّة ويخلد فيها وبعضهم يُساق إلى النار، ويمكن أن ينجي الله سبحانه وتعالىٰ من النار بعضاً منهم بعد أن يكونوا قد قضوا مدةً فيها.

هذه خلاصة ما يجب على السالك إلى الله الاعتقاد والإيمان به أما تفصيله فهوما ينبغي للأستاذ بيانه لتلميذه السالك بعد أن يكون الأستاذ نفسه معتقداً بما يقول، ولا بد للأستاذ أن يبذل قُصارى جهده وأن لا يسمح لتلامذته في التورط بالعقائد المنحرفة من قبيل الاعتقاد بالجبر، التفويض، التناسخ، والزهد الذي بمعنى الانزواء، والفقر، والاعتقاد بالبدعة القائلة إن

كل الموجودات هي ذات وجود الله سبحانه «وتناولتُ كل تلك الأمور وتطرقتُ إليها بالتفصيل في كتاب «أسباب التطوّر» وكتاب «الاستعمار ضد الإسلام».

هناك مسألة مهمة يمكن أن تُخرج السالك عن الصراط المستقيم إذا ما أُبتُلي بها وهي العزلة والرهبانية والانزواء وترك الدنيا، فأغلب أصحاب التوجه المعنوي والروحي يظنون أن الدنيا والآخرة لا يجتمعان وهذا آخر ما يواجهونه من انحراف عن الصراط المستقيم وهو لا شك خطر عظيم بالنسبة لهم، فإننا نلاحظ أن الله سبحانه أراد من الإنسان التكسب والعمل[١] والجدية والنشاط[٢]. أراد سبحانه أن تكون الدنيا والآخرة مع بعضهما جنباً إلى جنب فيقول في كتابه الكريم ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[٣]، فإذا كانت الأرض يرثها عباد الله الصالحون فهذا يعني أن حكومة الأرض وثرواتها وقدراتها وطاقاتها ستكون عندهم بل وحتىٰ طيباتها وزينتها ورزقها تحت تصرفهم وفي متناول أيديهم.

إذن لماذا يعتقد البعض أن أولياء الله يجب أن لا يملكون شيئاً من الإمكانات والقدرات المادية. بحيث يُصبح كل منهم طاقة مجمّدة يخفي كسله وفشله تحت غطاء الزهد وترك الدنيا وأحياناً تحت غطاء التصوف والعرفان، فهؤلاء لا يصلون إلى الله سبحانه أبداً لأنهم أضلوا الطريق بتسويلات الشيطان وأغواءاته.

---

(١) «الكاسب حبيب الله».

(٢) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

توقيفية العبادات

من أراد السير نحو الله والوصول إلى مقام العبودية الذي هو أسمىٰ مراحل تزكية النفس، ينبغي عليه أن يكون دقيقاً في عبوديته لله ويعلم أن العبادات توقيفية. أي لا يمكن للإنسان إعمال سليقته الخاصة في العبادة زيادةً ونقصاناً كماً وكيفاً، لذلك فإذا زاد أو نقّص في الواجبات كلمة واحدة لم يجزها الشارع المقدس سواء في الصلاة أو في غيرها من العبادات كانت عبادته تلك باطلة. وإذا زاد في المستحبات أو نقص منها سيكون خارجاً عن «الصراط المستقيم».

فمثلاً في دعاء كميل إنك بدلاً أن تأتي بكلمة «يا ربِّ» ثلاث مرات أتيت بها تسع مرات تكون خالفت وابتعدت شيئاً عن الصراط المستقيم.

نعم إن السالك إلى الله يجب أن يكون قائماً وحافظاً لدينه إلى الحد الذي لا يدع لنفسه أو للآخرين إخراج العبادات عن «الصراط المستقيم» من خلال الزيادة فيها أو النقصان منها.

حقيقة العبودية

لا شك أن معرفة حقيقة العبودية التي هي من أولى الشرائط لطيّ طريق الكمالات الإنسانية لا تتهيأ للإنسان إلا بالالتزام الدقيق والعمل بأحكام القرآن والروايات وعدم إدخال البدع في الدين أو الإتيان بعبادات تعبر عن اجتهادات فردية خاصة أو عن إجتهادات الآخرين بمعنىٰ إذا كان مجتهداً فإنه سيستنبط أحكامه وعباداته من القرآن والروايات وإلا، فعليه العمل بما يحكم ويُفتي به مرجع تقليده المخالف لهوى نفسه المطيع للأمر الإلهي في جميع الأحكام، كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات بل وحتىٰ في المباحات أيضاً. ولم يذهب عن خاطري يوم كنتُ في قم عند المرحوم آية الله العظمىٰ البروجردي (قدس سره) وسأله شخص: هل بإمكاننا العمل بأحكام كتاب «مفاتيح الجنان»؟ قال (قدس سره): أنا لم أحقق وأبحث في تلك الأدعية حتى أُعطي فتوى وأحكم باستحبابها ولكن يمكنك الإتيان بها بقصد الرجاء. «يعني على أمل ورجاء الإثابة عليها».

هذا الكلام يؤكد وبالخصوص للسالكين إلى الله، أنكم يجب أن تكونوا دقيقين في عبادتكم فإذا أردتم أن تدعوا بدعاء أو تتلوا ذكراً أو تأتوا بعبادة فإما أن تكونوا قد استنبطتموها أنتم أو توصلتم إليها وأيقنتم بأن الله سبحانه وتعالىٰ

أرادها منكم كي يثبت آنذاك وجوبها واستحبابها في عباداتكم [1]، وإما أن يكون مرجع التقليد الجامع للشرائط قد أفتىٰ بذلك.

هذا في العبادات العامة، أما فيما يتعلق بالأحكام التي يمليها الأستاذ علي تلميذه لتطهيره من الأمراض الروحية واعانته في تزكية نفسه، فإنها أدق ومراعاتها أوجب، أي يجب على الأستاذ أن ينتقي لتلميذه ما توصل إليه وفهمه هو من الروايات والآيات القرآنية أو ما أفتىٰ به مرجع تقليده ويجيز للسالك إلى الله ما يراه ملائماً لوضعه الروحي ومرحلته التي هو فيها، كالطبيب الذي يسمح لمريضه بالاستفادة من الأدوية المتوفرة في الصيدليات المجازة والتي تملك علامة مسجلة من وزارة الصحة بما يتناسب ووضع المريض ومزاجه ومرضه.

واحدة من الأخطاء التي يُبتلىٰ بها كثير من الناس ظنهم أنه كلما أكثر الرجل من الدعاء والذكر والعبادة فذلك أفضل وإن كانت تلك الأدعية غير مسندة وغير صحيحة ومن مبتدعات الدراويش والجهال، في وقت نرىٰ أن هذا اللون من العبادة أشبه ما يكون بالمريض الذي يدخل مخزناً للأدوية ويجد نفسه أمام كم كبير من الأدوية المختلفة المجازة من قبل وزارة الصحة، لكن هذا ليس مبرراً لأن يشرع هذا المريض بتناول جميع هذه الأدوية على أمل أن يكون أحد هذه الأدوية هو الدواء المناسب لمرضه.

وهكذا الحال في العبادات والأذكار والأدعية لمن طلب الشفاء من أمراضه الروحية والسير إلى الله والوصول إلى الكمال المطلوب، فكثيراً ما رأينا أفراداً ونتيجةً للإفراط في الإتيان بالعبادات والمستحبات إنتهىٰ بهم الأمر إلى الابتلاء بضعف الأعصاب والإرهاق الروحي واليأس من التوفيق

(١) هناك روايات كثيرة في كتاب بحار الأنوار المجلد ٢ الباب ١٤ والمجلد ١ الباب ٦ وردت في تأييد هذا المطلب.

والوسواس، بل وصل بهم الأمر في بعض الأحيان أن يصابوا بالجنون أو أمراض نفسية وفكرية مستعصية يصعب علاجها.

من هنا.. ففي الوقت الذي يجب أن تكون فيه الأذكار والعبادات والأدعية وصلت إلينا من المعصوم، لا بد كذلك أن يسمح الأستاذ لتلامذته من هذه الأذكار والأدعية والعبادات بالمقدار الذي ينفعهم ويتلاءم مع روحياتهم وأمزجتهم.

ترك المحرمات وإتيان الواجبات

البعض من الناس يعتقد أن تزكيه النفس لا تصبح ذات قيمة عملية إلا بإتيان الواجبات وترك المحرمات، والمؤسف أن أصحاب هذا الرأي قد خلطوا بين تزكية النفس وتزكية العمل، فكثير من الناس لم يكتفوا بالإتيان بالواجبات وترك المحرمات فحسب بل إنهم كانوا مقيدين بأداء المستحبات، وترك المكروهات لكن وللأسف نجدهم في الوقت ذاته أنهم مبتلون بالرذائل الأخلاقية، فنرىٰ أحدهم غارق في الرذائل الأخلاقية والصفات الحيوانية والشيطانية القبيحة إلى قمة رأسه.

وهؤلاء الذين ينطوون على هذا الفهم الخاطىء إما أنهم لم يتعقلوا الأحكام كما ينبغي أو لم تكن لديهم التجربة الكافية. وإلا لما تفوهوا بهذا الكلام، لأن هذا الكلام كمن يقول «أنا أطلي كوزة الماء بالعسل حتى يصبح الماء داخل الكوزة له طعم العسل، أو على الأقل كي يصبح الماء عذباً» في حين «أن الظرف ينضح بما فيه». فما هي العلاقة بين علاج الأمراض الروحية وترك المحرمات والإتيان بالواجبات؟

فأصحاب هذا الأسلوب والنمط الخاطىء في التفكير يريدون الوصول إلى المطلق الحق عزّ وجل، في حين أنهم خارجون عن «الصراط المستقيم»

وقد أضلوا الطريق فينبغي لهم وقبل كل شيء أن يعمدوا إلى تطهير نفوسهم وأرواحهم من الرذيلة. كي لا يحصل لهم أي توجه نحو الذنب ويأتون بعد ذلك بالواجبات بعقل وفطرة نظيفين طاهرين.

فالإنسان عندما يدرك معنى «الصراط المستقيم» ويسلك هذا الطريق وينفض عن نفسه غبار الصفات الشيطانية الرذيلة عندها سيأتي بالواجبات وينتهي عن المحرمات بصورة تلقائية.

لا تَعْتَد على شيء

أحد أهم الأمور التي تُذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم هي مسألة «الإدمان». طبعاً هذه المسألة صعبة للغاية خاصةً لأولئك الذين لم يطووا مرحلة «الثبات» كما ينبغي وإلا فإن الذين تخطوا مرحلة الثبات وأجتازوها بنجاح ليس لديهم أيّ مشكلة في هذا الأمر. ذلك لأنهم يستطيعون ترك كل شيء بكل بساطة وقدرة ومن الممكن أن يكون السالك إلى الله وهو في مرحلة التوبة قد أبعد عن نفسه وخلع عن رقبته كل ألوان «الادمان» المحرم مثل الترياق والهرويين والمسكرات. لكن من الممكن أن تكون هناك ألوان أخرىٰ من الاعتياد غير المحرم لم يتخلص منها.

إلا أنه في مرحلة «الصراط المستقيم» يجب ترك كل ألوان الإدمان حتى غير المحرمة منها، ذلك لأن كل لون من ألوان الإدمان هو كالسلسلة التي تثقل أقدام السالك في سيره إلى الله، وتجره حيث تشاء دون إرادته، فالذي أدمن على شيء لا يمكنه النجاح في عملٍ أمر به الله سبحانه يتعارض مع ما اعتاد عليه.

ولم يغب عن ذاكرتي أستاذي الكبير عندما أمرني بالوضوء قبل النوم كل يوم حتىٰ غدا هذا العمل بالنسبة لي كالعادة، وفي أحد الأيام كنتُ عند

أستاذي فلم أجد ما أتوضأ به من الماء فقال لي: تيمم ونمْ ، وافقته على ذلك وتيممت ولكن لم يغلب النوم عينيّ عندها قال لي: من الآن فصاعداً لا يمكنك الإتيان بالوضوء مخلصاً لله سبحانه بل إنك ستتوضأ كي يغلب عليك النوم فإنك ما لم تقضِ على هذه العادة يجب أن لا تنام وأنت على وضوء. لأن وضوءك فيما بعد لم يكن مخلصاً لله بل من أجل أن تنام.

فلا بد للسالك إلى الله أن يقطع كل الأغلال والسلاسل التي تكبل يديه ورجليه ويحرر نفسه من كل أنواع القيود وأن يتوجه نحو الهدف السامي وهو العبودية لله تعالىٰ. «أمير المؤمنين عليه السلام» في الدعاء الذي علّمه لكميل بن زياد يقول «وقعدت بي أغلالي» أحد هذه الأغلال التي تقف أمام السالك إلى الله هي هذه العادات اليومية التي يجب عليه إزالتها والقضاء عليها.

بعبارة أوضح إن الإدمان والاعتياد على أي شيء سوى أداء الواجبات وترك المحرمات يمكن أن يكون عائقاً أمام العبودية لله سبحانه وتعالىٰ.

في أحد الأيام وفي جمع من السالكين سأل أستاذنا: هل فيكم أحد اعتاد على شرب الشاي، بحيث إذا لم يشرب الشاي يصاب بالصداع أو يشعر بالغثيان؟ بعض الحاضرين أجاب: أنا كذلك؛ عندها قال له الاستاذ: يجب عليك أن لا تشرب الشاي حتىٰ تزول هذه العادة منك.

الوفاء بالعهد

السالك إلى الله وفي أول لقائه بأستاذه يجب أن يتعهد بإطاعته والسير على خطاه والتمسك بإرشاداته، وبالذات في هذه المرحلة «مرحلة الصراط المستقيم» فيجب على السالك إلى الله رعاية ما تعهد به أكثر من أي وقتٍ آخر. بل ويجب عليه السعي في أن يكون متعهداً ومسؤولاً في أموره كلها أمام الله وأمام الناس وقبال تعهداته التي قطعها على نفسه وأن لا يتخلف عنها ولو لمرةٍ واحدة.

حيث ورد في بعض الروايات أن الصراط أدق من الشعرة وأحدّ من السيف[1]، لذا فمن الممكن أحياناً أن يخرج الإنسان عن «الصراط المستقيم» بتخلف بسيط قد لا يحسبه شيئاً ويسقط عندها في وادي البؤس والحيرة، حيث قال الله سبحانه في كتابه الكريم ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾. لذلك فلا بد للسالك إلى الله أن يفيَ بكل تعهداته وأن لا يخلف عهداً عاهده ووعداً واعده مهما كان صغيراً.

ولا شك كلما كان ما تعهد به أكبر وموضوعه أهم، أصبحت مسؤولية

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٨ الباب ٢٢.

الوفاء به أوجب وأدق، وهنا لا بد من التذكير أن السالك إلى الله ينبغي عليه الوفاء بجميع تعهداته الصغيرة منها والكبيرة لأمرين:

الأول: من أجل أن يصبح الوفاء بالعهد أقرب إلى المَلَكَة لديه وهو يسلك «الطريق المستقيم» فإذا أراد أن يضع تمايزاً في الأمور كون هذا مهم وذاك أقل أهمية وهذا كبير وذاك صغير فإنه لا يستطيع عندئذ أن يتصف بصفة الوفاء بالعهد ويجعلها أقرب للمَلَكَة.

والثاني: إن أدنىٰ نقض للعهد سوف يُبعد السالك وبصورة واضحة وعملية عن «الصراط المستقيم»، هذا الانحراف وإن بدا صغيراً وليس ذا أهمية ولكنه تدريجياً يجره نحو الانحراف الكامل.

الحياة الاجتماعية

من الأمور التي ينبغي للسالك إلى الله وهو في مرحلة «الصراط المستقيم» مراعاتها، هي التعايش مع المجتمع والناس من حوله، وفي كتاب «الاتحاد والتآخي» أوضحتُ وبالتفصيل مما يتعلق باكتساب الإخوان واجتذاب قلوبهم وأسهبت القول في الكثير من المسائل الاجتماعية والأخلاقية، ولكن هناك مسألة ينبغي التذكير بها في مرحلة «الصراط المستقيم» وهي، أن بعض الناس بحد ذاتهم انزوائيو الطبع مما يجعلهم أقل فعالية من غيرهم، بمعنى، أننا نراهم يتوجهون نحو عالم المعنىٰ والعرفان والتصوف وما شابه ذلك، ويتظاهرون بترك الدنيا ولذاتها، كما ويحاولون إشاعة الأفكار التي تؤكد الزهد بمفهومه السلبي بمعنىٰ أن كل من أراد التوفيق في سيره نحو الله ولقائه لا بد له أن يترك الدنيا ويعيش الفقر والبؤس وأن يبتعد عن كل الامتيازات والمؤهلات.

وتطرقتُ لهذا الأمر بالتفصيل في كتاب «أسباب التطوّر»، وأثبت هناك أن هذا النمط من التفكير وهذا الكلام من مخططات الاستعمار التي حاول تلقينها أبناء الأمة الإسلامية، وإلا فالسالك إلى الله ينبغي أن تكون دنياه أفضل من دنيا الآخرين ويكون أُنسه بالله أشد من أُنس الآخرين به

عزّ وجل ولا بد له أن يكون قد طوى أسمىٰ وأرقىٰ مراحل الكمال الإنساني.

البعض يدعي أنه لا يمكن الجمع بين الدنيا والآخرة وأنهما لا يلتقيان أبداً، وهذا خطأ كبير فالله سبحانه وتعالىٰ أراد للناس أن يطلبوا منه الدنيا المرفهة والآخرة الحسنة(١)، وفي موضع آخر يذكر عزّ اسمه وبصورة مطلقة.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢).

وبعقيدتي أن وليّ الله هو ذلك الشخص الذي يعي ويعلم أكثر من غيره في الأمور السياسية وأبعد غوراً عمن سواه في إدارة الدولة والحكومة والأفضل في الإدارة والتدبير، وباختصار.. هو الأفضل عمن سواه في كافة الأمور الاجتماعية والأخلاقية، فالذين يظنون أن الفقر خير من الغنىٰ والضعف خير من القوة ويتخذون من ذلك شعاراً لهم هؤلاء ليسوا على «الصراط المستقيم».

إلا اللّهُمَّ أن تكون الدنيا والثروة والقوة سداً أمام تعالي الروح وتساميها في الكمالات والمعنويات ونادراً ما يحدث ذلك، وفي مثل هذه الحال لا بد أن تكون الدنيا ضحية للآخرة.. من هنا لا بد لأولياء الله أن يُجهدوا أنفسهم لتولي إدارة الدولة الإسلامية ولا بد لهم من الإحاطة بالأمور السياسية، كما وأنه لا بد لأهل التهذيب وتزكية النفس من الأخذ بزمام الأمور لاحتلال المواقع القيادية في الدولة. وأخيراً لا بد لأولياء الله أن يهيئوا في أنفسهم الأرضية اللازمة لقيادة الأمة وتسيير أمور المجتمع. حيث إن الله سبحانه وعد

---

(١) ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

أولياءه الصالحين المؤمنين[1] المظلومين[2] إذ قال عزّ ذكره ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[3]. بناءً على ذلك فالصالحون والسالكون إلى الله هم أول المعنيين بمجريات الأحداث الاجتماعية والسياسية وأول المعنيين بتقلد زمام الأمور وتحمل أعبائها، فكل الفقهاء القائلين بالحكومة الإسلامية يؤمنون بضرورة وجود فقيه من أهل التزكية والتهذيب يمسك بيده زمام الأمور ويدير دفة الأحداث وينهض بأعباء ولاية المسلمين.

---

(١) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ سورة القصص، الآية: ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

ولاية الفقيه

هنا ومن أجل ايضاح وإثبات ما سبق ذكره لا بد لنا من الإشارة إلى مسألة مهمة تناولتها منذ مدة إحدىٰ المجلات العالمية... حيث ورد فيها أن أحد الفلاسفة الإيرانيين المقيمين في أوروبا أخطأ الرأي ـ والقول للمجلة ـ في كتابه «الحكمة والحكومة» في بحثه لهذا الموضوع. وطرحوا عليّ السؤال وأجبتهم في حينها وكان السؤال والجواب كالتالي.

السؤال:

يدعي البعض أن نظرية ولاية الفقيه ليست أصيلة وعميقة الجذور في الصرح والبناء الإسلامي بل انها تتعارض والمباني العقائدية والفقهية للإسلام فما هو رأيكم في هذا الخصوص؟

الجواب:

من اليوم الأول لبعثة الرسول الأكرمﷺ ومجيئه بدين الإسلام لم يكن لديه من هدفٍ سوى حاكمية القوانين والشرايع الإسلامية على العالم أو على أقل تقدير على أولئك الذين قبلوا الإسلام كمنهج ودين وإلا لأصبحت بعثتهﷺ عبثاً وَإتيانه بالدين أمراً جزافاً، ومن الطبيعي فإن الإسلام إذا أراد لنفسه الحاكمية فلا بد أن يكون لحاكم تلك الحكومة

«ولاية» على الناس، ذلك لأنه في كثير من الأحيان لا بد أن تكون يد الحاكم مبسوطة ما يمكنه من التدخل والتصرف في كثير من أمور الحكومة، بل إن بعض المفكرين ذهبوا إلى أكثر من ذلك فرأوا أن الحكومة ليست سوى الولاية وأن الحاكم لا بد أن يكون بمقدوره التصرف بأموال الدولة وميزانيتها، ومن أجل تهيئة الآلية اللازمة للتدخل في كليات الأمور وجزئياتها أو على الأقل في تبيين أحكامها وحل معضلاتها لا بد له أن يكون مبسوط اليد كي يتمكن من معالجة بعض المسائل التي قد تصطدم بالمصلحة الفردية للبعض ولكنها تصب في مصلحة الأمة في اطارها العام، فمثلاً إذا ارتأىٰ الحاكم شق طريق تُحفظ به سلامة الناس وتُؤمن به راحتهم ورفاهيتهم وتُحل به بعض مشكلاتهم. وكان وسط هذا الطريق داراً مبنية تُعيق عمليات شق الطريق وإصلاحه عندها يمارس الحاكم دوره في ارضاء صاحب الدار وإخلائها. . وفي حالة عدم قبوله بإخلائها يستخدم الحاكم نفوذه وصلاحيته فيهدم الدار ويعطي صاحبها قيمتها المثلية ويمضي في شق ذلك الطريق.

وهذا هو معنى الولاية الذي ورد في القرآن الكريم إلى جانب الآيات التي أكدت على حاكمية الرسول ﷺ والخلفاء المعصومين من بعده على الناس. حيث قال عزّ وجل ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(١) وقوله عزّ وجل ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٢).

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

واليوم إذ رسول الله ﷺ وخلفاؤه المعصومون ليسوا وسط الأمة فمن الطبيعي أن تنتقل هذه الولاية والحاكمية لفقهاء الإسلام وعلمائه حيث صرح الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) بذلك قائلاً: «وأما الحوادث الواقعة فأرجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فانهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله»(١).

إضافة إلى ذلك، فإن الإنسان قد خُلق «مدني الطبع» ولا يمكنه الحصول على السعادة المنشودة إلا بمعاشرة الناس، كما لا بد لأي شخص وفرد من وجود قوانين ومقررات تنظم أموره الدنيوية تكون قادرة في الوقت ذاته على حل نزاعاته مع الآخرين والعيش بسعادة ووئام. وطبيعي لا يمكن تحقيق ذلك عملياً دون وجود حكومة وحاكمية على أرض الواقع، لذا نجد وعلى طول التاريخ البشري أن الحكومة والقوانين والولاية كانت ولا تزال من أهم متطلبات البشرية على الإطلاق.

وإذا هُيىء للبشرية يوماً الانتخاب فأيهما سيكون أجدر بالانتخاب لقيادتها وحكومتها، هل هو الرجل الفاسق، المتهتك، الظالم الذي يعاني من داء العظمة والشهرة أم أنها تختار لنفسها وبالاتكاء على تعاليم القرآن والرسول الأكرم ﷺ وخلفائه المعصومين. رجلاً ذا ملكات روحية عابداً، عادلاً، مطيعاً لله في كل صغيرة وكبيرة، فقيهاً (متضلعاً في أمور الدين) غير محكوم لأهواء النفس ونزعاتها من حب الجاه والظهور وحب السلطة، كي يتم على يديه

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٢ ص٩٠.

تقنين القوانين وأجراؤها على أفضل وجه ويعطى له حق الولاية؟ من البديهي ما من عاقلٍ يرجح ذاك على هذا أو يرجح الفاسق على العادل والمحكوم بأهواء النفس على المتحرر منها.

من هنا واستناداً لما قاله الإمام العسكري عليه السلام «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»[1].

يعني إذا اشتُهر في زمن الغيبة عن أحد الفقهاء بصلاحه واستقامته وإحاطته بالمعارف الدينية وقدرته على استنباط الأحكام الشرعية وكان حافظاً لنفسه من الهفوات والزلات، صلباً في دينه ثابتاً في يقينه لا يعبأ بوساوس الشيطان وأهواء النفس بل مجاهداً لها مراقباً عليها، مطيعاً لله وممن تجلت سيماء العبودية في جميع أقواله وأفعاله.. رجلاً بهذه الصفات والملكات لا بد للأمة من انتخابه وتنصيبه لقيادتها وعلى جميع الناس من غير الفقهاء القبول بولايته وتقليده.

لذا فولاية الفقيه مما يحكم به العقل والدين وهي من الركائز والأصول الدينية والعقلية وهي «الصراط المستقيم».

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٢ صفحة ٨٦.

التقاليـد

في كل مذهب ودين هناك الكثير من الأعراف والتقاليد سواء العملية منها أو الاعتقادية مشوبة وللأسف بطيف من البدع والخرافات غير الهادفة والتي أضحت بمرور الزمن جزءاً من الدين والحقيقة. ونحن هنا لا يهمنا ما للأديان والمذاهب الأخرىٰ من نصيب من هذه الخرافات التي بمرور الزمن نخرتها وقضت عليها لكن الذي يهمنا هو القول إن الإسلام مع كل الجهود والمساعي المضنية التي بذلها القادة الدينيون لحفظ الإسلام وصيانته من هذه الانحرافات ـ للأسف ـ نجد اليوم الكثير من هذه الخرافات والانحرافات تسللت وأخذت طريقها إلى الإسلام الأمر الذي يوجب على السالك إلى الله اجتنابها والتحرز منها كي لا تبتعد به عن «الصراط المستقيم».

البعض يؤمن بضرورة عدم التصدي لسنن وتقاليد طالما تسالمت عليها الأمة واستنت بها من قبل حيث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام وضمن وصاياه لمالك الأشتر أنه قال:

«ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الأُلفة وصلُحت عليها الرعية».

نحن، وجواباً على ما ذُكر نقول: إن هذا الكلام صحيح شريطة أن لا

تحتل تلك التقاليد مكان الحقائق الدينية ولا تأخذ البدع مأخذ القوانين الدينية الواقعية. ونحن إذا قلنا كون مُراد «أمير المؤمنين» هو أن الإسلام يُقر كل ما يصدر وتتسالم عليه الأمة من تقاليد وعادات فلا شك أن الدين وأحكامه سيخرج على المدىٰ البعيد عن «الصراط المستقيم»، وسيُصبح الدين أداة بيد الجهال والمتحجرين ولن يبقىٰ من الإسلام بعد برهة من الزمن إلا إسمه، ويقيناً أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يُرد بكلامه ذاك نقض تلك السنن والعادات حتى الصالحة والمفيدة منها والتي لم تكن قد احتلت مكان أو تعارضت من أحكام الدين، فعلىٰ سبيل المثال لدينا نحن الإيرانيون عيد النوروز الذي هو أحد الأعياد الوطنية والتاريخية حيث يسعىٰ فيه الناس لإصلاح ذات بينهم ورفع اختلافاتهم وبالخصوص في إطار العائلة الواحدة، ولما كان مما تسالم واعتاد عليه الناس في عيد النوروز هذا أمراً يقره الإسلام والشرع فلا يجب آنذاك على الحاكم الإسلامي نقض هذه السنة والوقوف بوجهها، لكن إذا أُلبس هذا العيد التاريخي والوطني لباساً دينياً واتخذ طابعاً يتسم بالقداسة أو أُعطي من الشموخ والعظمة والهيبة والاهتمام ما يوصل الضرر إلى الدين وكرامة المسلمين عندها يكون من الممكن للحاكم الإسلامي نقض هذه السنة وإلغاؤها بالكامل.

من هنا، وعوداً على ما سبق، فإذا بالغنا في أهمية عيد النوروز بما يجعل صيامه من المستحبات، وتصبح لحظة تحويل السنة لحظة مصيرية، وتحتل ليلة الأربعاء قبل العيد «چهارشنبه سورى» من الأهمية أن أحداً إذا لم يقفز من فوق النار في تلك الليلة فإنه سوف لا يتمتع بالسعادة والطمأنينة طول سنته تلك أو أن تكون لمائدة «هفت سين» من الكرامات ورفع البليات الشيء الكثير، وتظل الاحتفالات ومراسم الرقص والتحلل والتبرج إلى آخر يوم العيد، وأن يكون يوم الثالث عشر هو يوم نحس وإلى غير ذلك من الخرافات التي أصبح بعضها مدعاة للفساد وبعضها الآخر مدعاة لذهاب ماء الوجه

وإتهام الإسلام والمسلمين بالخرافة، هذه التقاليد ونظائرها من العادات هي انحراف عن الصراط المستقيم ولم تكن هي المقصودة. . من كلام أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب عليه السلام». ونحن إذا أرخينا العنان وفتحنا الميدان لهذه العادات والتقاليد والرسوم لتثبيت نفسها واحتلال مواقع الدين لتتحول بصورة تدريجية إلى حقائق دينية فلا شك سيحل بالإسلام ما حل بالمسيحية من قبل وأوصلها إلى ما هي عليه الآن.

لذلك فجدير بأهل التزكية السعي في الابتعاد عن هذه الخرافات والسير في صراط الدين المستقيم.

الغيبـــة

مما لا شك فيه أن الغيبة من الكبائر وهي: أن يكشف الرجل عيوب ومساوىء أخيه المسلم بما لا يرضى اطلاع الآخرين عليها في حال غيبته. هذه الموبقة لشدة ما تستبطنه من فساد كانت أشد من الزنى، كما صرحت بهذا المعنىٰ الكثير من الروايات. ولكن وللأسف نجد أن الناس يبدون نفرتهم وانزعاجهم من الزنى والزاني لكنهم ليسوا بنفس الحساسية والشدة إزاء الغيبة والمغتاب، ذلك لأنهم ليسوا على الصراط المستقيم ولم يوفِقوا بين مذاقهم وانطباعاتهم مع مذاق الشرع ومراده.

وإلا فكما أن الغيبة أقبح من الزنى والمغتاب أسوأ من الزاني كما صرح بذلك الدين الإسلامي الحنيف، عامة الناس هم كذلك لا بد أن يكون لديهم هذا الانطباع والتصور إن كانوا على الصراط المستقيم، كي لا يعتريهم الإنحراف والاعوجاج في أفكارهم وأعمالهم وعقائدهم. لذا لا بد للسالكين إلى الله من الذين يطمحون طيّ مدارج الكمال والإنسانية بسرعة لابد لهم أن يبدوا اهتماماً أكبر في التوفيق بين متبنياتهم ومتبنيات الشريعة. مقارنةً بأولئك الذين لا يبدون أي اهتمام بهذا الأمر، فهم أشبه ما يكونوا بسائق الحافلة الذي أوقف حافلته في مكانها الخاص بها وأمسك بيده مقودها يديره يمنة ويسرة

دون أن يشغل أو يدير محركها. فمهما أدار مقود القيادة فإنها سوف لا تتحرك أبداً، أما السالك إلى الله فهو أشبه بسائق الحافلة الذي يطوي طريقه بسرعة كبيرة، فأي حركة مهما كانت صغيرة في مقود القيادة ستؤدي به إلى السقوط في المنحدر والهلاك أو على الأقل فإنه سوف لا يوفق في الوصول إلى مقصده بسلام. لذا فأحد أهم مسؤوليات السالكين إلى الله هو السعي في التوفيق بين توجهاتهم الشخصية وتوجهات الشريعة وأحكامها: فكما أن الشريعة ترى في الغيبة أنها أشد من الزنى وأن المغتاب أسوأ من الزاني، هم كذلك لا بد أن يكون لديهم هذا الرأي وهذا الانطباع.

وكما أنهم يبتعدون عن الزنى ومعاشرة الزناة، كذلك لا بد لهم من الابتعاد وبنفس المستوىٰ عن الغيبة والمغتاب.

الزواج المؤقت

واحدة من الانحرافات التي أصابت مجتمعنا الإسلامي اليوم وابتعدت به عن الصراط المستقيم، أنهم يرون في الزواج المؤقت بكل ما له من أهمية واستحباب أنه عمل قبيح، وأن الّذين يمارسونه ويُقْدِمون عليه ما هم إلا أناس محكومون لشهواتهم وغرائزهم.

وأوضحنا من قبل في كتابنا «ليالي مكة» وكتابنا الآخر «أسباب التطوّر» أهمية الزواج المؤقت ومنافعه واستحبابه، ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى مسألة وهي لماذا وما هي الأسباب التي دعت بالمسلمين نساءً ورجالاً إلى الانحراف عن الصراط المستقيم؟ فوصل بهم الأمر أن يروا في هذا العمل أنه عمل قبيح وغير مقبول ومستهجن، بل نراهم في بعض الأحيان يسجلون اعتراضهم حتىٰ على «الأئمة الأطهار عليهم السلام». وعلى مبادرتهم وعملهم بهذا الأمر. لكن السالك إلى الله أياً كان إمرأةً أو رجلاً لا بد له أن ينظر لهذا السلوك وهذا العمل بنفس النظرة والرؤية التي رأتها الشريعة المقدسة على أنه عمل مستحب ومستحسن، ومعنىٰ كونه مستحب أنه مقبول ومحبوب لدى الله عزّ وجل وأوليائه، وهكذا عمل لا يمكن أن يكون قبيحاً أبداً، وما دام السالك إلى الله لم يدرك هذه المسألة بشكلها الصحيح وأنها في خير المجتمع

وصلاحه كما أشارت لذلك الأحكام الإلهية فهو لا يمكن أن يكون على الصراط المستقيم.

الشهوة والصراط المستقيم

للإنسان هناك حاجات فطرية وذاتية تُدعىٰ بالشهوات، والسالك إلى الله لا بد له وهو في مرحلة الصراط المستقيم من السيطرة على شهوته والسعي في تأطير إحتياجاته الذاتية بالأحكام الإلهية وإرشادات المعصومين عليهم السلام.

وكلما كانت الشهوات التي تعصف بالنفس أقوىٰ وأشد، أصبحت السيطرة عليها والتحكم بها مؤشراً لقوة شخصية الإنسان وصلابته وكماله.

والبعض يتصور أن السالك إلى الله ينبغي عليه أن يكبح شهوته الجنسية ويقضي عليها. في حين ينبغي لنا القول إنه لا بد للسالك من السيطرة على شهوته والاكتفاء بالحلال في عملية الإرضاء الغريزي. فقد قال الله عزّ وجل في كتابه المجيد: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1] وقوله عزّ وجل: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2] وورد في كتاب وسائل الشيعة المجلد السابع ص٨ وفي كتاب مرآة الكمال المجلد الثاني ص٦٧ عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنّهار والنّوم بالليل فأخبرت أُمّ سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء، إنّي آتي النساء وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي، وأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّا قد حلفنا على ذلك، فأنزل الله ﴿لَا

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣.

يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

السالك إلى الله واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ يحب النساء ويأنس بمعاشرتهن فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ما معناه: ما ازداد رجلاً حباً فينا إلا ازداد حباً للنساء وقوله عليه السلام من صفات الأنبياء حب النساء وقوله عليه السلام ما معناه: ما التذ أهل الدنيا والآخرة بشيء كلذتهم بالنساء وما يلتذ به أهل الجنة من الزواج بالنساء والنظر إليهن ما لم يلتذوا بكل الطعام والشراب.

ويستحب للرجل أن يكرر قوله لزوجته «أحبكِ» حيث كرس هذا القول المحبة في قلب المرأة. ومن تزوج امرأة زواجاً مؤقتاً كان لهما الإثنين من الأجر والثواب الشيء الكثير، ولعل واحداً من ثواب هذا العمل هو أن الله سبحانه يخلق ملائكة لا يطالهم الحساب يستغفرون يوم القيامة للمتزوجين الزواج المؤقت «المتعة» ويلعنون المخالفين له.

لذا فالسالك إلى الله لا بد له من الاقتداء برسول الله ﷺ في هذا الأمر ويُخرج من رأسه هذا التفكير الساذج بوجوب القضاء على الشهوة الجنسية.

الغضب

وهو من الصفات التي يجب تهذيبها وتحديدها والسيطرة عليها. وإلا فإن الشيطان سوف يوظفها له ولأغراضه الشريرة، لأن الشيطان هو المحرك والمفعّل للقوة الغضبية، ويمكنه من خلال هذا الطريق تحقيق أهدافه في إغواء الناس وإضلالهم. وأشرنا من قبل في كتاب «بين يدي الأستاذ» إلى مسائل بهذا الخصوص ولا بأس هنا من إيراد قضية توضح المسألة بصورة أجلىٰ وأكمل.

أتصور أنكم تعلمون أيها القراء الأعزاء أن كتابنا «معراج الروح» كُتب سنة ١٣٥٧(هـ. ش) الموافق لعام ١٩٧٩(م) واستطاع المئات من قرّائه الارتقاء إلى مدارج معنوية عالية، وباستطاعتكم أنتم أيها الأحبة تجربة هذا الأمر ليتبين لكم صدق كلامي ومدعاي، كما وإنكم تعرفون جيداً أيها الأحبة أنه وحتىٰ يومنا هذا كتبتُ خمسة عشر كتاباً لها من الأهمية نفس ما لذاك الكتاب من الأهمية ولكني لم أوافق على طبعها ونشرها كما وأني على يقين أن كتاب «معراج الروح» لا يضم بين دفتيه حتىٰ كلمة واحدة على غير الصراط المستقيم.

ولو كان فيه أدنىٰ انحراف لما طُبع عشرات الطبعات في الجمهورية

الإسلامية في إيران حيث توجد الحوزة العلمية وعلماء الدين الواعون، ولما اهتدى من خلاله الكثير من الناس إلى عالم السلوك والعبادة.

لكن وللأسف هناك بعض الأشخاص وأياً كانت أهدافهم مارسوا دور التضليل والتهمة ضدي وضد كتابي «معراج الروح»، الشيطان هو الآخر كان يثير حفيظتي ويوقد نحوهم جمرة الغضب في قلبي ويدعوني إلى لعنهم والرد عليهم بأعنف الرد، وكان الناس يحذرونني دائماً من ممارسات أولئك الأشخاص ونواياهم اتجاهي فيوسوس لي الشيطان ويحرضني عليهم خاصةً في تلك اللية التي سمعت فيها أن أحدهم نال منيّ في أحد كتبه لتأليفي كتاب «معراج الروح» ووصفني بالكذّاب.

حينها استقبلتُ القبلة وبدأت أكرر الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(١). كي يذهب عني شر الشيطان.

بدأ الشيطان يوسوس لي ويقول: «كن ذئباً وإلا أكلتك الذئاب».

كنت أجيبه: إن هؤلاء أناس صالحون ولا أظن أنهم بمجرد خطأ بسيط أصبحوا في عِداد الذئاب، بل إنك تدفعني لأن أكون ذئباً وتوقد جمرة الغضب في قلبي. يقول لي: هؤلاء أصبحوا عقبة في طريق الله ألم يهتدي المئات والآلاف من الناس عن طريق هذا الكتاب.

كنت أجيبه: هؤلاء لا بد لهم أن يدركوا بأنفسهم ووجدانهم أن من كان عقبة في طريق الله فهو كافر. وأني لما كنت لا أشكل في نفسي عقبة في طريق الله فلا أعبأ بهم ولا أغضب عليهم. يقول لي: لا بد أن يغضب الرجل عندما يرى أن حقه يُضيع ألم يقولوا قديماً «احياناً المظلوم هو الذي يصنع من

---

(١) سورة الحشر، الآية.: ١٠

الظالم ظالماً».

كنت أقول: ذاك بحث آخر، الناس ذوو وجدان وقرأوا القرآن وعرفوا أن الله سبحانه وتعالىٰ أثنىٰ على أصحاب العقول وأولي الألباب حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾(١).

فلا بد من وجود كتبي وكتب غيري من الكتّاب فإذا كان كلامهم أصوب وأصح من كلامي فإن الناس سيأخذون بكلامهم، وإذا كان كتاب «معراج الروح» هو الأفضل فلا شك أنه سيكون محل انتخاب الناس وموضع إختيارهم.

يقول لي الشيطان: إنك تعلم الكثير من نقاط ضعف الكاتب الفلاني والخطيب الفلاني وهؤلاء هم الذين حاولوا تضليل الأجواء عليك وأنك تستطيع بهذه الحربة التي بين يديك أن توجه لهم ضربة عنيفة وتفضحهم بين الناس، هنا استشطتُ غضباً على الشيطان وقلت له: لا أرضىٰ لنفسي أبداً تضييع أخلاقي الإسلامية من أجل أهوائي النفسية ووساوسك وأسأل الله أن يحفظني من شرك وشر أطماعك في أغوائي بغضبي على المؤمنين ما دمتُ حيّا.

فعلى السالكين إلى الله أن يعلموا أن الشيطان في بعض الأوقات يتصنع ويتظاهر بنصرة الإنسان ومعاضدته لكن هدفه في ذلك إسقاطه في الهاوية والقضاء عليه.

لذا فلا بد أن يكون احتواء الغضب بيد الإنسان ولا يغضب إلا حيث أمره الله سبحانه وتعالىٰ.

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

النظافة والزينة

من المسائل التي ينبغي للسالك إلى الله مراعاتها والاهتمام بها على طول الخط في سيره نحو الله هي النظافة الظاهرية. والتي ينبغي أن تكون بعيدة عن كل ألوان الإفراط والتفريط ويجب أن تكون على صراط الدين المستقيم وأحكامه بالكامل.

فلا ينبغي للسالك إلى الله أن تفوح من بدنه وفمه الرائحة الكريهة ويلزم له حين الحضور في المجالس العامة اجتناب أكل الثوم والبصل كما ويجب أن يكون لباسه نظيفاً فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «النظيف من الثياب يُذهب الهمّ والحزن وهو ظهور للصلاة»[(١)].

فيتعين على السالك إلى الله الاستحمام على الأقل مرة واحدة بين اليوم والآخر ويحافظ على نظافة بدنه كما ويتعين له أن يأخذ ما طال من شاربه فإن إبقاء الشارب وحلق اللحىٰ خروج عن الصراط المستقيم.

السالك إلى الله يفترض أن تفوح منه دائماً الرائحة العطرة وأن يكون على وضوء ما أمكنه ذلك، كما ينبغي له الاستياك مرتين على الأقل في اليوم

(١) فروع الكافي ج٦، ص٤٤٤.

والليلة، كي يبقىٰ فمه وأسنانه نظيفة وأن يتخلل بعد الغداء وعلى الخصوص بعد أكل اللحم.

ويجب على المرأة والرجل أن يتزين كل منهما للآخر ويلبس كلٌ منهما للآخر الملابس اللطيفة الناعمة المهيجة للشهوة الجنسية، أما زينة الرجل فهي الخاتم وشعر الرأس واللحية ويحرم عليه حلق لحيته، فقد نُقل عن رسول الله ﷺ ما معناه: عندما أنعم الله سبحانه وتعالى باللحية على آدم عليه السلام سأل آدم عليه السلام: يا رب ما هذه؟ قال عز اسمه: هذه زينة لك وللرجال من أولادك إلى يوم القيامة.

أما المرأة فيجب عليها أن تتزين وتتجمل لزوجها ما أمكنها ذلك، كما ويستحب أن يُبقي الزوجان غرفة نومهم معطرة والمرآة في إحدى زواياها كي ينظرا إلى وجهيهما ألا يكونا مشوبين بشيء كي يُزال قبل علم الآخر به.

الـــزواج

السالك إلى الله إذا أراد لنفسه البقاء على الصراط المستقيم فيتعين عليه أن لا يظل في العزوبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وأن يتزوج الزواج الدائم أو على الأقل الزواج المؤقت حيث وردت روايات كثيرة في أهمية الزواج واستحبابه.

فقد ورد في بعض الروايات عن الرسول الأكرمﷺ أنه قال: «من سره أن يلقىٰ الله طاهراً مطهراً فليلقه بزوجة صالحة»(١). وورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «ركعتان يصليهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها عزب»(٢).

فالزواج للسالك إلى الله أمر ضروري ولا بد منه، ومن يريد أن يلقىٰ الله سبحانه فلا بد أن يلقاه بزوجة صالحة. وفي غير ذلك لا يمكنه الثبات على الصراط المستقيم.

ويفترض أن يكون للسالك إلى الله مصدر رزقٍ يهيىء له ولعياله معيشة

---

(١) مكارم الأخلاق، ص١٩٧.

(٢) مكارم الأخلاق، ص١٩٧.

متوسطة عزيزة كريمة فقد ورد عن الإمام عليه السلام أنه قال: «الكمال كل الكمال التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة»[1].

يعني أن كل الكمالات الإنسانية جُمعت في ثلاث خصال الأول أن يكون الإنسان عارفاً بأمور دينه، الثاني أن يصبر على نوائب الدهر، الثالث الحصول وتهيئة ما يقتات عليه. فالسالك إلى الله ينبغي أن تكون كلتا حياتيه الدنيوية والأخروية حسنة وسعيدة ومن يصبح جليس بيته ويشتغل بالدعاء والعبادة فإن الله لا يفيض رحمته عليه ويرزقه ما لم يُجهد نفسه بالعمل والحركة وطلب الحلال من الرزق. فقد ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أربعة لا يُستجاب لهم دعاء: رجل جالس في بيته يقول: يا رب ارزقني فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟...»[2].

فعلى السالك إلى الله أن يُجهد نفسه في طلب الرزق له ولعياله ويوفر لهم الحياة الكريمة حتى لا يخرج عن الصراط المستقيم.

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٧٨ ص١٧٢.

(٢) وسائل الشيعة المجلد ١٢ الباب ٥.

آداب المعاشرة

السالك إلى الله شخص اجتماعي الشخصية والسلوك فهو مع الناس يخالطهم ويعاشرهم بصورة تجعله عندهم أنموذجاً للإنسان الكامل، فأخلاقه أشرف الأخلاق وسيرته أكرم سيرة، فهو يحب الناس وهم كذلك يبادلوه المحبة وهو صادق في قوله وفيّ بوعده وذو حياء يعفو عمن أساء إليه كاظماً للغيظ صابراً أمام حسد الحساد، يتكلم القليل كي يفتح الله على قلبه أبواب الحكمة، رحيم مع الأصدقاء عطوف بالأعداء، إذا آذاه أحد واعتذر إليه يقبل عذره فقد ورد في وصية رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «من لم يقبل العذر من متنصل صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي»[(١)].

وروي عن الإمام السجاد عليه السلام يوصي ولده: «إن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره»[(٢)].

ينبغي للسالك إلى الله أن يسلم علىٰ من يراه وبصوت عالٍ جهوري فقد

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٧٧ ص٤٧.

(٢) بحار الأنوار المجلد ٧٨ ص١٤١.

قال رسول الله ﷺ: «أبخل الناس من بخل بالسلام»[1].

السالكون إلى الله إذا التقوا تبادلوا بينهم كلمات ومعاني الود والمحبة، ويتلذذون بلقيا بعضهم البعض فترى البسمة تعلو وجوههم وتغمر شفاههم.

تراهم أبعد الناس شيئاً عن الرهبانية والعزلة والانزواء فهم مع الناس وفيهم ومتواضعون لغيرهم. وخلاصة القول إنهم يعملون بكل ما ورد في كتابنا الذي كتبناه في اكتساب الأصدقاء والاخوان «الإتحاد والتآخي»[2].

(١) بحار الأنوار المجلد ٧٦ ص٤.

(٢) «إتحاد ودوستي».

الأدعية والأذكار

السالك إلى الله لا بد له أن يعطي هذه المرحلة حجمها من الأهمية، فيثبت أقدامه على الصراط المستقيم من خلال الأُنس بهذه الأوراد والأذكار القرآنية.

ولا بد هنا من الاشارة إلى أمور عدة هي:

١ ـ أورد الباريء سبحانه وتعالىٰ الكثير من الأذكار والعبادات في كتابه الكريم وبيّن خصائصها وعلى السالك إلى الله في أول أمره أن ينتفع بهذه الأذكار والعبادات أكثر من غيرها. ذلك لأن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ولما كان السالك من المؤمنين فينبغي له الانتفاع بهذا الإكسير الإلهي دون غيره.

٢ . إذا أوصىٰ القرآن الكريم بذكرٍ أو تسبيح على أن يؤتىٰ به في الليل والنهار ولكن لم يبين عدد ما ينبغي أن يؤتىٰ به من هذا الذكر أو التسبيح، في هذه الحالة نستطيع أن نتعرف على عدده إما عن طريق الروايات أو من خلال أستاذ مجتهد متخصص في هذا الميدان وهذا الفن، يُطمأن إليه ومن أصحاب الصراط المستقيم أو نأتي بعددٍ معين بقصد الرجاء بما يتناسب وحالنا ومزاجنا.

٣ ـ بعض الأعمال يمكن الإتيان بها بقصد الرجاء، أما الأعمال الموجبة للإرهاق والملل أو التي تورث قساوة القلب، فلا يمكن الإتيان بها بقصد الرجاء، لأننا إذا علمنا بعدم مطلوبية أمرٍ فلا يمكننا الإتيان به على أمل أنه مطلوب.

ولعل قراءة الآيات القرآنية والعبادات المستحبة التي ورد ذكرها في القرآن هي في هذا الإطار من العبادات، خاصةً أننا نجد أن القرآن يذم أولئك الذين يأتون الصلاة بروح كسولة ضجرة فيقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1].

٤ ـ القرآن الكريم يحث على بعض الأذكار والأوراد والأعمال، دون أن يتطرق إلى عددها أو زمانها أو مكانها. ولكن الإنسان ذاته تقع عليه مسؤولية معرفة تلك الخصوصيات، فمثلاً إذا قيل للعامل أو الأجير دقّ هذا المسمار في الحائط، عندها سوف لا يكون من الضروري ذكر عدد الضربات التي يضرب بها المسمار، كذلك الأمر في قراءة القرآن فالهدف هو التعرف على حقائق القرآن والسعي إلى ترسيخ معانيه في القلب والروح، من هنا فأي عدد من الآيات يحقق هذا الهدف فلا بأس به وينبغي الاكتفاء به.

وهكذا فلم يذكر في القرآن عدد الركعات الواجب إتيانها في صلاة اليوم والليلة ولكن المعصوم هو الذي يبين لنا عدد تلك الركعات وكيفيتها.

من هنا فإن الأدعية والأذكار القرآنية إما أن تكرر كي يصدق عليها معنىٰ المداومة والاستمرار ما يجعلها تترسخ في أعماق الإنسان وقلبه أو أن يُبين عددها أستاذ مجتهد متخصص في هذا الفن عن طريق الروايات.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

عدة أدعية وأذكار قرآنية

هذه الآيات إذا قرئت بقصد الرجاء والدعاء فإنها نافعة ومفيدة للحصول على الموفقية في مرحلة «الصراط المستقيم».

أولاً: إقرأ كل يوم ولمدة أربعين يوماً ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1].

وإذا قرأتها في كل يوم أربعين مرة كان أفضل.

في رواية عن أمير المؤمنين وردت في شأن هذه الآيات من سورة الحمد أن الله سبحانه وتعالىٰ قال[2]:

ثانياً: إذا قُرأت سورة الفاتحة كل يوم سبع مرات أو سبعين مرة فإنها مفيدة لشفاء الروح من كل إفراط وتفريط.

ثالثاً: في هذه المرحلة «مرحلة الصراط المستقيم» واظب على قول ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3].

رابعاً: إقرأ في اليوم والليل وبقصد الرجاء الدعاء التالي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[4].

خامساً: أكثِر في هذه المرحلة من قول ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٢) مرآة الكمال المجلد ٢ ص٣٢.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٩.

سادساً: كرر في هذه المرحلة وبقصد الرجاء قول ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

سابعاً: أكثر من قول ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[2].

ثامناً: أكثر في هذه المرحلة بقصد الدعاء قول ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[3].

تاسعاً: اجعل وردك في هذه المرحلة الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

عاشراً: في هذه المرحلة إقرأ آية الكرسي إلى قوله تعالى ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5].

أحد عشر: إتلُ في هذه المرحلة وبقصد الدعاء ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[6].

ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة غفل عنها الكثيرون وهي أن «الأئمة الأطهار»عليهم السلام أوصوا بالإجتهاد في فهم فروع أوضحوا أصولها من قبل، وبهذا الأسلوب حاولواعليهم السلام تربيتنا على التحقيق والتدبر في آيات القرآن، فمثلاً هناك رواية وردت عن الإمام الصادق في هذا المضمار يتعين على السالك إلى الله معرفة شرائطها أو أن يتبنى أستاذه توضيح تلك الشرائط له والرواية هي كالتالي:

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٦.

(٥) سورة البقرة، الآيات: ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

قال الصادق عليه السلام: **عجبتُ لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع عجبتُ لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله عز وجل ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فإني سمعت الله جلّ جلاله يقول بعقبها ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[1] وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله عز وجل ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإني سمعت الله عزّ وجل يقول بعقبها ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قوله ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فإني سمعت الله جلّ وتقدس يقول بعقبها ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾[3] وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يضرع إلى قوله تبارك وتعالى ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فإني سمعت الله عزّ اسمه يقول بعقبها ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[4] وعسى موجبة[5].**

وظيفة الأستاذ في هذه المرحلة هو أن يبين للسالك إلى الله عدد هذه الأذكار وكيفيتها فيمكن أن تكون قراءة هذه الأذكار لمرة واحدة كافياً من البعض، وقراءتها مئات المرات غير كافٍ من البعض الآخر، كما وينبغي الإشارة هنا إلى أن هناك الكثير من الروايات وردت في ذم الكذب على الله عزّ وجل وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام، وقد أفتى مراجع التقليد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة غافر، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الكهف، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) الخصال: للشيخ الصدوق ص٢١٨.

ببطلان صيام من كذّب على الله أو أحد الأنبياء أو الأئمة أو فاطمة الزهراءعليها السلام، قولاً أو كتابةً أو إشارةً إضافةً، إلى ارتكابه إحدى الكبائر.

وزاد مراجع التقليد على ذلك، أن شخصاً إذا كذّب وتاب فوراً عن ذنبه وصرح أنه كذّب عليهم(صلوات الله عليهم أجمعين) مع ذلك، فإن صيامه سوف يبطل.

من هنا يتحتم على الكتّاب وأصحاب القلم وعلى الخطباء الذين يشتغلون في كتاباتهم وكلامهم بالآيات القرآنية وروايات المعصومينعليهم السلام، أن يكونوا على أتم الحذر في بيان أرائهم وأفكارهم، فقد ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام قوله:

«كذب السفير يولد الفساد ويفوت المراد ويبطل الحزم وينقض العزم»[1].

والأمر الآخر الذي يلزم التذكير به والإشارة إليه والذي هو بنفسه أشد من الكذب على الله والرسول والأئمة هو اتهامهم (صلوات الله عليهم أجمعين) بالكذب ذلك لأن تكذيب المؤمن ونسبة الكذب إليه وإسقاطه من أعين الناس ذنبه أشد بمئات المرات من الكذب عليه حتى ورد في رواية صحيحة عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الأولعليه السلام قال:

قلت له: جعلتُ فداك الرجل من أخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عن ذلك فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات فقال لي: يا محمد كذّب سمعك وبصرك عن أخيك فإن شهد عندك خمسون قسامة وقال لك قولاً فصدقه وكذبهم ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته

(١) غرر الحكم الفصل ٦٩ كلمة ٤٠.

فتكون من الذين قال الله في كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

يتضح لنا من هذه الرواية كم هو قبيح ومقرف إتهام الآخرين بالكذب، وإذا كان الكذب على الله والرسول والأئمة الأطهار من الذنوب الكبيرة ومما يبطل الصيام فإن اتهام البارىء عزّ وجل والرسول الأكرم ﷺ أو الأئمة عليهم السلام بالكذب فهو من الكفر الذي يخرج به الرجل من الإسلام، بل إن كل مراجع التقليد يؤكدون أن القائل بذلك هو مرتد ونجس وأن الله سبحانه وتعالى كرر أكثر من مرة قوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات.

(١) أصول الكافي المجلد ٨ ص١٤٧.

بعض الآثار المطبوعة للمؤلّف

١ ـ پرواز روح، ترجم إلى العربية بعنوان (معراج الروح) كما ترجم إلى لغة الأردو أيضاً.

٢ ـ عالم عجيب ارواح، ترجم إلىٰ العربية بعنوان (عالم الأرواح العجيب).

٣ ـ ملاقات با إمام زمان عليه السلام (جزءان)، ترجم إلىٰ العربية بعنوان (الكمالات الروحية عن طريق اللقاء بإمام الزمان عليه السلام) كما ترجم إلىٰ لغة الأردو أيضاً.

٤ ـ مصلح غيبي (المصلح الغيبي)، ترجم إلى لغة الأردو.

٥ ـ در محضر استاذ (بين يدي الأستاذ).

٦ ـ دو مقاله (مقالتان).

٧ ـ أنوار زهراء (أنوار الزهراء)، ترجم إلىٰ الغة الأردو.

٨ ـ شبهاي مكّة (ليالي مكّة).

٩ ـ عوامل پيشرفت (أسباب التطوّر).

١٠ ـ اتّحاد ودوستي (الإتحاد والتآخي).

١١ ـ پاسخ ما (جوابنا)

١٢ ـ راه خدا (سبيل الله).

١٣ ـ مصلح آخر الزمان (مصلح آخر الزمان).

الفهرس

مقدّمة ٧

موضوع الكتاب ١١

الفصل الأول

اليقظة

الأحلام الذهبيّة العجيبة ١٥

جو الأسرة ١٨

شمس جماله . . بعثتني مِن مرقدي ٢٢

الخوف من الأفعىٰ ٢٥

النحلة تتكلم ٢٨

فرخا العصفورة . . التي ماتت ٣٠

أنت لا تصلح أن تكون زوجاً لي ٣٤

هزتني معجزات الإمام الرضا عليه السلام ٣٧

ليلة سطعت القبة بالنور ٣٩

كرامة الإمام الرضا عليه السلام ٤٢

تأثير آيات القرآن ٤٤

كيف أصحو من غفلتي؟ ٤٧
الشكّ المقدّس ٥١
أثر كتاب «معراج الروح» ٥٤
اللقاء بإمام الزمان عليه السلام ٥٨
صحوت من نومة الغفلة ٦٣

الفصل الثاني

الأستاذ

أستاذ. . لتزكية النفس ٧٩
موسى والخضر عليهما السلام ٨١
على الإنسان أن يحدد هدفه ٨٨
أردت تناول جميع الأدوية. . مرة واحدة! ٩١
ليس الشأن بكثرة العبادة ٩٣
خطوة خطوة. . حتّىٰ بلوغ الكمال ٩٧
كلمة موعظة. . من إمام المسجد ١٠٠
أكل ما يقوله المرشد صحيح؟ ١٠٣

الفصل الثالث

التوبة

التوبة والأوبة ١١١
شروط التوبة ١١٢
البكاء على سيد الشهداء أكبر بلسم للروح ١١٤
زيارة الإمام الرضا عليه السلام ١٢١
توبة آدم عليه السلام ١٢٧

جارنا . شفع لي ١٣١
قراءة القرآن ١٣٨
ما وَفّقني الله! ١٤٦
أستاذي دلني على التوبة ١٥١

الفصل الرابع

الثبات

مرحلة الثبات ١٦٧
التخلص من اليأس والكسل ١٦٨
صَيَّروني «خوافا»! ١٧٢
تحمّل الشدائد ١٧٧
الصبر على العبادة ١٨٢
ثبات القدم إزاء المعصية ١٨٦
إدفعْ عنك المَلالة والكسل ١٨٩
بالإرادة القويّة. . نبلغ الثبات ١٩٤
سوء الظن بالناس ١٩٩
ما عندَ الله باق ٢٠٤
الثبات. . أو سر النجاح ٢٠٧
الأولى: الخوف ٢١٣
١ ـ شدّة اعتقاد الإنسان بقيمته الشخصيّة واحساسه بعظمة نفسه: ٢١٤
٢ ـ غياب الاعتماد على النفس ٢١٤
٣ ـ قلّة العمل وقلّة التجربة ٢١٥
الثانية: اليأس والقنوط ٢١٧

الثالثة: قلّة الصّبر ٢١٨
الرّابعة: العَجَلة ٢٢٠
الخامسة: سوء الظنّ ٢٢١
السّادسة: الكَسَل ٢٢٣
مقارنة بين تعاليم الإسلام وأقوال العلماء ٢٢٧
قيمة التفكير ٢٣٠
أهميّة التركيز الذهني ٢٣٢
تعليمات للتركيز الذّهني ٢٣٤
بيانات مرتاض هندي ٢٣٧
التنظيم في الأمور ٢٤٠
تعليمات للانتظام في الحياة ٢٤٣

الفصل الخامس

الصراط المستقيم

مرحلة الصراط المستقيم ٢٤٩
معنى الصراط المستقيم ٢٥٢
ما هو الطريق القويم؟ ٢٥٥
صراط الدنيا وصراط الأخرة ٢٥٩
مكاشفة تربوية ٢٦٣
«الفلسفة أم الحكمة» ٢٧٤
الفلسفة الإسلامية ٢٧٨
الميزان الواقعي ٢٨٣
الفائدة من إثبات إعجاز القرآن ٢٨٤

كتاب علي عليه السلام ٢٨٧
النظم في الحياة ٢٩٠
الوسواس ٢٩١
الخلو من العقائد المنحرفة ٢٩٣
توقيفية العبادات ٢٩٧
حقيقة العبودية ٢٩٨
ترك المحرمات وإتيان الواجبات ٣٠١
لا تَعْتَد على شيء ٣٠٣
الوفاء بالعهد ٣٠٥
الحياة الإجتماعية ٣٠٧
ولاية الفقيه ٣١٠
التقاليـد ٣١٤
الغيبـة ٣١٧
الزواج المؤقت ٣١٩
الشهوة والصراط المستقيم ٣٢٠
الغضب ٣٢٢
النظافة والزينة ٣٢٥
الــزواج ٣٢٧
آداب المعاشرة ٣٢٩
الأدعية والأذكار ٣٣١
عدة أدعية وأذكار قرآنية ٣٣٣
بعض الآثار المطبوعة للمؤلّف ٣٣٨

سيّر الله